



جامعة القدس

عمادة الدراسات العليا

الآخر في قصص الطفل الصهيوني والفلسطيني دراسة مقارنة؛ قصص
الأطفال ما بين 1967--2000م نموذجًا

مروة موسى عليان صلاح

رسالة ماجستير

القدس - فلسطين

1444 هـ / 2023 م

الآخر في قصص الطفل الصهيوني والفلسطيني دراسة مقارنة؛ قصص
الأطفال ما بين 1967--2000م نموذجًا

إعداد:

مروة موسى عليان صلاح

بكالوريوس: أساليب اللغة العربية / جامعة القدس المفتوحة/ بيت لحم /فلسطين

المشرف: د. بنان صلاح الدين

قُدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في العربية
وآدابها / كلية الدراسات العليا/ جامعة القدس

القدس- فلسطين

1444هـ- 2023 م

إهداء

إلى أُمي العظيمة الشمعة التي تنير دربي ، التي مهما كبرت سأظلّ طفلة صغيرة في حضورها، إلى أبي
الغالي الذي زرع في قلبي حب العلم والمثابرة...إلى إخوتي وأخواتي

إلى أستاذي الرائع الدكتور إبراهيم أبو غالية الذي لولاه ما وصلت.

إلى فلسطين الجريحة

إلى غزة وشهداء غزة الذين سقوا الأرض بدمائهم الطاهرة



جامعة القدس
عمادة الدراسات العليا
برنامج اللغة العربية وآدابها

إجازة الرسالة

الآخر في قصص الطفل الصهيوني والفلسطيني دراسة مقارنة
"قصص الأطفال ما بين ١٩٦٧-٢٠٠٠م نموذجاً"

اسم الطالبة: مروة موسى عليان صلاح

الرقم الجامعي: ٢١٧٢٠١٨١

المشرف: الدكتورة بنان صلاح الدين

نوقشت هذه الرسالة وأجيزت بتاريخ ٧ / ٦ / ٢٠٢٣م من أعضاء لجنة المناقشة المدرجة أسماؤهم وتواقيعهم:

١. رئيس لجنة المناقشة: د. بنان صلاح الدين
التوقيع:
.....
٢. ممتحنًا داخليًا: د. مشهور الحبازي
التوقيع:
.....
٣. ممتحنًا خارجيًا: د. خليل عودة
التوقيع:
.....

القدس - فلسطين

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣

إقرار

أقرُّ أنا معدُّ الرسالة بأنَّها قُدمت لجامعة القدس، لنيل درجة الماجستير، وأنها نتيجة أبحاثي الخاصَّة، باستثناء ما تمَّ الإشارة إليه حيثما ورد، وأنَّ هذه الرسالة أو أيَّ جزء منها لم يُقدَّم لنيل أي درجة عليا لأي جامعة أو معهد آخر.



التوقيع:

مروة موسى عليان صلاح

التاريخ: 7 / 6 / 2023م

الشكر والعرفان

كنت معي في كل المرات التي أصابني اليأس فيها ومضيت بحثا عن مرجع يصعب عليّ إيجاده، في كل صفحة كتبتها ومحوتها خلال هذه السنوات الثلاثة، في كل دمعة نزلت من عيني وأنا أنتظر هذه اللحظة كنت معي يا الله في كل خطوة فلك الحمد ولك الشكر.

كما أتقدم بجزيل الشكر والامتنان لأساتذتي الكرام في جامعة القدس أبو ديس الذين أمدوني بالعلم والمعرفة، وأخص بالذكر مشرفتي الفاضلة: الدكتورة بنان صلاح الدين التي وقفت بجانبني في كل مراحل هذا البحث وقدمت لي النصائح والتوجيهات وما بخلت يوما بوقتها وجهدها...

والشكر الكبير للدكتور والأب الروحي: الدكتور إبراهيم أبو غالية الذي تعجز كلماتي عن وصفه.

والشكر الكبير للدكتور الفاضل جمال غيطان الذي كان لي خير معلم.

والشكر للكاتب الرائع محمود شقير الذي ساعدني في الوصول إلى الكثير من المراجع...

الملخص

استهدفت الدراسة بيان سمات صورة الفلسطيني في قصص الطفل الصهيوني وصورة الصهيوني في أدب الطفل الفلسطيني في الفترة من (1967-2000)، وتوضيح الأدوات الفنية التي استند إليها الكتاب من الفريقين، وبيان مدى التأثير المتوقع في نفوس النشء من الفريقين بسبب تلك القصص، ورسم ملامح التصوير البياني والأسلوبي واللغوي بالموازنة بين الصورتين، ومن أجل تحقيق تلك الأهداف استندت الباحثة إلى المنهج الوصفي التحليلي الذي يرصد الظاهرة، ويحاول تفسيرها وتحليلها وفق المعطيات والمقدمات للوصول إلى نتائج موضوعية، علاوة على الاستعانة بالمنهج المقارن في بعض مناحي الدراسة.

انبثقت مشكلة الدراسة من كون الأعمال الأدبية الموجهة للأطفال الفلسطينيين والصهيوني مملوءة بالعداء وتشويه الحقائق أو المبالغات في أحسن تقدير، وإن هذا يلقي بظلال قاتمة على الواقع المعيش ومستقبل القضية الفلسطينية العادلة التي هي قضية العرب والمسلمين جميعاً، بل إن تلك القصص من شأنها أن تسد جميع المنافذ للوصول إلى تسوية عادلة تجنب الأجيال المعاصرة والقادمة ويلات الحروب ونار الأحقاد التي لا تنطفئ، ومن هذا المنطلق كان لا بد من محاولة رسم صورة الفلسطيني والصهيوني كما رسمها الكتاب من الجانبين؛ وهذا يقتضي النهوض بعبء دراسة موازنة تتحرى الدقة والموضوعية والأخذ بأسباب البحث وأدواته العلمية.

توصلت الدراسة إلى مجموعة من النتائج؛ أهمها: أن الأدباء الفلسطينيين قد رسموا صورة للصهيوني تحمل عدة صفات تتمثل في: المحتل، الخائن، اللص، المخرب، الظالم، القاسي، في حين رسم الأدباء الصهاينة صورة للفلسطيني تحمل عدة صفات أهمها: الجبان، الوحش، القذر.

اتخذت الدراسة بعض التوصيات؛ أهمها: إعداد برامج للأطفال تتحدث باللغة الصهيونية تتناول المغالطات التي امتلأت بها قصص الطفل الصهيوني، وإعداد أعمال فنية باللغة العبرية أو الإنجليزية تبين الحق الفلسطيني في أرضه.

The other in the stories of the Zionist and Palestinian children is a comparative study. Children's stories between 1967-2000 AD as an example

Prepared by: Marwa Musa Alyan Salah

Supervisor: Dr. Bnan Salah Aldiyn

Abstract

The study aimed to explain the characteristics of the image of the Palestinian in the stories of the Zionist child and the image of the Zionist in the literature of the Palestinian child in the period from (1967-2000), and to clarify the artistic tools upon which the writers from the two groups relied, and to indicate the extent of the expected influence on the souls of the young people from the two groups because of those stories, and to draw the features of the graphic, stylistic, and linguistic depiction by balancing the two images. In order to achieve these goals, the researcher relied on the descriptive and analytical method that monitors the phenomenon and attempts to explain and analyze it according to the data and introductions to reach objective results, in addition to using the comparative method in some aspects of the study.

The problem of the study emerged from the fact that the literary works directed at Palestinian and Zionist children are full of hostility and distortion of facts or exaggerations at best, and this casts a dark shadow on the living reality and the future of the just Palestinian cause, which is the cause of all Arabs and Muslims. Indeed, these stories would close all outlets. In order to reach a just settlement, contemporary and future generations will avoid the scourge of wars and the fire of hatred that cannot be extinguished. From this standpoint, it was necessary to try to draw the picture of the Palestinian and the Zionist as drawn by writers on both sides. This requires carrying out the burden of a budgetary study that seeks accuracy, objectivity, and taking into account the reasons for the research and its scientific tools.

The study reached a set of results: The most important of which is that Palestinian writers have drawn a picture of the Zionist bearing several characteristics: occupier, traitor, thief, saboteur, oppressor, and cruel, while Zionist writers have drawn a picture of the Palestinian bearing several characteristics, the most important of which are: cowardly, monster, and filthy.

The study made some recommendations: The most important of which are: preparing programs for children that speak the Zionist language that address the fallacies that are filled with Zionist children's stories, and preparing artistic works in Hebrew or English that demonstrate the Palestinian right to their land.

Keywords: the other - children's stories - Zionist - Palestinian.

المقدمة

إنّ دراسة الآخر في الأدب من المسائل التي شغلت النقاد⁽¹⁾ في الدراسات النقدية الحديثة؛ وعلاوة على ذلك فإن دراسة الآخر من منظور أدبي يكشف جوانب الأنا ومكامن قوتها وضعفها، ويلقي مزيداً من الأضواء على مراحل العلاقة مع الآخر؛ سواء أكانت الصلة به تمثل نزلاً أم جدالاً أم تعاوناً وكمالاً، كما أن مثل هذه الدراسات تقيس المنحنى البياني الذي تمر به الأمم في علائقها وتوجهاتها، وترصد المتغيرات التي تطرأ على ثقافتها ومدى تأثيرها بالعوامل الداخلية والخارجية، على أننا من الأهمية بمكان ألا نغفل أن التصور الأدبي لأي قضية إنما هو ينبثق من رؤية الكاتب نفسه التي تستمد جوانبها وخلفيتها من البعد التاريخي لأمته.

ومن ثم فإن دراسة الصورة الذاتية وصورة الآخر من الأمور المهمة جداً في قضايا الأدب الحديث والمعاصر⁽²⁾، والمراد بالصورة هنا هي الصورة الذهنية والقومية التي تنعكس من خلال أدب الأطفال الفلسطيني الذي رسم صورة للصهيوني التي تبلورت من خلالها ملامحه الأخلاقية والشكلية ومعتقداته القتالية في تعامله مع الآخر الفلسطيني العربي؛ فهل هو قتال من منطلق الحق والعدل؟ أم هو قتال منطلق من الاعتداء والاعتصاب والظلم؟ كما أن هذا الآخر العدو يرسم صورة للعربي الملاحظ فيها أنها صورة مرسومة بريشة كاريكاتورية هزلية بعيدة عن الواقع والمنطق والأحداث التاريخية التي دونتها الأقلام؛ سواء في الأخبار أم في التاريخ الحديث، بل مع اقتحام الكاميرات عالمنا المعاصر صارت

(1) من أمثال: (ميشيل فوكو)، و(هيدغر)، و(فرانكا سينيوبولي)، و(نعوم تشومسكي) و(محمد زكور). ينظر: البازعي، سعد (2007): دليل الناقد الأدبي، ط5، المركز الثقافي العربي، بيروت، ص 23؛ هايدغر، مارتن (2012): الكينونة والزمان، ترجمة: فتحي المسكيني، (دط)، دار الكتاب الجديد، بيروت، ص 52؛ سينيوبولي، فرانكا (2007): الأدب الأوربي من منظور الآخر، ترجمة: مجدي يوسف، ط1، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ص 16؛ تشومسكي، نعوم (2001): النزعة الإنسانية، ترجمة: أيمن حداد، (دط)، دار الأدب، بيروت، ص 13.

(2) المقصود بالأدب الحديث ذلك الإنتاج الأدبي الذي قيل في العصر الحديث الذي تلا العصور القديمة والوسطى، وقد تقلب في أشكال متعددة من الأداء بين التقليد والتجديد، أما الأدب المعاصر فهو الإنتاج الأدبي الذي قيل في مرحلة من مراحل الأدب الحديث وهي المرحلة الحالية التي نعاصرها، وهي مرحلة متحركة لا تقبل الثبات؛ فما هو معاصر اليوم سيأتي عليه يوم يصبح حديثاً فقط وينسلخ من المعاصرة. ينظر: إسماعيل، عز الدين (2003): آفاق الشعر الحديث والمعاصر في مصر، (دط)، دار غريب، القاهرة، ص 5، 10.

الأحداث مسجلة بالصوت والصورة؛ ما يجعل المروعة والأكاذيب والاختلاق لا جدوى منها ولا طائل من ورائها، كيف والصورة أكبر عنوان وشاهد ودليل.

على أن الحالة الفلسطينية في تناولها الآخر تتسم بخصوصية وتفرد ربما لا يماثلها غيرها في الآداب المختلفة، وقد تبلورت هذه الخصوصية وارتسمت ملامحها عقب النكبة التي منيت بها الأمة عام 1948م الذي يمثل طعنة غادرة في قلب الأمة الفلسطينية؛ ذلك أن الموقف الفلسطيني من الآخر شديد الصلة بما بين الأمة الفلسطينية والعدو الصهيوني من تناقض تام على المستويات كافة؛ سواء الدين أم العرق أم اللغة أم التاريخ أم الأخلاق والثقافة، وينجم عن ذلك الاختلاف في رؤية العالم والكون وفلسفة الحياة.

استطاعت الظروف التاريخية والسياسية والاجتماعية التي عصفت بالقضية الفلسطينية عبر مراحلها المختلفة أن تشكل منعطفًا تاريخيًا مهمًا وخطيرًا في حياة الشعب الفلسطيني، وكان من الطبيعي أن تتجلى تلك الظروف في الأعمال الأدبية الفلسطينية، وإذا أخذنا بعين الاعتبار أهمية الكلمة في تشكيل الوعي وشحن الجماهير وتحريكها نحو غاية ما، فلا بد أننا سندرك أن القضية الفلسطينية كانت حاضرة في هذا الأدب تمثل البوصلة التي يتوجه إليها كل حراك، بالإضافة إلى تصوير الآلام والعذابات التي يكابدها الشعب الفلسطيني في تعامله صباح مساء مع عدو غاشم محروم من القيم الأخلاقية والمثل العليا.

إن أدب الأطفال أدب موجه للطفل معني بمخاطبته والغوص في عالمه والعزف على أوتار مشاعره وتصويراته البسيطة، وقد جعله الأدباء مناسبًا لعقلية الصغار ونفسياتهم، وهو يعمل على تطوير شخصياتهم، وازدهار عقولهم وخيالهم، ويحثهم على الإبداع والابتكار، ويساعدهم على صياغة إجابات عن تساؤلاتهم حول الكون والحياة والعلائق الاجتماعية، شريطة أن يكون هذا الأدب متناسبًا مع المراحل العمرية الموجه إليها والفئة التي يستهدفها، ويمكن القول بأن هذا الأدب عبارة عن إبداع مبني على

ابتكار فني تستند مادته اللغوية إلى العبارات السهلة، ويرتكز إلى الخيال البسيط البعيد عن التعقيد والتركيب، ويشتمل على رسالة يريد الكاتب أن يوصلها إلى الأطفال⁽¹⁾.

كانت بداية أدب الأطفال العربي في العصر الحديث مصحوبة بتأثيرات من الحضارة والفكر الغربي ومنجزات هذا النوع من الأدب في كل من إنجلترا وفرنسا، كما يعد رفاعة رافع الطهطاوي رائدًا في أدب الأطفال؛ فبعد رحلته من فرنسا التي رافق فيها البعثة العلمية التي أرسلها محمد علي باشا، أعد رفاعة باشا كتابًا للأطفال ترجم فيه قصصًا بعنوان "حكايات الأطفال"، وعلاوة على ذلك كانت له جهوده الملموسة في إدخال بعض القصص في المناهج المدرسية⁽²⁾.

وقد تميز أدب الطفل الفلسطيني بخصيصة تمثيل الواقع المعاش بكل ما يحمله من آلام وآمال وانكسارات ومآسٍ عبر رؤية واقعية صادمة تبرز كل ما يتعرض له الإنسان الفلسطيني من محاولات دائمة لمحو هويته وشخصيته العربية الإسلامية والفلسطينية؛ ونتيجة لذلك اتسم أدب الطفل الفلسطيني بسمات جمالية وفنية متميزة، علاوة على ما يحتويه من رسائل ضمنية تمثلت في النضال والتحدي والصمود والثورية والرغبة العارمة في التحرر والتخلص من هذا الاحتلال الغاشم؛ فصار أدب الأطفال الفلسطيني معبرًا بكل صدق عن ضمير ووجدان الإنسان الفلسطيني ومراة صادقة تعكس آماله وآلامه ورؤيته الفريدة⁽³⁾.

وإذا ما عدنا إلى الدراسة الحالية، فإنها تتناول هذه الصورة الآخر في عالم الأطفال؛ وهم مستقبل أي أمة وحلمها وطموحها؛ ومن ثم فإن الدراسة تمثل بعدًا إنسانيًا خطيرًا، وشريحة على أهمية بالغة في حياة الأمم، وتعد القصة من أهم الفنون الأدبية التي نالت اهتمام الأطفال؛ فهي أحب الفنون الأدبية للطفل وأقربها إلى نفسه، لوجود كثير من الشخصيات التي تكون في الغالب شبيهة بالطفل ونابعة من

(1) ينظر: زلط، أحمد (1996): أدب الطفولة؛ أصوله ومفاهيمه، ط4، الشركة العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، ص 25.

(2) ينظر: بريغش، محمد حسن (1996): أدب الأطفال أهدافه وسماته، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص 80.

(3) ينظر: عياد، شكري (1971): الأدب في عالم متغير، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص 131.

واقعه، وكثيرًا ما نجد الطفل يحاكي تلك الشخصيات مستمتعًا بذلك أيما استمتاع؛ فهي تشبع ميوله، وتدفع إلى إعمال فكره وخياله.

تعود إرهابات أدب الطفل الصهيوني إلى نهاية القرن الثامن عشر في عام 1790م في برلين عندما ظهر كتاب يضم أدب الطفل باللغة الصهيونية؛ وهو كتاب "إيتاليون" من تأليف "أهارون بن فيليت" به مقتطفات أدبية اختارها للأطفال، وقد ظهر الأدب الصهيوني في فلسطين منذ عام 1905م، كانت بدايته في وسط أوروبا وأمريكا، ثم واصل مسيرة تطوره في شرق أوروبا، ووصل إلى قمة نضجه في فلسطين، ويمكن القول بأن بداية أدب الطفل الصهيوني الحقيقية كانت في مطلع القرن التاسع عشر⁽¹⁾، على أن الازدهار الكبير لأدب الطفل الصهيوني كان في الفترة بين الحربين الكبيرتين في كل من جالتسيا وليتوانيا ووارسو وبولندا، وقد استمد مضمونه وارتسمت ملامحه من خلال اتصاله المباشر مع الطفل المتحدث بالصهيونية آنذاك، كما استعان أيضًا بترجمات ما كتب في أدب الطفل باللغات الأخرى⁽²⁾.

ولقد أدرك أدباء الصهيونية أهمية هذا النوع من الأدب للأطفال ومدى وقعه في نفوسهم؛ فاتخذوا منه وسيلة لتحقيق مطامعهم وتكريس فكرة كره العرب والفلسطينيين وتعبئة الجيل الجديد بالأفكار الصهيونية التي ترى أحقيتها بالأرض، وستعمل الدراسة على تصوير الأنا والآخر من خلال صورة الفلسطيني في قصص الطفل الصهيوني، وصورة هذا الأخير في قصص الطفل الفلسطيني، وتبين مدى نجاح كل فريق في رسم صورة حقيقية في قالب أدبي محكم يتناسب مع الطفل، وقد حاولت جاهدة أن أتحدى بالموضوعية في إبراز ملامح الصورتين؛ تلك الموضوعية التي يقتضيها البحث العلمي المؤسس على التجرد واتباع منهجية عادلة لها أدواتها التي تؤدي إلى نتائج موضوعية تتسم بالقياس.

(1) ينظر: عبد السلام، سعيد (1997): دراسة معجمية لمصطلحات الأدب، عبري-عربي، مع سرد الألفاظ العربية، (دط)، (دن)، ص 536-537.

(2) ينظر: الشامي، رشاد عبد الله (1997): إشكالية اليهودية في إسرائيل، (دط)، عالم المعرفة، ص 60-63.

أهمية الموضوع:

هناك عدة عوامل تضفي على هذه الدراسة أهمية من وجهة نظر الباحثة، يمكن إجمالها على النحو الآتي:

- تكتسب الدراسة أهمية حضارية من كونها ترصد ملامح صورة الأنا والآخر بين أمة مظلومة مكلومة وبين عدو غاصب، إنه صراع أمة مع شذاذ الآفاق من العصابات المارقة؛ فالبون شاسع واسع بين هذين الفريقين اللذين لا يجمع بينهما إلا الحيز الجغرافي الذي هو محل النزاع.
- تكتسب الدراسة أهمية بالغة من أهمية الأطفال بوصفهم محور اهتمام أي أمة، وأملها في مستقبل عظيم واعد.
- إن الدراسة تحاول أن تتلمس مكانم الخطر فيما يجري تقديمه للأطفال في وجبات أدبية يوضع فيها السم في العسل.
- تحاول الدراسة أن تدق ناقوس الخطر لمن يهمل الأمر في العمل الثقافي العربي والمسؤولين بشكل عام عن مكانم الخطر والقنابل الموقوتة التي يجري غرسها في نفوس النشء، تلك القنابل التي ستدوي انفجاراتها في المستقبل.

أسباب اختيار الموضوع:

وقع اختياري على هذا الموضوع للأسباب الآتية:

1. إيمانًا مني وإدراكًا لأهمية مرحلة الطفولة لدى أي أمة في تشكيل الوعي وما ينجم عنه من آثار تصنع المستقبل.
2. إن ما نراه اليوم من حالة عدائية بين الطرفين إنما هو ناجم عن الشحن والتعبئة منذ مرحلة الطفولة من خلال الكتابات الأدبية التي تعكس صورة ممنهجة وموجهة لغرس بعض المفاهيم في نفوس الأطفال.
3. إن الوصول لتسوية عادلة للشعب الفلسطيني لا بد أن يبدأ من خلال ما تقدمه الكتابات الأدبية للأطفال؛ فلا بد من الابتعاد عن المغالطات وتقديم الحقائق في ثوب أدبي وقالب فني مناسب.

مشكلة البحث:

تعد قصص الأطفال من أهم مصادر تشكيل وعيهم وتوجيه سلوكهم وغرس رسائل ضمنية تمثل برمجة لعقولهم، والمطلع على الأعمال الأدبية الموجهة للطفلين الفلسطينيين والصهيوني يلاحظ مدى العداء والاستقطاب وتشويه الحقائق أو المبالغات في أحسن تقدير، وإن هذا يلقي بظلال قاتمة على الواقع المعيش ومستقبل القضية الفلسطينية العادلة التي هي قضية العرب والمسلمين جميعاً، بل إن تلك القصص من شأنها أن تسد جميع المنافذ للوصول إلى تسوية عادلة تجنب الأجيال المعاصرة والقادمة ويلات الحروب ونار الأحقاد التي لا تنطفئ، ومن هذا المنطلق فإن مشكلة الدراسة تتمثل في محاولة رسم صورة الفلسطيني والصهيوني كما رسمتها ريشة الكاتب من الجانبين؛ وهذا يقتضي النهوض بعبء دراسة موازنة تتحرى الدقة والموضوعية والأخذ بأسباب البحث وأدواته العلمية.

أسئلة البحث:

إن مشكلة الدراسة كما سبق بيانها تطرح سؤالاً رئيساً مفاده:

• ما صورة الفلسطيني والصهيوني في قصص الأطفال من الجانبين؟

وإن هذا السؤال يطرح عدة أسئلة فرعية يمكن بيانها على النحو الآتي:

- ما المحاور التي استند الكاتب الفلسطيني إليها في رسم صورة الصهيوني في قصص الطفل الفلسطيني؟
- ما المحاور التي استند الكاتب الصهيوني إليها في رسم صورة الفلسطيني في قصص الطفل الصهيوني؟
- كيف أثرت الظروف التاريخية في رسم الصورتين؟
- علام كان تركيز الكتاب من كل فريق؛ على الأبعاد النفسية والأخلاقية أم الأبعاد الجسمانية والفيزيائية؟
- هل كان للبعد المكاني والزمني حضور في القصص بوصفه أداة فنية لها جمالياتها وسمة أسلوبية يمكن الاعتماد عليها في تحقيق أهداف الكتاب؟

- ما سمات كلتا الصورتين؛ صورة الفلسطيني في قصص الصهيوني، وصورة الصهيوني في قصص الفلسطيني من خلال موازنة عادلة؟

أهداف البحث:

هناك عدة أهداف حاولت الدراسة تحقيقها بعد صياغة وبلورت المشكلة البحثية، وتمثلت تلك الأهداف فيما يأتي:

1. الوقوف على ملامح وسمات صورة الفلسطيني في قصص الصهيوني والعكس.
2. توضيح الأدوات الفنية التي استند إليها الكتاب من الفريقين.
3. بيان مدى التأثير المتوقع في نفوس النشء من الفريقين جراء تلك الأفاصيص.
4. رسم ملامح التصوير البياني والأسلوبي واللغوي من خلال الموازنة بين الصورتين في عدة محاور.

المنهج:

اتبعتُ بغية تحقيق تلك الأهداف المنهج الوصفي التحليلي الذي يرصد الظاهرة، ويحاول تفسيرها وتحليلها وفق المعطيات والمقدمات للوصول إلى نتائج موضوعية، علاوة على الاستعانة بالمنهج المقارن في بعض مناحي الدراسة.

الدراسات السابقة:

هناك مجموعة من الدراسات السابقة التي تقاطعت مع الدراسة الحالية في متغير أو أكثر من متغيراتها، ويمكن بيانها على النحو الآتي:

• دراسة شلحت 1999م⁽¹⁾:

تناول المقال حالة الإدراك بين أوساط الباحثين والمتقنين الإسرائيليين بأن ممارسات الاحتلال الإسرائيلي وغياب أي أفق لتسوية سياسية سيؤديان إلى تصاعد نفوذ العناصر القومية المتطرفة وإلى نقشي الروح

(1) شلحت، أنطون (1999): العنصرية في أدب الأطفال العبري: 1. أدب ونقد، العدد (169).

الفاشية في المجتمع الإسرائيلي المهيأ جيداً لمثل هذا الأمر؛ حتى إن بعض الباحثين خشي تكرار النازية من حيث الأيديولوجية والممارسات خلال الثمانينيات بنسخة محددة يهودية إسرائيلية قلباً وقالباً.

• دراسة هيئة التحرير 2011م⁽¹⁾:

استهدفت الدراسة بيان النموذج الإيجابي في قصص الأطفال العبرية، علاوة على إلقاء الضوء على الخلفية التاريخية لتلك النماذج القصصية؛ فقد دأب مؤلفو تلك القصص على تجسيد أبطال وشخصيات قصصهم بصفات حميدة مثالية، وفي المقابل يظهرون الشخصيات العربية بصورة مشوهة، علاوة على إدخال الكثير من تلك النماذج في المناهج الدراسية للأطفال؛ ما جعل بعض الأدباء والتربويين يبادرون بالتحذير من مخاطر تلك النماذج التي ربما تنعكس سلباً على الأطفال في المستقبل، في حين برزت طائفة أخرى من الكتاب اليهود رأوا أن ما يكتبونه يمثل نماذج إيجابية من وجهة نظر الكاتب اليهودي؛ لأنها احتوت على أوصاف إيجابية سعوا إلى تضمينها في كتاباتهم، لكن عند النظر والتدقيق تبين أنها نماذج إيجابية من وجهة نظر الكتاب اليهود؛ كونها تضمنت بعض الأوصاف الإيجابية لشخصية عربية منتقاة، كما حدد البحث الأفكار السلبية التي تضمنتها تلك النماذج التي لا تختلف كثيراً عن النماذج القديمة من حيث الأفكار والأهداف.

(1) هيئة، التحرير (2011): النموذج الإيجابي في قصص الأطفال العبرية، مجلة الآداب، العدد (95).

• دراسة العاني 2012م⁽¹⁾:

استهدفت الدراسة بيان أن الصورة المشوهة للعربي في تصورات الإسرائيليين بصورة عامة، وأدب الأطفال بصورة خاصة جاءت لتحقيق هدفين رئيسين، هما: شحن النفسية الإسرائيلية بقدر كبير من الاحتقار للإنسان العربي، وقد حقق هذا الشحن هدفه عن طريق (أدب الأطفال) الذي يتضمن: الشعر، و القصة القصيرة، و المسرحية)، كما اعترف بذلك صراحة الروائي الإسرائيلي (عاموس عوز) قائلاً: (العربي في الأدب الإسرائيلي بصورة عامة، و أدب الأطفال بصورة خاصة يعد هزيلاً، و شخصية نمطية دائماً، و هو يعد أيضاً شخصية يكن لها الاحتقار)؛ ومن ثم جرى دفع الطفولة الإسرائيلية التي حققت بمشاعر الحقد على العرب واحتقارهم في اتجاهين: (أ) الاقتناع بحتمية خوض الحرب تلو الحرب ضد العرب، وارتكاب أبشع الجرائم، (ب) المطلوب من الإسرائيلي لا سيما (الأطفال) السير مدفوعين بمشاعر الحقد والاحتقار ضد (العرب).

• دراسة النويرة 2019م⁽²⁾:

استهدف البحث بيان صورة العربي في قصص الأطفال الصهيونية لتوضيح ما فيها من تشويه لصورة العرب والمسلمين عند الأطفال اليهود؛ بغية خدمة أغراضهم الاستعمارية التوسعية التي لا تسعى للسيطرة على أرض فلسطين فقط، بل تسعى للسيطرة على الوطن العربي من النيل للفرات بما في ذلك مكة والمدينة، وقد بينت الباحثة أن الصهاينة في سبيل ذلك قد حرصوا على إظهار العرب في صورة مشوهة منفرة مخيفة، وفي المقابل إظهار اليهود بعكس تلك الصفات، مع سعيهم الحثيث لإثبات أحقية اليهود بأرض فلسطين، ووصم العرب بالمحتلين والمغتصبين لأرض فلسطين من سكانها الأصليين وهم اليهود كما يزعمون.

(1) العاني، لؤي شهاب محمود سعيد (2012): صورة العربي في الأدب الصهيوني أدب الأطفال أنموذجاً: دراسة تحليلية، مجلة مركز الدراسات الفلسطينية، العدد (15).

(2) النويرة، حنان عبده أحمد ناصر (2019): صورة العربي في قصص الأطفال الصهيونية، مجلة أبحاث، العدد

(13)، يناير.

• دراسة زوبع ورشيد 2021م⁽¹⁾:

هدفت الدراسة إلى التعرف على صورة العربي في أدب الأطفال الإسرائيلي للفترة من (1990-2015م)، وقد حددت الدراسة بعدة روايات وقصص قصيرة تم نشرها في الفترة موضوع البحث، وقد استعان الباحثان بالمنهج الوصفي التحليلي كونه المنهج الملائم لتحقيق هدف الدراسة، وقد جرى تصميم أداة البحث من قبل الباحثين اعتمادًا على نصوص مختارة من القصص والروايات موضوع البحث.

التعقب على الدراسات السابقة:

أولاً: أوجه التشابه بين الدراسة الحالية والدراسات السابقة:

اتفقت الدراسة الحالية مع الدراسات السابقة في الاهتمام بأدب الأطفال، غير أن دراسة (شلت) عُنيت بما يكتبه الكتاب اليهود للأطفال اليهود وينجم عنه حالة من العدائية والاستقطاب، في حين تناولت دراسة (هيئة التحرير) بيان المراد بالنموذج الإيجابي في قصص الطفل اليهودي، وقد تبين أنه نموذج عربي إيجابي من وجهة نظر اليهود، في حين تناولت دراسة العاني بيان الصورة المشوهة للعربي في تصورات الإسرائيليين بصورة عامة، وأدب الأطفال بصورة خاصة، أما دراسة النويرة فقد استهدفت بيان صورة العربي في قصص الأطفال الصهيونية لتوضيح ما فيها من تشويه لصورة العرب والمسلمين عند الأطفال اليهود؛ بغية خدمة أغراضهم الاستعمارية، أما دراسة زوبع ورشيد فقد استهدفت التعرف على صورة العربي في أدب الأطفال الإسرائيلي للفترة من (1990-2015م).

(1) زوبع، علاء عبد الدايم، رشيد، علي محمد (2021): انعكاس صورة العربي في أدب الأطفال الإسرائيلي في السنوات 1990-2015، مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية، المجلد (11)، العدد (1).

ثانيًا: أوجه الاختلاف بين الدراسة الحالية والدراسات السابقة:

هناك عدة أوجه للاختلاف بين الدراسة الحالية والدراسات السابقة؛ أهمها:

- إن الدراسة الحالية تعتني ببيان الصورتين معًا؛ صورة الفلسطيني، وصورة الصهيوني.
- الدراسة الحالية تقدم موازنة بين صورتَي الفلسطيني والصهيوني في قصص الأطفال على محاور متعددة، وهو ما خلت منه الدراسات السابقة.

الفصل الأول

صورة الصهيوني في قصص الطفل الفلسطيني

مقدمة:

كان مفهوم الآخر من تجليات التقارب الحضاري بين الأمم المختلفة، وكانت هذه القضية من أكثر المسائل التي لاقت رواجًا كبيرًا عند النقاد في الدراسات الحديثة، إن انعكاس الآخر على مرآة الأنا، لا ينبغي أن يراه المرء بعين واحدة تمثل رؤيته هو وثقافته وما يكتنف ذلك من التحيز والهوى، بل لا بد أن يرى بعينين؛ فيصاحب هذه الرؤية المجردة العدل والإنصاف والموضوعية.

إن مصطلح الآخر يمثل كل ما هو مغاير للأنا على المستويات كافة؛ سواء العقدية أو الثقافية والحضارية والتاريخية؛ ومن ثم رؤية العالم والكون والإنسان، علاوة على اختلاف الرسالة والطموح والأهداف الحياتية.

على أن مصطلح الآخر كما أنه يتسع ليعبر عن الاختلاف بين الأمم والشعوب والثقافات، فإنه يضيق أيضًا ليعبر عن التمايز بين أبناء الأمة الواحدة والمجتمع الواحد والأسرة الواحدة؛ فكل إنسان له خصوصية وبصمة شخصية تميزه عن أبناء أمته وقومه وأسرته، لكنه في النهاية يدور في الفلك العام الذي يحكم هذا الأنا ويميزه عن الآخر العام أيضًا.

لكن صار مصطلح الآخر هو ما تختلف معه، وليس ما تتمايز معه من أبناء أمتك أو أسرتك أو قومك؛ إن قضية الآخر من الموضوعات التي سيطرت على الرواية العربية الحديثة؛ لما مرت به الأمة العربية عبر تاريخها الطويل من صراعات مع الآخر العدو والمحتل والصوص والخائن والهمجي والمتوحش، الذي قدم إلى بلاد العرب مصحوبًا بآلته العسكرية الرهيبة التي روعت الأمنين، وسلبت أوطانهم وحيواتهم المستقرة، وقتلت وسفكت الدماء وشردت؛

فانعكس ذلك على الأنا العربية بالشعور بالمرارة والإحباط والانكسار وجلد الذات؛ فتجرع العربي المرائر والحسرات في مسيرته العصبية الشائكة في محاولاته إثبات ذاته، وأن يتخذ لنفسه مكانة في هذا العالم

المضطرب سريع التغير، هذا العالم الذي لا يعترف إلا بالقوة، ولا تحكمه القيم التي هي من صميم تكوين الإنسان العربي الذي ورث ميراثاً هائلاً من القيم والأخلاق ومعايير التعامل العادل مع الآخر.

إن مفهوم الآخر من الناحية الأدبية يُعدّ ميداناً رحباً وخصباً في مجال الأدب المقارن؛ لأنه يسجل مشاعر أي أمة وآراءها؛ ومن ذلك علائقها بغيرها من الأمم، علاوة على رؤية الأمة لنفسها في عيون الأمم الأخرى؛ فتقف مع نفسها وقفة تأمل ومراجعة؛ للإصلاح لو اكتشفت أن هناك خللاً حقيقياً لا مجرد مزاعم غير موضوعية تدعيها الأمم الأخرى؛ وهذا بلا شك يجعل من هذا الميدان من الأدب المقارن أداة تقييم وتقويم اجتماعية وسيكولوجية من الأهمية بمكان⁽¹⁾.

ولا شك أن هناك علاقة ما من التفاعل أو الاهتمام تنشأ بين شعبين؛ كي يكون لأحدهما حضور أو صور في أدب الآخر؛ وهي علاقات وشؤون شتى متنوعة؛ منها: المصالح الاقتصادية، أو علاقات الجوار، أو علاقات العداء؛ سواء أكان هذا العداء تاريخياً أم حاضراً مكتسباً، أم هو بين هذا وذاك؛ بمعنى: أن العلاقات بين البلدين أو الشعبين يسودها الاضطراب حيناً، والاستقرار والمودة حيناً آخر؛ ومن أمثلة هذا التناول الأدبي بين الأمم والشعوب ما نراه حاضراً في صورة فرنسا في الأدب الإنجليزي، وصورة روسيا وإيطاليا والجزائر في الأدب الفرنسي⁽²⁾.

وفي هذا الفصل تناولت بالدرس والتحليل صورة الآخر الصهيوني في عيون الأنا العربي متمثلة في أدب الطفل الفلسطيني، وبيان الصورة التي رسمها الأدب لهذا الآخر، ومدى موضوعيتها وتطابقها مع الواقع، وكيف يمكن لأدب الطفل الفلسطيني أن يكون وعياً لدى النشء تجاه هذا الآخر الذي يعيش معه على الأرض نفسها، ويتعامل معه بالعملة نفسها.

(1) ينظر: هلال، محمد غنيمي (2008): الأدب المقارن، ط9، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ص 331.

(2) ينظر: حنون، عبد المجيد (2013): صورة الفرنسي والفرنسية في الرواية المغربية، ط2، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، قسنطينة، ص 52 وما بعدها.

بطبيعة الحال لن تكون صورة الصهيوني في أدب الطفل الفلسطيني صورة واحدة، بل سيكون له عدة صور من خلال عدة صفات تمثل زوايا مختلفة للشخصية الإنسانية، وبناء على ذلك سترسم ملامح هذا الفصل بمباحثه المختلفة.

المبحث الأول: الآخر المحتل

الواقع التاريخي الذي تتص عليه مراجع التاريخ كافة العربي منها والأجنبي، والواقع المعيش الذي لا ينكره أحد أن فلسطين دولة محتلة اغتصبها الصهاينة واقتطعوها من أمتها العربية الإسلامية خلفاً للإنجليز الذين اقتطعوها قبلهم من الخلافة العثمانية؛ ومن ثم فإن هذا واقع لا يمكن التشكيك فيه أو الالتفاف حوله تحت أي مزاعم غير منطقية أو تصورات ذاتية أو مطامع جماعات تظن أن لها حقوقاً تاريخية بناء على مزاعم دينية أو أحلام استعمارية؛ مثل: أرض الميعاد، والشعب المختار، والهيك، وغير ذلك من المزاعم التي لا تسوغ البتة الاعتداء والاحتلال.

وكان لأدب الطفل الفلسطيني دور مهم في محاولة رسم هذا الآخر المغاير لغة، وديناً، وثقافة، وقوة الذي يراه الأطفال صباح مساء مدججاً بآلته العسكرية في الطرقات وعلى الحواجز والمعابر الأمنية، وفي كل حذب وصوب، وكل بقعة من فلسطين العربية الإسلامية، كان لا بد من وصف يوضح من هؤلاء وماذا يفعلون على أرض فلسطين؛ ومن هنا جاء الوصف الأول لهؤلاء؛ وهو "الآخر المحتل".

تجلت صورة الصهيوني المحتل عقب اجتياح فلسطين وإعلان دولة الكيان الغاصب عام 1948م؛ فتبلورت صورة هذا العدو المحتل في وجدان الأدب الفلسطيني، وظهرت قصص البطولة للأطفال، التي تلصق باليهودي كل السمات السلبية، فهو عدو ماكر حاقد مجرم، يتكون من عصابات لا تعرف الرحمة، ولا تكاد قصص الأطفال البطولية الفلسطينية تخلو من هذه النعوت، وقد جاء في قصة "ليلي وفرن الصمود" للكاتبة روضة الهدهد تجسيد لتلك الصورة الوحشية عن المحتل الغاصب، فتحكي:

«عادت إلى ذاكرة عبد الله أحداث ذلك النهار منذ ثلاثة أعوام عندما كانت ابنتاه "عائشة وفدوى" تحملان إبريق الشاي وتنتظران عودته من الجامع...، كانت فدوى تجلس على أكياس الطحين، بينما تقف عائشة بالباب تنتظر مجيئه ليضع في يدها مصروفها اليومي.. يومها لم يضع لها المصروف في يدها، ولم يضع العجين على ألواح الخشب كالمعتاد، يومها لم يعرف ماذا يفعل وكيف يتصرف.. لقد رأى

سيارة أحد المستوطنين الصهاينة في المستعمرة القريبة من نابلس، وهي تعود أدرجها بعد إطلاق الرصاص، فوجئ بابنته عائشة وقد ارتمت على الأرض أمام الفرن، وبابنته فدوى وقد ارتمت على أكياس الطحين، لم يكن هناك سبب واحد ليطلق هذا المستوطن الإسرائيلي النار على بناته وفرنه، حمل عبد الله ابنتيه على ألواح الخشب وانطلق مع شباب الحي إلى مستشفى "الحاجة عندليب العمد"، بينما هرب القاتل إلى المستعمرة القريبة "ألون موريه"، منذ ذلك النهار تعاضم الأمر في نفس عبد الله.. كيف يأتي هؤلاء اليهود الصهاينة ليحتلوا أرض فلسطين وليقتلوا أبناءها.. كيف يأتي هذا المستوطن الإسرائيلي ليسكن قرب نابلس، ثم يقتل ابنته البريئة عائشة.. قد يجيء الغريب إلى الأرض، وقد يطلب المساعدة من أهلها، وقد يعمل فيها.. ولكن أن يأتي بنواياه الخبيثة ليحتل مساكنها ويقطع أشجارها ويقتل أبناءها؛ فهذا مالا يقبله أي إنسان...»⁽¹⁾.

تتجلى صورة الآخر المحتل هنا في النص السابق؛ فهو نص كاشف لطبيعة هذا الآخر؛ إنه محتل؛ أي: شغل المكان بعالمه وشخصيته وثقافته ونمط حياته؛ فلم يعد لأصحاب الأرض حيز يتحركون فيه؛ سواء أكان هذا الحيز مادياً أم معنوياً؛ فلم يعد الناس قادرين على ممارسة روتين حياتهم اليومي بشكل طبيعي تحت ظلال الإرهاب القاتمة التي تطل من بين أثنائها رؤوس الثعابين نافخة بسمومها في حين يدوي فحيحها في الأرجاء تقشعر منه الأبدان.

جاء المحتل بآلته العسكرية وعصاباته وبعد سحق الإرادة العربية، واستقرار الأمر له، رأى أن يعمل على تطبيق نمط الاحتلال الإحلالي الذي يقضي على السكان الأصليين، ويحل محلهم الغزاة من خلال تكوين مجتمعات جديدة على أنقاض المجتمعات القديمة التي تمت إبادة.

وقد عبرت الكاتبة الهدهد عن ذلك ببراعة في نسيج درامي يخاطب الطفل الفلسطيني بما يفهمه، ويجسد له الحقائق المريرة في ثوب فني وبناء درامي مناسب؛ فقد نعتت المحتل بالمستوطن؛ إذن هناك إحلال لعرق غريب في الأرض الفلسطينية، ثم نرى هذا المستوطن يمارس القتل والإرهاب والاستئصال في محاولة لاستكمال ما بدأه جيشه المنظم من قبل؛ فالمطلوب ليس فقط كسر إرادة الشعب الفلسطيني

(1) الهدهد، روضة (1990): ليلي وفرن الصمود، من قصص الانتفاضة في نابلس، (دط)، دار كندة، عمان، ص 5-4.

والقضاء على فكرة الجهاد، وفرض التعايش مع هذا الواقع، لا بل لا بد من استئصال هذا العرق وهؤلاء البشر العرب الذين يعيشون آمنين في بلادهم؛ لأن بعض شذاذ الآفاق رأوا أن يقيموا لهم دولة على أرضهم، وساعدهم على ذلك ظهير استعماري.

نسجت الكاتبة قصتها ببراعة فنية كبيرة؛ فعبد الله بطل القصة رجل صالح من رواد المساجد، وله ابنتان، ولا شك أن العنصر النسائي يشير إلى الضعف والرقّة وعالم مخملي بعيد عن العمل المسلح أو عالم الرجال الخشن، كما أن مهنة الأب بوصفه خبازًا تشير إلى أنه مصدر إطعام للناس يقدم لهم ما يأكلونه ويسد رمقهم؛ فيكون جزاؤه أن تُقتل ابنتاه بوحشية دون رحمة، ويتركهما القاتل صريعتين على أكياس الدقيق التي استحال لونها من الأبيض إلى الأحمر في مشهد درامي صادم.

ثم يأتي دور المفارقة التي ترسم خطوط المأساة وتعمقها في النفوس؛ إن ذلك القاتل غريب ليس من أهل البلاد، ومن المعلوم أن كل غريب ضعيف هين يخطب ود الرائج والغادي، ويعامله الجميع بلطف معاملة الضيوف، أما أن يقتل هذا الغريب أهل الدار في جرأة عجيبة واستهانة مريبة، فهذا الذي لا يمكن حدوثه إلا في أرض فلسطين الجريحة المستباحة من عصابات آثمة مجرمة مدعومة بقوة الاستكبار العالمي!

ونستطيع أن نجد حضور الآخر المحتل في قصص الطفل الفلسطيني من خلال قصة "الحرب"، للكاتب عبد الرحمن عباد؛ إذ يلح الكاتب في القصة على فكرة السيطرة والأخذ التي هي صفة ملازمة لكل محتل يستعمر الأرض بقوة السلاح، يقول الكاتب:

«أفاق زيدون مبكرا على غير عادته، وأخذ يبكي مناديا أمه.. حضرت أمه من المطبخ وسألته: لماذا تبكي...؟»

سكت زيدون عن البكاء، ثم نظر حوله، فلم يشاهد أباه فقال: أين أبي؟

_ لقد ذهب إلى الحرب.

_ ولماذا لم يخبرني.. ولماذا لم يأخذني معه..

_ الحرب للرجال وأنت ما تزال صغيرا.

_ ولكنه قال لي أمس أنه سوف يأخذني لنصطاد العصافير.

_ وماذا تكون إذا...؟

_ إنها قتال بالرصاص والدبابات والطائرات.

_ ولماذا يا أمي...؟

_ لقد هجم الأعداء على بلادنا ولا بد من رد عدوانهم.

_ لكن لماذا يهجمون على بلادنا أليس لهم بلاد؟

_ بلا يا زيدون ولكنهم يريدون أرضنا.

_ ولماذا يا أمي أليست عندهم أرض...؟

_ عندهم.

_ وماذا يريدون من أرضنا؟

_ إنهم يريدون أن يسكنوا عليها ويزرعوها ويأكلوا خيراتها.

_ إنهم يريدون أن يطردونا منها أيضا.

_ ولماذا يا أمي وعندهم منازل وبيوت؟

_ إنهم طماعون يا ولدي.

_ وهل ذهب أبي ليضربهم؟

_ نعم يا ولدي.. ادع الله أن يعود سالما.

رفع زيدون يديه إلى السماء كما فعلت أمه ثم قال: يا رب ارجع لنا أبي سالما.

والآن من سيعطيني قرشا يا أمي...؟

سوف أعطيك أنا يا ولدي، حتى يعود أبوك.

وإذا لم يعد؟

لا سمح الله ولا قدر نصبح أيتاما.

ولكن هل أخطأت يا أمي.

لا يا ولدي ولكن إذا لم يعد أبوك فسوف لن تراه.. لأنه..

لأنه ماذا يا أمي.

لأنه إذا لم يعد يكون قد مات.

ومن يقتله؟

العدو.

ولماذا يقتله؟

حتى يأخذ منزلنا وأرضنا...

إذا يجب أن أذهب للحرب.

سكت زيدون قليلا ثم قال: هل يعرف أبي العدو وهل يراه بالعين.

لا يا ولدي.. إنه لا يراه.. لأنه يختبئ في الخنادق.

أمي....

أريد أن يعود أبي.

حسنا يا زيدون.. لا تقلق نفسك وخذ هذه الشطيرة واذهب فجرس المدرسة يوشك أن يقرع.

حمل زيدون كتبه وسار.. غير أن فكرة الحرب والقتل والموت ظلت تدور في رأسه طوال اليوم.. كان

يسأل.. لماذا يأتي العدو إلى بلادنا ليأخذها...؟

ولماذا يقاتلنا وعنده أرض مثل أرضنا...؟

وفي اليوم الثاني أقفلت المدرسة بسبب الحرب فنزل لأول مرة في حياته إلى الملجأ وعندما بدأت القنابل تنفجر في الشوارع التصق بأمه وراح يقول.. أمي أنا لا أحب الحرب»⁽¹⁾.

إن القصة السابقة وما تحمله من مفارقة بين الطفولة البريئة التي يمثلها الطفل "زيدون"، وبين الاحتلال بكل ما يحمله من معاني السلب والقوة والاستعمار، علاوة على آتة العسكرية الرهيبة التي تصاحبه؛ لقهر الشعوب وإذلالها والاستيلاء على ثرواتها ومقدراتها، إن هذه المفارقة تجعلنا ندرك بوضوح وحشية هذا الاحتلال ودمويته، لا سيما من خلال أسئلة الطفل البريئة التي وظفها الكاتب توظيفاً فنياً يتناسب مع كون العمل موجهاً للأطفال من ناحية، ومن ناحية أخرى ليبين مدى الفظاعة التي يرتكبها الاحتلال من منطلق الطمع والجشع والرغبة في إقامة كيان دخیل على جسد الأمة العربية والإسلامية دون أي وجه حق أو أي مسوغ.

ومن خلال تقنية الحوار يطرح الكاتب بعض الأسئلة على لسان الطفل "زيدون" على الرغم من براءتها وسذاجتها، لكنها كاشفة وفاضة لموقف الاحتلال، يقول زيدون:

_ لكن لماذا يهجمون على بلادنا أليس لهم بلاد؟

_ ولماذا يا أمي وعندهم منازل وبيوت؟

_ وماذا يريدون من أرضنا؟

إن هذه الأسئلة الطبيعية البديهية والساذجة أيضاً هي أول ما يتبادر إلى الذهن عند التصدي لقضية فلسطين؛ فالمفترض أن هؤلاء الغزاة لهم أرضهم وبلادهم وبيوتهم، ولا يحتاجون إلى سلب الأراضي والبيوت من أحد! لكن هذه هي المعضلة الأساسية التي سيدركها "زيدون" وغيره من براعم فلسطين عندما يشبون ويتم تمامهم، سيدركون أن هؤلاء الغزاة تركوا كل شيء ينتمون إليه من الأرض والبلاد والجنسيات المختلفة، وعزموا على إقامة وطن لهم على أشلاء وعظام الفلسطينيين، وعلى أنقاض منازلهم ومساجدهم ومدارسهم وكل عزيز عليهم، سيدرك "زيدون" أن عليه هو وجيله أن يحملوا السلاح،

(1) عباد، عبد الرحمن (1988): قصة الحرب، ضمن مجموعة "ذاكرة البرتقال"، (دط)، اتحاد الأدباء والكتاب الفلسطينيين في الأرض المحتلة، القدس، ص 20.

وأن ينغمسوا في قتال طويل الأمد، ومعركة يخوضونها نيابة عن الإنسانية جمعاء؛ دفاعًا عن الأرض والعرض والدين وكل ما هو جدير بالحماية والدفاع...

لقد تبددت أحلام "زيدون" وأمنيته البسيطة؛ فبدلاً من المرح في الحقول واصطياد العصافير يجد نفسه قابلاً في الظلام يحبس أنفاسه في أحد المخابئ؛ خوفاً من غارات العصابات الصهيونية، وبدلاً من أن يصطاد العصافير مع أبيه، ذهب الأب ليصطاد جند الغزاة الذين أتوا لاغتصاب الأرض من كل حدب وصوب.

ويختم الكاتب القصة بعبارة تلخص مبدأ السلام الذي تعيش به الشعوب الحرة المتحضرة التي تعرف الحق والعدل ولا تعتدي، يقول "زيدون" في عبارة أيقونية: "أمي أنا لا أحب الحرب"!

ولما كان الاحتلال يصاحبه المقاومة والكر والفر عند الشعوب الحرة التي ترفض الاستسلام والذل، وترى أن الموت بكرامة خير لها من الخضوع والعيش تحت أقدام المحتل، فكان من الطبيعي أن نرى قصصاً تتناول هذا الجانب المهم في أدب الطفل الفلسطيني؛ وها هي قصة "الطريق إلى القدس" تبين هذا الجانب وتتناوله بوضوح؛ يقول الكاتب مفيد نحلة:

«تنهد الفتى وقال:

" حتى الطرقات باتت تضيق بنا أيها الشيخ "

قال الشيخ:

لا يا بني....

"بلادنا لا تضيق بأحد.. إنها ترفض الغرباء فقط.. ترفض الاحتلال كما رفضته من قبل..

بلادنا يا بني، تتنفس كل نهار حين ترى المناضلين يعودون إليها، لا بد أن نزرع في كل واد شجرة، حتى إذا كبرت الأشجار تحرك الآخرون من بعدنا في ظلالها"

تنبه صابر، كانت الأضواء تقترب.. عساكر اليهود كانت تلاحق خطواتهم..

هيا نتحرك بعيداً عن هذا المكان.

حمل الشيخ سلاحه، وقف، مد يده إلى الفتى، وسارا في طريق جبلي بعيدين عن القرية.

سمعا بعض الطلقات تتردد في الأودية.. لكنهما ظلا يسيران في حذر حتى وصلا كهفا مهجورا فأقاما فيه يرقبان الطريق.

وأشرقت الشمس.

أفاقت القرى على الأصوات المجنونة..

دخلتها العساكر حاقدة.. جمعت النساء والأطفال، حاصرتهم في الساحات العامة... بحثا عن الرجال الذين زرعوا الرعب في قلوب المستوطنين.

لكنهم لم يعثروا على أحد

وقف الشيخ يرقب القرى القريبة من الجبال بمنظاره... رأى تحركات الجنود، غادرت القرى القريبة، توجهت إلى الجبال..

كانت كلاب الاثر تأخذ اتجاهات عديدة.. حتى أقبلت نحو الطريق الجبلي..

وأيقن الشيخ أن عساكر اليهود تبحث جادة عن مجموعته التي اختفت إلى حين..

قال الفتى:

أرأيت أيها الشيخ.. إنهم في الطريق إلى الكهف.. لا بد أن نخرج من هذا المكان.. كان علينا أن نسلك طريقا آخر.....

رأى صابر عساكر الاحتلال تقف على قمة الجبل، أدرك أن هؤلاء الجنود لا زالوا يبحثون عنه وعن رفاقه.

أخفى جسده بين الحشائش والأعشاب القاسية.. تأكد صابر أن الشيخ أخذ موقعا له بين الصخور.

عاد صابر إلى كروم العنب..

لم يعد يرى شيئا...

ظل دوي القصف يرتفع ويرتفع.. تمكنت الطائرة من احراق التراب والأعشاب..

ماذا يجري قال صابر وهو يبحث عن الشيخ:

" كل الأشباح التي قرأ عنها في الأساطير القديمة تحولت من حوله ومن بين أوراق العنب

الممزقة رأى صابر الشيخ يقف رافعا بيده، يطلق النار على جنود الاحتلال من مكان لآخر..

حتى إذا أدركته الطائرة الآن أصابت جسده ومزقته... تدرج الشهيد كان وجهه مرفوعا تحت

الشمس.. تجمع الجنود، انحدروا صوب الشهيد، وقف الفتى..

كان قلبه يخفق حزنا ومرارة.. ومن خلف التلال..

كانت الأعشاب القاسية تغطي قامته.. أما الفراشات الملونة فقد تحركت هي الأخرى أمامه بشرى بعودة

الحياة من جديد إلى المدن المحتلة»⁽¹⁾.

من خلال الاستناد إلى تقنية الحوار التي أحسن الكاتب استعمالها نراه يبرز بعض الحقائق المهمة؛

منها: أن فلسطين لا تضيق بأحد، بل هي ترحب بكل ضيف يزورها ويحترمها ويحترم ترابها وأهلها،

ويعرف حدود الضيف؛ يستفاد ذلك من قول الشيخ: "بلادنا لا تضيق بأحد.. إنها ترفض الغرباء فقط..

ترفض الاحتلال كما رفضته من قبل.. بلادنا يا بني، تتنفس كل نهار حين ترى المناضلين يعودون

إليها، لا بد أن نزرع في كل واد شجرة، حتى إذا كبرت الأشجار تحرك الآخرون من بعدنا في ظلالها".

وبطبيعة الحال فإن المقاومة ستتدلع نيرانها تجاه هذا المحتل الغاشم الغاصب، وستدور رحى المعركة

كرًا وفرًا على أمد بعيد؛ فيصور لنا الكاتب شيخًا يحمل سلاحه؛ ما ينم عن انخراط كل الطوائف في

هذه الحرب المباركة؛ تلك المعركة التي وقف فيها الشيخ كشبح أسطوري يمطر جنود الاحتلال بوابل

من نيران بندقيته كأنه كتيبة كاملة، ولم يستطيعوا أن يقضوا عليه إلا بمساعدة الطيران العسكري الذي

أرداه صريعًا؛ كي يلتحق بركب الشهداء من الخالدين.

(1) نحلة، مفيد (1988): الطريق إلى القدس، (دط)، دار الكرمل للنشر، عمان.

وفي إشارة رمزية إلى الأمل وعودة الحياة والاستقلال إلى أرض فلسطين بعد انسحاب الغزاة يقول الكاتب: «كانت الأعشاب القاسية تغطي قامته.. أما الفراشات الملونة فقد تحركت هي الأخرى أمامه بشرى بعودة الحياة من جديد إلى المدن المحتلة».

.....

وفي قصة "الزمن الحزين في دير ياسين" تتناول الكاتبة روضة الهدهد التحول الذي طرأ على الصهاينة من رعايا للدولة العثمانية يعيشون في أراضي الخلافة، يمثلون أقلية دينية تنعم بما يكفله لهم الإسلام والمسلمون من عيش كريم وحرية في العبادة والشعائر تحت راية الإسلام التي تحتوي الجميع، ثم تحولهم إلى عصابات شرسة مجرمة تبتغي استئصال أهل البلاد أصحاب الأرض والعيش مكانهم بعد جلب قطعان اليهود من كل حذب وصوب؛ تقول الكاتبة:

«وترد عليها حياة البليبيسي:

- يا أم محمد، إن اليهود هذه الأيام، غير الذين كانوا يعيشون معكم بهدوء، لقد أصبحوا أناسًا معتدين، يطمعون في الاستيلاء على أرض فلسطين العربية وإقامة دولة لهم، بل يريدون طرد أصحاب الأرض الأصليين العرب، ليستولوا عليها، ويسكنوا بدلًا منهم مهاجرين صهاينة يحضرونهم من أنحاء متفرقة من العالم.

وتسأل حلوة بدهشة:

- ومن أين لهم بالسلاح؟

وتجيب حياة:

- يشترونه من أوروبا ويهربونه للبلاد، لقد سمعت يا حلوة أنهم يشترون السلاح من أي مصدر في أوروبا ثم يشحنوه على السفن إلى مرفئ فلسطين، حيث ينزلون الشحنات ويخبئونها في مستعمراتهم..
- والإنجليز.. ألا يعرفون ذلك؟ ألا يمنعونهم؟ أليسوا هم الذين يمنعون العرب من شراء أي قطعة من السلاح؟

- نعم، إنهم يمنعون العرب من حمل السلاح، أو حتى حيازته، ولكنهم يغمضون أعينهم عن تسليح اليهود، يرون سفنهم تحمل الآلاف من البنادق ولا يعترضون. لقد كانت قبل مدة سفينة "التلينا" الإسرائيلية، تنزل ألفي بندقية، وأكثر من مائتين وخمسين⁽¹⁾.

يتناول هذا المشهد السابق من القصة حوارًا بين سيدتين فلسطينيتين استخدمته الكاتبة واستندت إليه بوصفه أداة فنية في السرد يمكن أن تكشف وتفسر الكثير من الأحداث، علاوة على مقدرتها على استنباط سمات الشخصيات وميولها واتجاهاتها؛ ما يجعلني أقول بأن الحوار أداة فنية خطيرة جدا في أي عمل قصصي لو أحسن الأديب استخدامها وتوظيفها على الوجه الأمثل.

وقد كشف الحوار بين السيدتين عدة حقائق، وكشف اللثام عن حجم المؤامرة، بل حجم المأساة التي تعرض لها الشعب العربي الفلسطيني؛ ومن هذه الحقائق التاريخية التي كشف عنها الحوار:

-اليهود في فلسطين جزء من الشعب وأقلية تعيش على أرض فلسطين وتتمتع بما ضمنه لهم الإسلام في ظل حكم الخلافة العثمانية التي احتضنت الجميع، ووفرت لهم الأمن والأمان وحرية العبادة.

-انقلب حال هذه الأقلية؛ فناصبت الأكثرية المسلمة العداء، ومعها المسيحون العداء، وبدأت تشن على الجميع هجمات إرهابية تستهدف الجميع دون تمييز، ولا يسلم منها لا صغير ولا كبير ولا إنسان ولا جماد ولا نبات ولا حيوان.

- تمتع اليهود بحماية ودعم القوى العظمى آنذاك المتمثلة في بريطانيا وأمريكا؛ فمارست الإرهاب في حق شعب أعزل لا يناصبها العداء، وكل هذا يحدث تحت سمع وبصر العالم الذي لا يبدي أي اهتمام بآلام العرب.

.....

(1) الهدهد، روضة: الزمن الحزين في دير ياسين، ص 10.

وفي قصة "الكنيسة والمقبرة" تصور الكاتبة روضة الهدهد جوانب أخرى للمحتل؛ وذلك في بناء فني درامي عالي المستوى، وفي الوقت نفسه يتناسب مع الأطفال؛ تقول الكاتبة مستندة إلى تقنيّتي الحوار والاسترجاع:

«لم يكن فوزي يعلم أن لهم بيوتًا غير هذه الدار، ولكنه فهم اليوم أن بيوتهم هي في قرية "إقرت"، وأنهم وقبل سنوات أخرجوا منها بقوة السلاح.

- يا ابني، جاء الجنود اليهود وأمرونا أن نترك بيوتنا لمدة أسبوعين فقط.. قالوا لنا ستعودون لبيوتكم حال انتهاء الحرب.. خذوا أغراضكم المهمة فقط واتركوا بيوتكم.. وكنت أنت يا فوزي طفلًا صغيرًا فحملتك ولم أحمل أي شيء آخر من البيت، وحمل أبوك أخاك الأكبر، وأمرونا الجنود اليهود أن نركب السيارات العسكرية، وساروا بنا حتى وصلنا إلى هذه البلدة الصغيرة «الرامة»، وجدنا بعضًا من بيوتها خالية من السكان بسبب الحرب، فجلسنا في هذه الدار كما ترى: خمس عائلات؛ كل عائلة أخذت غرفة فقط.. يعني سقفًا تنام تحته حتى نعود إلى قريتنا «إقرت».

حملت الأم القهوة للرجال، وعادت إلى تجمع السيدات والأطفال قائلة:

- ولكن الأسبوعين أصبحا سنتين، والسنتين صارتا أربعًا، ونحن ننتظر السماح لنا بالعودة إلى بيوتنا.. والله كل يوم أحلم أنني ذهبت إلى بيتنا، وأحضرت غرضًا من أغراضي أو فستانًا من فساتيني أو بنطالًا من بناطيل أولادي.. أما اليوم..

ارتفع صوت النساء بالبكاء.. فارتفع صوت الرجال ينهروهن حتى يتوقفن عن الصراخ؛

كانت كل أم تبكي على بيتها وفراشها وذكرياتها في تلك الدار.. وقد كان لهم في كل يوم أملًا جديدًا بأن يعودوا إلى قريتهم الصغيرة تلك، وإلى شجر الزيتون والعنب الذي يملأ السهل والجبل.. ولكن اليوم وبعد أن علموا بالهدم، انقطع أي أمل لهم بالعودة، فكيف تكون الحياة دون أمل؟!⁽¹⁾.

(1) الهدهد، روضة (2016): الكنيسة والمقبرة، (دط)، دار كندة للنشر والتوزيع، عمان، ص 8.

تتناول الكاتبة مسألة مهمة جدًا من خلال هذا البناء الدرامي؛ وهي مسألة الأجيال الجديدة التي لم تعيش المأساة ولم تتكوّن بنار الظلم، ولم تعرف القهر؛ وذلك من خلال "قوزي" ذلك الطفل الصغير الذي لم يكن حاضرًا وقت إجلاء عائلته عن قريتها وبيتها وتركها وراءها كل ممتلكاتها بعد أن أجبرها المحتل الغاصب على ذلك وأعطاهَا وعدًا زائفًا بالعودة بعد أسبوع؛ فإذا بالأسبوع يمتد شهورًا وسنوات؛ حتى نشأ جيل جديد لا دراية له بما حدث.

ومن هنا تتجلى أهمية الذكريات وتأجيح مشاعر الثأر واستحضار المأساة لدى الجيل الجديد الذي لم يدرك التضحيات والآلام؛ ومن خلال تقنية "الاسترجاع" تسرد الأم على مسامع ابنها وصديقاتها ما وقع في قريتهم، وتتساقط الكلمات على مسامع الجميع كالجمر يكوّي منهم القلب والعيون والأرواح؛ فينخرطن في بكاء حار وعويل؛ ما يضطر الرجال إلى نهرهن عن متابعة الصراخ.

نلمح من خلال النص السابق انعكاسًا لظروف اجتماعية واقتصادية ومعيشية قاسية؛ ما يجعلنا أن نتخيل أي ظروف تلك التي وقعت تلك العوائل الفلسطينية المهجرة تحت وطأتها وقسوتها؛ تقول الأم: "فجلسنا في هذه الدار كما ترى: خمس عائلات؛ كل عائلة أخذت غرفة فقط.. يعني سقفاً تنام تحته حتى نعود إلى قريتنا!"

إن هؤلاء الناس في مثل هذه الظروف فقدوا خصوصيتهم، وفقدوا معها الكثير والكثير من الإحساس بالحياة، بل ممارسة الحياة نفسها بما فيها من تفاعل ونظام أسري وزوجي طبيعي، بل لنا أن نتخيل كيف كانت تنام تلك العوائل، وكيف كانوا يقضون حوائجهم أو يغتسلوا إنه ببساطة ضياع الخصوصية الذي يضيع معه كثير من المعاني، بل تتهدم معه العوالم الخاصة، وينشأ حول كل شخص حاجز نفسي يغلفه إلى الأبد!

تتحدث الفقرة عن شجر العنب والزيتون الذي يملأ السهل والجبل؛ ما يجعل المتلقي يشعر بأنها جنة حقيقية على الأرض، إن هذا التصوير يشعّرنّا بالمفارقة وعمق المأساة؛ لأن المفقود عظيم من أجله تُسفك العبرات، ثم تختتم الكاتبة هذا المشهد الحزين بسؤال مفعم بالأسى حد البكاء، سؤال يفيض مرارة حد الاعتصار "كيف تكون الحياة دون أمل؟!"، نعم كيف تكون هذه الحياة؟! يا لها من حياة دون

الموت لا يدري المرء لماذا يعيش وأي غاية يرتجي؛ إنه الشعور بالتشظي والتمزق الذي شعر به جيل كامل من أبناء فلسطين الذين حطمهم الغدر والظلم وسرقة الأحلام وقتل كل المعاني الإنسانية...

المبحث الثاني: الآخر اللص

"إذا كان من يسرق متاعاً من الدار يكون من المجرمين الفجار، فكيف بمن يسرق الدار كلها؟ وكيف بالذي يُعينه على جريمته، ويكون معه على صاحب البيت؟ ألا يكون مجرمًا مثله؟⁽¹⁾ فصورة اللصوصية التي رسمها الكُتّاب للآخر الغاصب، استقوها من الشبه القائم بين اللص والمحتل، فكلاهما يسرق حق غيره، كما أن وصفه بالمعتدي المحتل تعكس شناعة الفعل الذي قام به، وكرههم وازدراءهم له، فلم تقتصر نكبة الشعب الفلسطيني على المجازر ومشاهد التهجير والتشريد والإبادة العرقية، وتدمير القرى والمدن من قبل العصابات الصهيونية، بل رافق ذلك عمليات سطو ونهب أملاك وممتلكات من منازل الفلسطينيين قام بها اليهود خلال النكبة، وهي المشاهد والأعمال التي تواصلت لأشهر بعد النكبة، بغرض تفرغ فلسطين من العرب وضمان عدم عودتهم إلى منازلهم وإلى البلدات المدمرة.

هذه المشاهد المقرونة بالوثائق والاعترافات والصور، أوردها المؤرخ الإسرائيلي "آدم راز"، في كتابه "نهب ممتلكات العرب في حرب الاستقلال"⁽²⁾، ويكشف المؤرخ في هذا الكتاب عن ظاهرة كانت ذات أهمية حاسمة في تشكيل المجتمع والدولة في إسرائيل، لكنها منسية من الذاكرة التاريخية، وهي ظاهرة نهب الممتلكات العربية خلال النكبة. ولغرض إنجاز الكتاب، قام المؤرخ راز بمسح حوالي 30 أرشيفا إسرائيليًا في جميع أنحاء البلاد تعنى بالنكبة والصراع الإسرائيلي الفلسطيني، وكذلك راجع الصحافة التاريخية واستعان أيضا بجميع المؤلفات البحثية المتوفرة.

ووفقا للوثائق والإفادات التي وثقها المؤرخ راز، فقد شارك العديد من الجنود والمدنيون اليهود، وعلى مستوى الأفراد والجماعات، في عمليات السطو الجماعي على الكثير من العقارات والأملاك والممتلكات التي تركها أصحابها الفلسطينيون بسبب التهجير والتشريد.

(1) الطنطاوي، علي، مقال بعنوان: ريع اللصوص، الدرر السنية، 1968م،

<https://dorar.net/article/810/%D8%B1%D9%8A%D8%B9-%D8%A7%D9%84%D9%84%D8%B5%D9%88%D8%B5>

(2) كتاب صادر عن دار نشر "كرمل" بالتعاون مع معهد أبحاث "عكفوت"، يعنى بالكشف عن كواليس النكبة ووثائق ومواد أرشيفية تتعلق بالصراع الإسرائيلي الفلسطيني.

بل قد وصل بهم الحد إلى الاستيلاء على أملاك الفلسطينيين وإجبارهم على العمل فيما كانوا يملكون بوصفهم عمالاً مأجورين، مقابل أجور زهيدة، بعد أن كانوا يملكونها، وتحكي قصة "كفر قاسم والمحاكمة العادلة" للكاتبة روضة الهدهد، عن هذا فتقول:

«في قرى "المثلث العربي" وفي السهول والجبال المحيطة تنتشر أشجار الزيتون خضراء.. يانعة.. عميقة الجذور متفرعة الأغصان، زرعها ويزرعها أهل القرى العرب منذ مئات السنين وإلى مئات السنين القادمة، وفي شهر تشرين الأول الشهر العاشر من كل عام تتجدد قوى الشباب والشابات والرجال والنساء والأطفال من أهل القرى لقطف الزيتون، في ذلك النهار، وقبل ثلاثين عامًا حاول "عبد الكريم صرصور" أن يقنع عمته "فاطمة صرصور" أن يذهب معها لقطف الزيتون في أحد الحقول المجاورة.. حاول كثيرًا وبكى، ولكن جدته أصرت أن يبقى في بيته لأنه بعد صغير ووعده أن تشتري له الحلويات إذا رعى أبناء عمته الصغار، الذين تركتهم في رعاية الجيران لحين عودتها.. وقد انتظر "عبد الكريم" عمته طول النهار.. واهتم بأولادها الصغار لينال ما وعدته جدته من حلوى.. ولكن أحدًا لم يعد، لم تعد جدته ولا عمته ولا بنات الجيران اللواتي ذهبن لقطف الزيتون.

كانت عمته "فاطمة صرصور" حاملًا في شهرها الثامن، ولديها ثلاثة أطفال، أما أمها فقد جاوز عمرها الخمسين عامًا.. وقد ذهبتا معًا مع ثلاث عشرة فتاة وسيدة؛ أصغرن في الثالثة عشرة من عمرها.. وقطفت كل واحدة منهن ما لا يقل عن عشر شجرات وقبضن الثمن، ثلاثة جنيهاً، وعدن متعبات مرهقات إلى بيوتهن.. قالت الجدة وهي تنتظر إلى الأفق البعيد:

من قال بعد هذا العمر إنني سأصبح عاملة في أرضنا ذاتها التي كنا نملكها؟ أنا وأنت يا بنيتي نصبح مجرد عاملات عند اليهود؟ الشجر شجرنا، زرعه أبي وأعمامي، أصبح ملك الحكومة الإسرائيلية، وأصبحنا نحن عمالاً لقطفه لهم، آه يا بناتي.. من سنة ما دخل اليهود البلاد، ونحن من وضع سيئ إلى وضع أسوأ، فهل أعيش إلى اليوم الذي تعود فيه أرضنا لنا يا ترى؟!»⁽¹⁾.

(1) الهدهد، روضة (1984): كفر قاسم والمحاكمة العادلة، (دط)، دار كندة للنشر والتوزيع، عمان، ص 12-13.

نحن أمام مجتمع يضطر فيه النساء للخروج للعمل في الزراعة، ولا شك أنهن وصلن من الحاجة إلى مرحلة سيئة جداً، لكن سرعان ما تصدمنا الكاتبة عندما نعلم ان هذه المزارع التي يعمل بها هؤلاء النسوة هي مزارعهن في الأساس، اغتصبتها منهن الحكومة الإسرائيلية المجرمة ضمن سرقتها وطنًا كاملاً، وندرك أن هؤلاء الفلسطينيين لسن فقيرات بل تم إفقارهن كغيرهن من الشعب الفلسطيني الذي سرق اليهود أرضه وممتلكاته وأمواله.

إن عمل هؤلاء النسوة أجيرات في أرضهن المنهوبة يمثل صدمة وجرحاً كبيراً لهن، بل للقارئ الذي ربما لا يتمالك نفسه ولا يستطيع حبس دموعه، بل يستشعر غصة في حلقه؛ إذ يشعر القارئ بالتوحد مع هذه الشخصيات المظلومة المنهوبة التي تحيا في جو كابوسي مظلم.

يبين المقطع السابق من القصة حقيقة دولة الاحتلال، إننا أمام لصوصية كيان يزعم أنه دولة، فإذا بنا نرى أنفسنا نتعامل مع مجموعة من اللصوص الذين يسرقون الأرض والشجر والنقود، بل يسرقون الأعمار والأحلام والآمال، إننا أمام عملية سرقة ممنهجة كبيرة لا تقتصر على السرقة التقليدية في الممتلكات، بل تسرق الأمل نفسه والأحلام.

تذكر الكاتبة في أثناء سردها الأحداث في المشهد السابق عبارة صادمة موجهة؛ إذ تقول: "وقد انتظر عبد الكريم عمته طول النهار.. واهتم بأولادها الصغار لينال ما وعدته جدته من حلوى.. ولكن أحداً لم يعد، لم تعد جدته ولا عمته ولا بنات الجيران اللواتي ذهبن لقطف الزيتون"، ثم نكتشف بعد هذا المشهد أن جنود الاحتلال يقتلون أولئك النسوة في أثناء عودتهن من العمل وفي طريقهن إلى البيت؛ وهذا أيضاً يفتح الباب على مصراعيه لخيال الطفل القارئ الذي يحاول أن يتخيل حجم معاناة عبد الكريم والأطفال الذين تركتهم النسوة في رعايته!!

.....

أما عن حقد اليهود الظاهر فهو يظهر في تدميرهم لكل ما لا يستطيعون سرقة، فيلجؤون لتخريب وتدمير كل ما يملكه الفلسطينيون، وقد جاء في قصة "زيتونة ستي حفيظة" للكاتبة روضة الهدد:

«في المستعمرة القريبة من منزل حفيظة في قرية سالم، يعيش مناحيم جولدمان وزوجته وحوالي خمسمائة مستوطن، أما مناحيم فقد جاء إلى فلسطين من مدينة نيويورك من أمريكا.. وأما زوجته فجاءت قبله إلى فلسطين من بلد اسمه إيرلندا؛ وأما باقي سكان المستعمرة، فقد أتوا من جهات مختلفة في أوروبا؛ فمنهم من جاء من روسيا أو ألمانيا أو فرنسا أو حتى إنجلترا.. كان "مناحيم جولدمان"، عندما جاء إلى فلسطين، يظن أن أرض فلسطين خالية من السكان، وأنه هو وجماعته من اليهود سيبنون بيوتها، ويزرعون شجرها، ويعيشون فيها بأمن واطمئنان، لكنه عندما شاهد بيوت الفلسطينيين ومزارعهم وأشجارهم، حقد عليهم وقرر محاربتهم وطردهم من بيوتهم وأرضهم، فنظرات الحقد والطمع تملأ قلوب المستوطنين تجاه البشر والحجر والشجر الفلسطيني»⁽¹⁾.

في الحقيقة المشهد السابق من القصة يؤكد أن هؤلاء اليهود في فلسطين أو المستوطنين إنما جاؤوا من بلاد أخرى بعيدة، يختلفون عن العرب في كل شيء؛ سواء في الدين أم العرق أم الثقافة واللغة، وهي مسألة مهمة ينبغي أن تكون راسخة في عقول الأطفال الفلسطينيين الذين يتلقون هذه الأعمال الفنية والأدبية.

يبين المشهد السابق مسألة أخرى مهمة جداً في تكوين الوعي؛ وهي أن هؤلاء المستوطنين المفترض أنهم مدنيون يختلفون عن دولتهم في أنهم لا يحملون السلاح ولا الحقد والكراهية تجاه أصحاب الأرض، وأنهم مجرد أشخاص مسالمين أبرياء سوقت إليهم حكومة إسرائيل فكرة الوطن الموعود المزعوم وأقنعتهم بها، ثم جلبتهم إلى بلاد العرب، لكننا نقف على طبيعة هؤلاء الناس وأنهم لا يختلفون شيئاً عن جيش الاحتلال اللهم إلا في ملابسهم المدنية، لكنهم جنود محاربون، يقومون بكل الفظائع التي تقوم بها الآلة العسكرية لمجرمي الحروب؛ من قتل، وسلب، وتعذيب، وحرق ممتلكات... الخ؛ ومن ثم فعلى النشء الفلسطيني أن يراهم على حقيقتهم، وأن يتعامل معهم في المستقبل من هذا المنطلق.

(1) الهدهد، روضة (2016): زيتونة ستي حفيظة "حكايات بطولية للأطفال" من قصص الصمود، دار كندة للنشر والتوزيع، عمان، ص 14.

وفي قصة "الزمن الحزين في دير ياسين" تتناول الكاتبة روضة الهدهد بعض أوصاف اللص الصهيوني الجسدية؛ وهو منحى مهم في الفن القصصي؛ لأنه يمثل تحليلاً بصرياً لسمات هذا العدو الشكلية؛ تقول روضة الهدهد:

«مناحيم بيغن، الشاب اليهودي الصهيوني، ترك بولندا التي تقع في أوروبا، وتفصلها عن فلسطين آلاف الأميال، ترك بولندا التي ولد وأقام فيها هو وآبؤه وأجداده؛ وجاء إلى فلسطين.. هرب من بولندا لأن الألمان النازيين أرادوا سجنه، وجاء إلى فلسطين، ليقوم فيها مغامراته التي يحلم فيها.. منحيم بيغن الأصفر الوجه كالمسلول.. المتكبر، المتغطر، الثعلب الماكر، اللص، جاء ليسرق بيوت العرب الآمنين ويشردهم، ألف عصابة مجرمة وسماها "الأرغون" لتقوم بالعمليات الإرهابية ضد العرب والإنجليز.

يقول منحيم بيغن لزميله "ديفيد ليثل":

- أتذكر يا ديفيد عندما نسفنا فندق الملك داود في القدس؟ كان ذلك قبل عامين تقريباً في 22/ تموز/ 1946 عندها قتلنا أكثر من مائتي ضابط ومسؤول انجليزي وعربي.. كانت ضربتنا تلك أعنف ضربة للإنجليز.. أتذكر ذلك»⁽¹⁾.

تحدثنا الكاتبة عن مناحم بيجن وهو شخصية يهودية شهيرة بوصفه سياسياً إسرائيلياً ومؤسساً لحزب الليكود وسادس رؤساء إسرائيل؛ ومن ثم فهي تصف رجلاً يمثل الصهاينة خير تمثيل، وما تضيفه عليه الكاتبة من صفات مادية أو معنوية، فإنما هي تتسحب على قطاع الصهاينة كافة.

نحن في البداية أمام رجل بولندي أوربي لا علاقة له بالعرب وبلادهم، بل هي بلاد بعيدة لا يسمع مثله عنها في الأحوال الطبيعية، هذا الرجل المفترض أنه ذاق الظلم على يد النازي؛ ما اضطره أن يترك وطنه "بولندا" ويهاجر هارباً للنجاة بحياته ومستقبله من براثن الآلة العسكرية النازية الجهنمية؛ ومن ثم فالمفترض فيمن ذاق الظلم والاضطهاد أن يكون أبعد الناس عن ممارسة هذه الفظائع لا سيما تجاه من لا يعرفهم ولا تربطه بهم أي صلة، بل لم يسيئوا إليه لا من قريب ولا بعيد، ولا شك أن الناس الذين

(1) الهدهد، روضة: الزمن الحزين في دير ياسين، ص 18.

يتعرضون للظلم يكونون غالبًا مرهفي الحس لا يقدمون على الظلم؛ وهذا يجعلنا نشك في الدعاية التي أشاعها الصهاينة تجاه الحقبة النازية وممارساتها في حق اليهود، وما ذكره حول الهولوكوست... الخ⁽¹⁾. نعتت الكاتبة مناحم بيجن بأنه أصفر الوجه كالمسلول، ولا شك أن اللون الأصفر له دلالاته الأدبية؛ فهو يعني النفاق، ويعني في الحروب التلوث الكيميائي والإشعاعي، ويعني على مستوى العلائق الاجتماعية الكذب والتصنع، كما أنه يشير إلى إدمان الكحول والمخدرات.

وعلى الرغم من أن هذا الرجل وقومه يزعمون تعرضهم للاضطهاد على يد النازي، فإنهم متكبرون متعطرسون كأنهم يلعبون دور النازي من جديد في مفارقة عجيبة؛ كأنهم يعيدون تمثيل الأحداث التي اخترعوها تجاه العرب الأمنين؛ وهذا يؤكد أن القتل والسلب والنهب والاستتصال طبيعة فيهم، وأنهم عندما ألصقوا هذه التهم بهتلر وجماعته -على الرغم من أننا لا نحمل تجاه النازية أي تعاطف، بل هم مجرمون من عتاة التاريخ- إنما كانوا يصفون ما بداخلهم تجاه العالمين؛ نسجوا حول أنفسهم الأكاذيب والأساطير وادعوا أنهم شعب الله المختار؛ وهي الأساطير نفسها التي انبثقت منها النازية حول العرق الآري المتفوق الذي لا يشبه البشر إلا في الهيئة.

ويبدو من خلال المشهد السابق منحنى آخر؛ فعلى الرغم من مساعدة الإنجليز للصهاينة وتمهيد الطريق أمامهم لاحتلال فلسطين، فإن اليهود يناصرونهم العداء في السر، ولا يتورعون عن ارتكاب الفظائع تجاه الإنجليز أنفسهم "أتذكر يا ديفيد عندما نسفنا فندق الملك داود في القدس؟ كان ذلك قبل عامين تقريبًا في 22/ تموز / 1946 عندها قتلنا أكثر من مائتي ضابط ومسؤول انجليزي وعربي.. كانت ضربتنا تلك أعنف ضربة للإنجليز.. أتذكر ذلك"؛ وقد كشف القرآن الكريم عن طبيعتهم هذه بقول الله تعالى: {قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ}(2).

.....

(1) ينظر: غراف، يورغن (1995): المذبحة تحت المجهر "الهولوكوست"، ترجمة: جواد بشارة، ط1، منشورات المدى للثقافة والنشر، دمشق، ص 23 وما بعدها.

(2) سورة آل عمرا، الآية 75.

وفي قصة "الزمن الحزين في دير ياسين" تبين الكاتبة روضة الهمد جانب اللوصية في الصهاينة وأنهم لاهم لهم إلا سلب ممتلكات العرب الفلسطينيين؛ تقول الكاتبة:

«تتقدم حياة قليلاً لترى الحاجة أمينة سمور، عجوزاً.. تخرج من بيتها رافعة يديها إلى أعلى، يلحقها حفيدها ممسكاً ثوبها، مسكينة الحاجة أمينة إنها مسالمة، لم تفكر يوماً بإيذاء أحد.. إنها تجلس طول النهار، تلاعب أولاد ابنها الصغار، وتحكي لهم القصص، فماذا تفعل بها هذه المجنونة الإسرائيلية اللعينة! لماذا تدفعها هكذا ببندقيتها؟

يا الله! إنها تأخذ من يديها أساور الذهب، بل وتأخذ الحلق من أذنيها.. هكذا إذن.. يريدون أيضاً سرقة الذهب والأموال من أهل القرية؟ ليتهم استعدوا لهذا قبل الآن.. ليتهم اشتروا السلاح بدل الذهب، ليتهم اشتروا البنادق للدفاع عن قريتهم⁽¹⁾.

تصور لنا الكاتبة الترويع الصهيوني الذي نال الأجيال الفلسطينية كافة؛ فنحن أمام جدة؛ وهي الحاجة "أمينة سمور"، وحفيدة، وكلتاها تتعرض للقمع والترويع على أيدي الصهاينة على الرغم من أنهما تمثلان صنفين ضعيفين من البشر؛ فالجدة امرأة عجوز ضعيفة، وهي مسالمة بطبيعتها -كما وصفت الكاتبة- والحفيدة طفلة صغيرة بريئة لا تعرف شيئاً؛ حتى إنها تتعلق بثوب جدتها وتخشى أن ينقلت من يدها! وعلى الرغم من ذلك لم تتورع المجنونة الصهيونية من أن تدفع هذه المرأة العجوز الضعيفة المسالمة بكعب بندقيتها دفعة قاسية لا شك أن الجدة تألمت على إثرها جسدياً وروحياً.

وتكشف لنا الكاتبة عن نية هذه العصابات المارقة؛ إنهم يلهثون مثل الذئاب الجائعة وراء المال والمقتنيات الثمينة التي بحوزة الفلسطينيين؛ وها هي ذي المجنونة تجرد السيدة أمينة من حليها؛ ككلب مسعور ينهش في جسد لا حول له ولا قوة!

ثم تقول الكاتبة في نصيحة غالية خالدة: "ليتهم اشتروا السلاح بدل الذهب، ليتهم اشتروا البنادق للدفاع عن قريتهم"، نعم.. إنه السلاح الذي هو أغلى من الذهب، بل أغلى ما يمتلكه الإنسان؛ لأنه يحفظ النفس الدين والعرض والأرض والنسل...

(1) الهمد، روضة: الزمن الحزين في دير ياسين، ص 28.

ويصور لنا الكاتب غسان كنفاني في قصة "ورقة من الرملة" لصوصية جيش الصهاينة وأن هدفهم من تلك الحرب والاحتلال إنما هو سرقة الأرض والمقدرات وكل ما يمكن أن تطاله أياديهم القذرة؛ يقول الكاتب:

«كنت في التاسعة من عمري يومذاك، ولقد شهدت قبل أربع ساعات فقط كيف دخل اليهود إلى الرملة، وكنت أرى وأنا واقف هناك في منتصف الشارع الرمادي كيف كان اليهود يفتشون على حلي العجائز والصبايا، وينتزعونها منهن بعنف وشراسة، وكانت ثمة مجندات سمراوات يقمن بالعملية نفسها، ولكن في حماس أشدّ وكنت أرى أيضًا كيف كانت أمي تنتظر باتجاهي وهي تبكي بصمت، وتمنيت لحظة ذلك لو أستطيع أن أقول لها إنني على ما يرام، وإن الشمس لا تؤثر فيّ، بالشكل الذي تتصوره هي، كنت أنا من تبقى لها، فأبي قد مات قبل بدء الحوادث سنة كاملة، لم أكن أعرف بالضبط ماذا كنت أعني بالنسبة لأمي، لكنني الآن لا أستطيع أن أتصور كيف كانت الأمور ستجري لو إنني لم أكن عندها ساعة وصلت دمشق»⁽¹⁾.

إن استلاب الحلي من النساء فيه ما فيه من الخسة والحقارة التي تليق بجيش الدفاع الصهيوني؛ ذلك الجيش سيئ السمعة الذي لا يجيد من أعمال القتال إلا الاغتيالات وقتل وترويع الأمنين والعزل، ويولي الأدبار عند أول لقاء مع كتائب نظامية تحمل السلاح!

إننا على يقين أن الخسة والحقارة واللصوصية لا يجتمعن مع النضال والقضايا السامية الرفيعة، وإن تصرفات وجرائم جيش الدفاع الصهيوني كفيلة بهدم كل ادعاءاته ومزاعمه وأساطيره التي يروج لها كي يجد دعمًا عند قوى الاستعمار والاستكبار العالمي، ويجد مسوغًا لأفعاله لدى الشرعية الدولية المزعومة!

(1) كنفاني، غسان (2002): أطفال غسان كنفاني والقنديل الصغير، ط1، دار المدى للثقافة والنشر، القاهرة، ص

المبحث الثالث: الآخر المخرب

إن الإفساد في الأرض والتخريب سمة أصيلة في اليهود؛ حتى إن القرآن ذكر ذلك حاكماً عليهم بالتخريب والإفساد؛ وهو ما يتضح من قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾⁽¹⁾.

فالإفساد والتخريب -كما يرى الفلسطينيون - سمة غالبية على هذا الآخر المحتل، ونلمس ذلك بوضوح في قصص الأطفال الفلسطينية، وهي تحكي عن مدى الخراب والتدمير الذي ينزله المحتل بفلسطين وأهلها، حتى لتظن لوهلة أنه يخشى من الشجر ومن جدران البيوت، من أكياس القمح؛ فقد جاء على لسان أحدهم في قصة "سر القنابل الموقوتة" للكاتبة روضة الهدهد، يقول ساخراً مستنكراً:

«التف الثوار حول قائدهم فرحين بعودته، ويحدثه محمد صالح "أبو خالد" قائلاً: أتدري... أيها القائد؟ جاؤوا يفتشون منزلنا.. إنهم لا يقرعون الباب، بل يدقونه دقاً، ببنادقهم، بأحذيتهم الضخمة، وعندما يدخلون، يبدؤون بتفتيشهم العصبي هذا.. يخرجوننا نحن الرجال خارج المنزل.. ويدخل كل اثنين أو ثلاثة منهم غرفة من غرف المنزل... بعضهم يدخلون غرف النوم، ليقبلوا الأسرة رأساً على عقب، وبعضهم يدخلون المطبخ... هل رأيت يا أبا إبراهيم يوماً تنكة زيت تصبح ثورة ضد الاستعمار، هل رأيت يوماً شوال قمح يصبح قنبلة ضد الإنجليز...؟

هذا ما يحصل عندما يفتح الجندي المستعمر تنكة الزيت بكل وحشية وقسوة، لينسكب الزيت الغالي على الأرض، ويملأ البيت والأرض والملابس... عندها لا يكون زيتاً... يكون ثورة تملأ النفس... يكون حقداً... يكون نارا تشتعل في نفوس نساءنا وأطفالنا ضد هذا المستعمر...! والقمح.. القمح يا أبا إبراهيم، عندما تعمل حربة الجندي الغريب في كيس القمح، تمزقه من رأسه إلى قاعه، مزقاً طولياً، لينفجر الكيس، ويسقط على الأرض حبات... عندها لا يكون قمحاً... بل قنابل موقوتة تنفجر حينما نريد أن نفجرها... ويكون رصاصا لبنادقنا وبنادق أبنائنا من بعدنا»⁽²⁾.

(1) سورة الإسراء، الآية 4.

(2) الهدهد، روضة (1987): سر القنابل الموقوتة، ط2، الشيخ أبو إبراهيم الكبير، ص 17-18.

لا شك أن العالم تحكمه قوانين ومؤسسات عالمية لها شرعية وآلية عمل تنظم الصراعات وتحل الخلافات، لكنها شرعية تتبنى وجهة نظر معينة وتكيل بمكيالين وتقلب الحقائق وتتجاهل الكثير مما يقع هنا وهناك يصم الآذان ويزكم الأنوف ويعشي العيون لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. والمفترض أن المdahمات للقبض على هاربين أو مخالفين يجري في شكل شرعي منضبط يتماشى مع القانون العام وعدم المساس بالحريات والممتلكات، لكن هذا إنما يجري في دولة القانون والمواطنة، ولا يمكن أن نتوقعه من دولة الإرهاب والاستكبار المعروفة بإسرائيل.

نحن أمام ذئاب شرسة جائعة متعطشة للدماء والتخريب؛ كما لو أنها اقتحمت قطيعًا من الغنم في غياب الراعي وكلبه، وبدأت تفسد وتخرب وتنهش هنا وتبقر هناك حتى أتت على القطيع كله ولم تأكل إلا النزر اليسير!

إن عقلية جنود الاحتلال تم برمجتها بالتخريب والبطش؛ فصار التخريب منهجًا وثقافة، لكن على الجانب الآخر ينبغي أن يعلم المخرب أنه سيحاسب يوما ما على اقترفه، وأن هذا التخريب والتنكيل كما أنه يؤلم الطرف الآخر ويوجعه، فإنه أيضًا يزكي داخله روح الثأر والانتقام والمقاومة الحديدية التي لا تكل ولا تمل "هذا ما يحصل عندما يفتح الجندي المستعمر تنكة الزيت بكل وحشية وقسوة، لينسكب الزيت الغالي على الأرض، ويملأ البيت والأرض والملابس... عندها لا يكون زيتًا... يكون ثورة تملأ النفس... يكون حقًا... يكون نارا تشتعل في نفوس نساتنا وأطفالنا ضد هذا المستعمر...! والقمح.. القمح يا أبا إبراهيم، عندما تعمل حربة الجندي الغريب في كيس القمح، تمزقه من رأسه إلى قاعه، مزقًا طولياً، لينفجر الكيس، ويسقط على الأرض حبات... عندها لا يكون قمحًا... بل قنابل موقوتة تنفجر حينما نريد أن نفجرها... ويكون رصاصا لبنادقنا وبنادق أبنائنا من بعدنا".

وتقول زوجة المناضل في القصة نفسها: «لقد حضر الجنود الإنجليز في غيابك، وفتشوا منازل جميع المناضلين للبحث عن السلاح... دخلوا بيتنا هذا... أتدري يا أبا إبراهيم؟ لقد خلطوا العدس

بالزيت، والطحين بالأرز، والسكر بالملح... مزقوا الفراش، وكسروا أبواب الخزانات.. فعلوا هذا وغيره انتقاماً منا... لكنهم والله لن ينالوا منا... والحمد لله أنهم لم يجدوا أثراً للسلاح...»⁽¹⁾.

هنا توضح الكاتبة أن أهم شيء يشغل المجاهدين هو السلاح؛ فهو عندهم يعني الحياة والكرامة والثأر وألم العدو وقهره والانتصار عليه، إن السلاح مهما كان قليلاً أو قديماً، فإن البراعة في استعماله المصحوبة بإيمان عميق بالله وبالقضية تجعله من جمر سجل على الأعداء.

ولم يقتصر انتقامهم وتدميرهم على المواد الغذائية وأثاث البيوت بل استقحش بطشهم حتى صاروا يكون البيوت دكاً؛ فيحيلونها إلى أكوام من التراب، غير آبهين بمن فيها، بل يهددونهم بالقتل إن حاولوا الدفاع عن بيوتهم؛ فقد جاء على لسان الطفل بطل قصة "مغامرات كنعان وحظلة في نفق المسجد الأقصى" للكاتبة روضة الهدهد:

«أتذكر يا محمد عندما هدم اليهود بيتنا في "حي الشرف"؟ كان أول حي من الأحياء التي هدموها إثر احتلالهم لمدينة القدس عام 1967م، وتلاه حي المغاربة وباب السلسلة.. يومها قضينا أسبوعاً كاملاً على أنقاض بيتنا لا نريد أن نتركه، ولكن الجنود الإسرائيليين هددونا بالقتل، وجاءت الجرافات الإسرائيلية فهدمت البيوت وسوتها مع الأرض.. أتذكر يا محمد عندما انتقلنا إلى بيتكم في "باب حطة"؟»⁽²⁾.

نعم، إنه منطق الاستكبار والاستئصال؛ هدم البيوت، وترويع أصحابها، وتهديدهم بالقتل، ثم تصور الكاتبة مشهداً حزيناً مأساوياً يوجع القلوب الحية؛ إنه مشهد العائلة وهي تقضي أسبوعاً كاملاً على أنقاض بيتها المهديم ظلماً وعدواناً؛ فأى وجع هذا! بل أي بطش وتتكيل!

ثم تتناول الكاتبة في حرفة فنية عالية المستوى نوعاً آخر من التخريب يتجاوز ما هو مادي ملموس ليغال المعنوي الذي تستشعره القلوب والضماير، في قصة "يوم الأرض والقمح المشتعل" تتناول الكاتبة تخريب فرحة الفلسطينيين بالعيد؛ قائلة:

(1) المرجع نفسه: ص 16.

(2) الهدهد، روضة (1999): مغامرات كنعان وحظله في نفق المسجد الأقصى، دار كندة، عمان، ص 17.

«أحست بقلبها المرهف أن أمرًا ما سيحدث.. وأخذت تجيل النظر هي الأخرى بين أكوام القمح المحصود وأعواده وسنابله التي لم تحصد بعد.. ودق قلبها بعنف شديد لم تعده من قبل، حينما أشار الضابط الإسرائيلي وقال:

- أحرقوا المحصول..

وخلال دقائق كانت النيران تشتعل في أكوام القمح المحصود، وخلال دقائق كانت النيران تنتشر بين أعواد السنابل الجافة، وتنتقل من حقل إلى حقل لتتلف آلاف الأطنان من القمح، ولتتحرق قلب أم محمد وجميع فلاحى المنطقة.

كانت النيران تشتعل أمام عيني، وكنت أحس بلهيبها يلسع وجهي ويدي، كنت أرى أم محمد تبكي الفريكة والبرغل والطحين والسميد.. وكنت لا أزال أفرك السميد لأصنع منه كعك العيد»⁽¹⁾.

تبين لنا الكاتبة مدى التحطم والتشظي الذي يعانيه الفلسطينيون تحت الاحتلال الغليظة الجهنمية؛ لقد صارت مصائرهم وأفراحهم وأحزانهم مرهونة بإشارة من يد ضابط أخرج عابث، لا يهمه ولا يعنيه أن يهدم الدنيا حوله أو يحيلها إلى ركام، في حين أن قتال العزل والضعفاء بألة عسكرية رهيبة أكسبه شجاعة سرابية مجرد وهم بالقوة والتفوق؛ تلك القوة المزعومة التي يستشعرها كل من يقاوم الضعفاء حتى إذا ما واجه خصمًا حقيقيًا أو ندًا عنيدًا، عرف حجمه ومبلغه من القوة والشجاعة، وعلم حين ينجلي الغبار جوادًا تحته أم حمارًا!

انتقلت النار العابثة اللاهية من حقل إلى حقل على أصداء ضحكات شيطانية تغلف الأفق وترسم أجواء سوداء قاتمة، ويطل الجوع بوجهه القبيح من بعيد؛ منذرًا بالموت والبكاء!

إن القهر الحقيقي أن يتعب الإنسان ويغرس ويسقي وينمي ويكبر زرعه على عينه، حتى إذا ما استوى وحن حساده تخطفته أيادي الشياطين بأحقادهم الدفينة المتأصلة؛ وهذا ما نجحت الكاتبة في تصويره.

(1) الهدد، روضة (1986): يوم الأرض والقمح المشتعل، (دط)، دار كندة للنشر والتوزيع، عمان، ص 8.

لم يقتصر التخريب على الممتلكات من بيوت وبساتين ومحاصيل وحقول، بل امتدّ ليطال الأماكن المقدسة، ولا فرق هنا عند الصهاينة بين المسجد والكنيسة؛ فالجميع من أتباع الدينين غير يهود، وطالما أنهم غير يهود، فهم واقعون تحت طائلة المعاول الصهيونية التي لا تبقي ولا تذر؛ تقول الكاتبة روضة الهدهد في قصة "الكنيسة والمقبرة":

«وأكمل سيادة المطران يوسف كلامه قائلاً:

- وقد علمتم أن دبابات الجيش هدمت جميع بيوت القرية بيتاً بيتاً؛ أي: إنكم أصبحتم بلا بيوت نهائياً هناك، ويعني أنكم لن تعودوا إلى «إقرت» أبداً، وعلمتم أن الكنيسة قد هدمت أطرافها واستبيحت ساحاتها، بل أصبحت مرتعاً للحيوانات ومخلفاتها، وحفاظاً على كنيستنا، بيت الله وبيتي وبيت رجال الدين، فقد اتفقت مع بعض رجال الدين من قريتنا، ومن القرية المجاورة «كفر برعم» أن نذهب إليها حالاً وسيراً على الأقدام حتى نحميها بأجسادنا!!

وسرت همهمة بين الرجال؛ الذين توافد عليهم رجال آخرون من باقي القرية، حتى احتشدت ساحة الدار والطرق الخارجية بهم..

ومن بين الحشود وصل عشرة رجال بلباسهم الديني المسيحي، وأمسكوا بأيديهم صفّاً واحداً ومشوا باتجاه قرية «إقرت» وكنيستها..

قام فوزي من فوره، ولبس حذاءه، ومشى مع الرجال!!⁽¹⁾.

لا شك أن منظر الكنيسة على هذه الحال لا يرضي أحداً، بل هو مشهد مؤلم موجه، وقد أحسنت الكاتبة بتوظيف ذلك؛ لكي يبدو للجميع أن مشكلة اليهود ليست مع المسلمين فقط، بل مع العرب الفلسطينيين وكل من يخالفهم العقيدة والمنهج والأطماع.

(1) الهدهد، روضة: الكنيسة والمقبرة، ص 15.

إنه كشف كبير جدًا مملوء بعشرات الأسماء، أسماء قرى كاملة هدمها المحتل المخرب بآلته العسكرية وجرافاته الجهنمية التي لم تترك حجرًا على حجر في مسيرتها المظلمة التي يكتنفها القهر ويحيط بها البؤس والألم؛ تقول الكاتبة روضة الهدهد في قصة "الكنيسة والمقبرة":

«بعد أيام جلس فوزي وأصدقائه أمام شاشات أجهزة الحاسوب بدلاً من آلات الطباعة القديمة، رسموا خريطة فلسطين ووضعوا عليها أسماء القرى والمدن العربية التي كانت تملؤها قبل عام النكبة عام 1948، وأخذوا يعدون:

- هنا ثلاث وثلاثون قرية هدمت، وهجر أبناؤها: يالو⁽¹⁾، دير القاسي⁽²⁾، سروح⁽³⁾، جبُول⁽⁴⁾.

(1) يالو: قرية كانت تابعة لقضاء الرملة، ثم صارت بعد عام 1948م في قضاء رام الله، وهي إحدى قرى الخطوط الأمامية في الضفة الغربية سنة 1948م، تقع يالو جنوب غرب رام الله، وترتفع 300 متر، أقيمت على بقعة أيلون الكنعانية، وتعني بلاطة، أهم مزرعاتها الزيتون، هدمها الصهاينة سنة 1967م. شراب، محمد محمد. (1987): معجم بلدان فلسطين، ط1، دار مأمون للتراث، بيروت، ص 728.

(2) دير القاسي: قرية عربية تقع في أواسط الجليل الأعلى إلى الشمال الشرقي من مدينة عكا، تبعد خمسة أكيال جنوب الحدود اللبنانية، ترتفع 600 متر، وفي وسطها طريق معبد شقه الإنجليز إبان الحرب العالمية الثانية، وهي طريق ترشيحا، سحماتة، دير القاسي، فسوطه، والقرية منقسمة إلى قسمين شرقية وغربية، تأتيها المياه من عين الفخرة، وينبوع وادي الجيس، ويكثر فيها شجر السنديان، تزدهر بها زراعة الزيتون، وقد دمرها الصهاينة عام 1948م، وأقاموا على أراضيها مستعمرة (إلقوش) التي يسكنها يهود من العراق واليمن. ينظر: شراب، محمد محمد: معجم بلدان فلسطين، ص 395.

(3) سروح/ صروح: قرية فلسطينية عربية مزلة، تقع على تل صخري، قضاء عكا وتبعد عنها 28 كلم من الشمال الشرقي، وترتفع عن سطح البحر 525 متر، كانت القرية تنتصب على تل صخري وتشرف على قرية تربخا. وكانت تواجه قرية النبي روبين المجاورة وتابعة مثلها لقرية تربخا. في أواخر القرن التاسع عشر كانت سروح قرية زراعية صغيرة وتعني أيضا بتربية المواشي وفيها نحو 90 نسمة معظمهم من المسلمين ومنازلهم مبنية بالحجارة وكانوا يزرعون الحبوب والزيتون والعنب والتبغ وغيرها من المحاصيل في 1944\ 1945 كان ما مجموعه 3200 دونم من أراضيهم مخصصا للحبوب يستفيدون من الإمكانات والخدمات الموجودة في تربخا، التي تبعد عنهم كيلومترا واحدا كما كانوا يرسلون أبناءهم إلى المدرسة هناك. وبالقرب من سروح كان ثمة خريتان فيهما تشكيلة من الأدوات الأثرية بما في ذلك حيطان متداعية وآبار وقبور محفورة في الصخر، كان سكان سروح من أوائل السكان الذين طردوا خلال حملة الجيش الإسرائيلي الرامية إلى (تطهير) الحدود الشمالية مع لبنان. ففي الأسبوع الثاني من تشرين الثاني 1 نوفمبر 1948 وبينما كانت وحدة المعارك الكبرى في الحرب تخف تقدمت القوات الإسرائيلية بسرعة نحو الكثير من هذه القرى ولا يستبان من رواية المؤرخ الإسرائيلي بني موريس، هل فرض على سكان القرية العبور إلى لبنان (كما كانت الحال في معظم القرى المجاورة)، أم أنهم نقلوا بالشاحنات إلى موقع آخر ضمن الأراضي التي احتلتها إسرائيل (كما كانت الحال مع باقي القرى) وقد ظل الجيش الإسرائيلي عدة أسابيع بعد انتهاء حملة (التطهير) يشن غارات من حين إلى آخر على هذه القرى، للتأكد من إن سكانها لم يعودوا إلى منازلهم غير أن موريس لا يشير إلى مصير القرية وسكانها، لا يظهر منها اليوم سوى الركام والأشجار ونبات الصبار والحشائش والنباتات البرية. ويستخدم الموقع في معظمه مرعى للمواشي. ينظر: الخالدي، وليد. (1997): كي لا ننسى قرى فلسطين التي دمرتها إسرائيل سنة 1948م وأسماء شهدائها، ترجمة: حسيني زينة، ط1، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ص 481.

(4) جبُول: بفتح الجيم وتشديد الباء مع الضم، قرية تقع في قضاء بيسان من الشمال، ترتفع 100 متر، عرفت في العهد الروماني بهذا الاسم، وفي شرقها عين المرة، كان بها عام 1945م 250 نسمة، كانت جبُول تنهض على تل طرف وادي بيسان، مشرفة على وادي يبلى إلى الجنوب الغربي، ويمتد وادي العشة عبر أراضيها الواقعة إلى الجنوب. وكانت طريق فرعية تربطها بطريق بيسان-أريحا العام، وتربطها طرق أخرى بالقرى المجاورة. وربما كان الموقع يعرف في العهد الروماني باسم جبُول، أو على الأرجح جبُولا. وكان في جبُول -وسكانها كلهم من المسلمين- مسجد صغير

فيه مقام تعلوه قبة ويقع إلى الجنوب من منازلها كما كان فيها عدد من المتاجر. وكان سكانها يعتمدون في الغالب على بيسان وعلى قرية كوكب الهوا لأغراض التعليم والعناية الصحية والتجارة وغيرها من الخدمات. لا توجد مستعمرات إسرائيلية على أراضي القرية. أما مستعمرة بيت يوسف التي بنيت عام 1477 على أراضي قرية زبعة، فهي على بعد كيلومترين إلى الجنوب الشرقي، أصبحت منازل القرية ركاما تغطيه الأشجار والأشواك والحشائش البرية أما الأراضي المحيطة بالموقع مزرعة. ينظر: الخالدي، وليد: كي لا ننسى، ص 16-17؛ شراب، محمد محمد: معجم بلدان فلسطين، ص 248.

- هنا خمس وسبعون قرية هدمت، وهجر أبناؤها: بيت عفا⁽¹⁾، الأشرفية⁽²⁾، الطيرة⁽³⁾، عمواس⁽¹⁾.

(1) بيت عفا: تبعد القرية عن غزة 29 كيلومتر كانت القرية تنهض على رابية صغيرة في منطقة قليلة الارتفاع إلى جوار السهل الساحلي، وكان سكانها من المسلمين وفيها مقام يعتقد أنه للنبي صالح. وكانت القرية تعتمد على الفالوجة للحصول على الخدمات التجارية، وكان سكانها في معظمهم يعملون في الزراعة البعلية، فيزرعون الحبوب والعنب. في منتصف ليل 27 يناير/كانون الثاني 1948 دخلت وحدة من الميليشيات الصهيونية القرية وحاولت زرع الألغام في بعض المنازل النائية غير أن حرس القرية انتبهوا لوجود المتسللين فجري اشتباك دام ساعتين، وثمة روايات متضاربة في شأن احتلال القرية ويبدو أن القرية تنقلت بين أيدي المتحاربين مرتين على الأقل في أثناء الحرب. وتذكر المصادر الإسرائيلية أنها احتلت القرية في 14-15 يوليو/تموز 1948، خلال الأيام العشرة ما بين هدنتي الحرب. غير أن مصادر إسرائيلية أخرى ذكرت أن القرية كانت يد الإسرائيليون في يوليو/تموز أي بينما كانت الهدنة الأولى تشارف على الانتهاء. ومن المرجح أن تكون بيت عفا سقطت في يد الإسرائيليون في النصف الثاني من أكتوبر/تشرين الأول، أثناء عملية يوآف غير أن سكانها طردوا منها في زمن الاحتلال الأول. أقيمت مستعمرة ياد ناتان بالقرب من موقع القرية في سنة 1953 لم يبق من منازلها أثر، ولا يميز الموقع سوى أشجار الجميز والخروب، وتزرع الفاكهة في الأراضي المجاورة التي ترونها مياه مستمدة من نهر الأردن بواسطة قناة. ينظر: الخالدي، وليد: كي لا ننسى، ص 524-526.

(2) الأشرفية: تقع في منطقة مستوية على بعد كيلومترين إلى الشرق من جبال فقوعة (أو جلبوع)، وتشرف على أراضي منخفضة إلى الشمال والغرب. وكان يشاهد إلى الشمال الغربي جبل طابور. أما من الشرق، فكانت القرية تواجه المرتفعات الواقعة شرقي نهر الأردن. وهذا الموقع المرتفع قد يفسر اسم القرية، الأشرفية، ومصدره الإشراف. كما أن موقعها أتاح لها أن تنجو من فيضانات مياه وادي المدوع الذي يمتد إلى الغرب منها. وكان طريق بيسان - أريحا العام يمر على بعد كيلومترين إلى الشرق من الأشرفية، وكانت طريق فرعية تربط القرية بالطريق العام هذا. وقد صنفت القرية مزرعة في فترة الانتداب، كان سكان الأشرفية من المسلمين وقد بنوا منازلهم متقاربة بعضها من بعض، وتفصل أزقة ضيقة بينها. وكان معظم أراضيها مزروعا وذلك بفضل وفرة المياه من الأمطار والينابيع، والتربة الخصبة والأرض المستوية التي يسهل حرثها. وكانت الزراعة تتشكل في الغالب، من الخضروات وأشجار الفاكهة كالحمضيات والموز والزيتون. في 1944\1945 كان ما مجموعه 143 دونما مخصصا للحمضيات والموز، و7 دونمات للحبوب، و4458 دونما مرويا أو مستخدما للبساتين. وكان سكان القرية يعملون، في معظمهم في الزراعة وتربية الدواجن. شنت وحدات تابعة لواء غولاني غارة على القرية واحتلتها في 10-11 أيار 1948. وكانت الغارة البداية للهجوم على بيسان في اليوم التالي. أما فرونة، وهي قرية أخرى تابعة لبيسان، فقد احتلت في الوقت ذاته. وكانت كلا القريتين في أرجح الظن بين ثمانين قرى قرب بيسان سقطت في 13 أيار مايو، فرّ سكان فرونة إلى شرق الأردن (عندما تقدمت القوات)، وبدأت (فرق الهندسة التابعة لهاغاناه تدمير القرية) حال سقوطها. أما الحملة التي أدت إلى احتلال وادي بيسان وتهجير سكانه، فكان اسمها العسكري عملية غدعون وقد نفذها لواء غولاني بين 10-15 أيار مايو 1948، وذلك قبل قيام دولة إسرائيل مباشرة. ولعل عصابة الأرغون شاركت في ذلك الهجوم، لأنها أعلنت في 14 أيار مايو أنها احتلت خمس قرى عربية في الشمال. ينظر: الخالدي، وليد: كي لا ننسى، ص 12؛ شراب، محمد محمد: معجم بلدان فلسطين، ص 118.

(3) الطيرة: بكسر الطاء وسكون الياء قرية قديمة كانت محطة للبريد في عصر المماليك بين دمشق وغزة، بنى بها ناصر الدين تنكز نائب دمشق خاناً يأوي إليه التجار، وتقع في منطقة طولكرم غرب الطيبة، وتبعد عن قلقيلية ثمانية

أكيال، وترتفع 75 مترًا، كان بها عام 1945م 3180 عربيًا معظمهم من باقة الحطب، وحجة، وقلنسوة، وجباليا، تأتيها المياه من بئر ارتوازية على عمق 50 مترًا، استولى عليها الصهاينة بموجب اتفاقية رودس سنة 1949م، وفي سنة 1961م ذكر الصهاينة أن عدد سكانها 5338 عربيًا، وفي سنة 1965م 6200 عربي. ينظر: شراب، محمد محمد: معجم بلدان فلسطين، ص 511.

(1) عمّواس: بكسر العين وسكون الميم قرية تقع جنوب شرق الرملة ارتفاعها بين 225-250 مترًا، فتحها عمرو بن العاص، صارت مقرًا لجند المسلمين، انتشر بها الطاعون الأشهر إبان خلافة عمر بن الخطاب، ولما تولى الخلافة عبد الملك بن مروان طلب من خالد بن يزيد بن معاوية شراء مقر الخضراء (دار الملك في دمشق)، فابتاعها منه بأربعين ألف دينار وأربع ضياع من مختلف الأجناد؛ فاختار خالد عمّواس من جند فلسطين، بلغ عدد سكانها سنة 1945م 1450 نسمة، احتلها الصهاينة سنة 1948م، غير أن السكان ظلوا في القرية، وألحقت بلواء رام الله (الضفة الغربية)، وبلغ عددهم سنة 1961م 1955 نسمة، وفي عام 1967م طرد الصهاينة السكان ودمروا القرية. ينظر: شراب، محمد محمد: معجم بلدان فلسطين، ص 546-547.

- هناك تسع وتسعون قرية هدمت، وقتل أبنائها بوحشية.. دير ياسين⁽¹⁾.. الطنطورة⁽²⁾، الدوايمة⁽³⁾.

(1) دير ياسين: تقع على بعد 5 كم عن مدينة القدس وعلى مرتفع يصل إلى 750 م عن مستوى سطح البحر كانت تتربع قرية دير ياسين، كانت تقع على المنحدرات الشرقية لاحتلال، وتطل على مشهد واسع من الجهات كلها. وكان سكانها جميعهم من المسلمين، وكانوا يعتمدون في معيشتهم على الزراعة وتربية المواشي، لكن سرعان ما طرأ تبدل على أسس اقتصاد القرية بسبب ازدهار البناء في القدس في عهد الانتداب. إذ كانت المنطقة المحيطة بدير ياسين غنية بالحجر الكلسي، فاستثمر السكان مقالع واسعة على امتداد الطريق الفرعية المؤدية إلى المدينة. وكان فيها مدرستان، ونزلان، وناد اجتماعي، وثلاثة دكاكين وأربع آبار، ومسجد مشرف على القرية. كانت دير ياسين مسرحاً لأشهر مجازر الحرب وأشدها دموية. احتلال القرية يدخل ضمن الإطار العام لعملية نحشون التي خططت عصابة الهاغانا لها. تفيد تقارير عصابة الهاغانا بأنه عند بزوغ فجر 9 أبريل/نيسان 1948، شن مئة وعشرون رجلاً (ثمانون من الأرغون، وأربعون من شنيرين) هجوماً على القرية، ونفذ المنشقون مذبحاً في القرية من دون تمييز بين الرجال والنساء والأطفال والشيوخ. وأنهوا عملهم بأن حملوا قسماً من (الأسرى) الذين وقعوا في أيديهم على سيارات وطافوا بهم في شوارع القدس في (موكب نصر)، وسط هتافات الجماهير اليهودية. وبعد ذلك أعيد هؤلاء (الأسرى) إلى القرية وقتلوا. وكانت عصابة الهاغانا احتلت دير ياسين غداة المجزرة، أي يوم 10 أبريل/نيسان لكن صحيفة نيويورك تايمز قالت لاحقاً إنهم احتلوا القرية (رسمياً) يوم 11 أبريل/نيسان. وأصبح تأثير المجزرة في هجرة الفلسطينيين، في تلك السنة، موضوع سجال كبير في الأوساط الإسرائيلية والفلسطينية. في صيف سنة 1949 استقرت عدة مئات من المهاجرين اليهود بالقرب من دير ياسين، وأطلق على المستعمرة الجديدة اسم غفعت شاؤول بت تيمنا بمستعمرة غفعت شاؤول القديمة التي أنشئت سنة 1906. لا تزال منازل قائمة في معظمها على التل وقد ضمت إلى مستشفى إسرائيلي للأمراض العقلية أنشئ في موقع القرية. ويستعمل بعض المنازل، التي تقع خارج حدود أراضي المستشفى لأغراض سكنية أو تجارية أو كمستودعات. وثمة خارج السياج أشجار خروب ولوز، وبقايا جذوع أشجار زيتون. بنظر: الخالدي، وليد: كي لا ننسى، ص 618-622.

(2) الطنطورة: قرية فلسطينية مهجرة، كانت مبنية على تلٍ رملي يرتفع أقل من 25 م عن مستوى سطح البحر جنوب مدينة حيفا، والتي تبعدُ عنها قرابة 24 كم، كانت مساحتها المبنية تبلغ حوالي 120 دونم من مجمل أراضيها البالغة 14520 دونم. كانت تحدها مجموعة قرى وبلدات هي: قرية كفرلام، قرية الفريديس، قرية الكبارة والبحر الأبيض المتوسط الذي كان يشكل حداً غربياً للقرية، كانت الطنطورة من أواخر قرى قضاء حيفا التي سقطت بيد الصهاينة، هاجم جنود لواء "اسكندروني" الطنطورة من الجهات الأربع ليلة 23 من أيار/ مايو 1948، قاوم الطناطرهُ الهجوم إلى أن نَقَذَتْ ذخائرهم، وسقطت القرية بيد الصهاينة صبيحة ذلك اليوم. أسفر الهجوم عن مجزرة جماعية بشعة بحق سكان القرية. اختلفت الروايات العربية والإسرائيلية حول عدد شهداء مجزرة الطنطورة، ولكن مجمل الأعداد التي ذكرها الطرفان تتراوح ما (200 و250) شهيداً. ينظر: الخالدي، وليد: كي لا ننسى، ص 106-108.

(3) الدوايمة: قرية فلسطينية مهجرة، تبعد عن مدينة الخليل نحو 24 كيلو متر، وتبلغ مساحة أراضيها "60585" دونم. يمكن أن تعد من أراضي الخليل. ترتفع الدوايمة 350 م عن سطح البحر، ويحيط بها أراضي قرى إذنا ودورا والقييبة وبيت جبرين وعرب الجبارات. قدر عدد سكانها عام 1922 (2441) نسمة وفي عام 1945 (3710) نسمة. قامت المنظمات الصهيونية المسلحة بهدم القرية وتشريد أهلها البالغ عددهم عام 1948 (4304) نسمة. وكان ذلك في 1948. ويبلغ مجموع اللاجئين من هذه القرية في عام 1948 حوالي (3358) نسمة، في ظهيرة يوم الثامن والعشرين

كتبوا أسماء القرى والمدن كلها.. طبعوها على الورق وفي الوجدان وفي القلوب.. وتعاهدوا ألا ينسوا يوماً ما فعله المجرمون بآبائهم وإخوانهم.

وعندما توفيت جدة نعمان «وردة»، حملها الرجال علناً ودفنوها في المقبرة، ثم رفعوا دعوى جديدة ضد الجيش الإسرائيلي يطالبون فيها الحكومة أن تمد خطوطاً من الكهرباء للقرية «إقرت».

ضحك فوزي في سره مرة أخرى، وهو يرى جرأته وجرأة الشباب تتزايد وتتزايد مطالبهم، ولكنهم فوجئوا يوماً بأعمدة الكهرباء تنصب أمام الكنيسة لإنارتها⁽¹⁾.

أرادت الكاتبة إنعاش ذاكرة النشء أو تبصير وإعلام من لم يحط خبراً بالمجازر والهدم الذي حصل لقرى فلسطين؛ ومن خلال قالب فني درامي بعيد عن المباشرة والخطابية، بل يملؤه الفن والدراما سردت الكاتبة أسماء لقرى فلسطينية هدمها العدو الإسرائيلي المخرب؛ كي تظل هذه الأسماء وغيرها محفورة

من عام 1948، كانت قرية الدوايمة على موعدٍ مع اقتحام العصابات الصهيونية، حيث كان المدنيون فقط من يتواجدون بالقرية، دون إسنادٍ من المقاومة أو الجيوش العربية، ما أدى إلى استفراد الصهاينة بسكان القرية المدنيين الغزل. اقتحمت القرية الكتيبة 89 التابعة للواء الثامن الصهيوني، بعد حصارٍ من عصابات "شتيرن" و"أرجون" الإرهابية الصهيونية، حيث تم الاقتحام من قبل 20 آلية مصفحة، جاءت من جهة قرية "القببية"، بينما هاجم جنودٌ آخرون القرية من الجهة الأخرى. يروي حسن محمود هديب، مختار قرية الدوايمة، أن الاقتحام تم بعد نصف ساعة من صلاة الجمعة في ذلك اليوم، شلّ الخوف 20 شخصاً كانوا يحرسون القرية جراء الاقتحام الصهيوني المفاجئ. كان الصهاينة يمتلكون عربات مصفحة وأسلحة أوتوماتيكية ومدافع هاون، فتحو النار فور دخول القرية، وكانوا يدخلون إليها بطريقٍ شبه دائري، وطوّقوا القرية من ثلاث جهات، بينما فتحو الجهة الشرقية لتكون وسيلة هرب السكان الذين سيكون مصيرهم اللجوء بعد ساعاتٍ من المجزرة. لم تتحقق أمنية الإرهابيين بهرب السكان بعد ساعةٍ من الاقتحام، فلجأوا إلى إطلاق النار تجاه المدنيين دون تمييزٍ بينهم، فقتلوا الرجال والأطفال والنساء، ما أدى إلى هرب من بقي حياً إلى الكهوف المحيطة بالقرية وإلى مساجدٍ قُربه. عاد المختار هديب إلى القرية في اليوم التالي، فرأى مشهداً مروّعاً، أجسامٌ متكوّمة في المسجد وجثثٌ متناثرة في الشوارع، لرجالٍ وأطفالٍ ونساء، رأى المختار والده بين هذه الجثث. في الكهف الذي يُسمى "عرق الزاغ"، كانت مجزرةٌ أخرى مستقلة، تمت بحق المدنيين اللاجئين إليه، فقد كان الكهف مسدوداً بعشرات الجثث ممن ماتوا على يد العصابات الصهيونية. كانت 10 عائلات أغلبها من عشيرتي العوامرة والقيسية أخذت بعض الأمتعة والطعام واختبأت في الكهف، الواقع جنوب شرق "الدوايمة". كان الإرهابيون الصهاينة قد أمروا جميع الرجال والنساء والأطفال في الكهف بالاصطفاف، وأطلقوا النار تجاههم بإعدامٍ ميداني مروّع، وأدى ذلك لاستشهاد 55 مدنياً. الخالدي، وليد: كي لا ننسى، ص 160-161.

(1) الهدد، روضة: الكنيسة والمقبرة، ص 23.

في عقول وقلوب ووجدان هؤلاء النشء ، وتكون الجمرة التي تلهب حماسهم وجهادهم؛ فيقاتلون مقاتلة
المحاربين الشعراء؛ ذلك القتال النبيل المملوء بالتضحيات والفروسية والشجاعة والإقدام والبسالة.

المبحث الرابع: الآخر الظالم

إن الظلم ظلمات، وهو يعني وضع الشيء في غير موضعه⁽¹⁾؛ حتى إن المولى - عز وجل - قال: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}⁽²⁾؛ أي: لأن الذي يتخذ إلها غير الله أو يجعل له شريكاً، فقد ظلم نفسه؛ لأن حرمة الله خالقه المنعم المتفضل، وفي الوقت نفسه لن ينفعه بشيء من اتخذه إلهاً من دون الله سبحانه؛ لأنه هو -تبارك وتعالى- وحده المنعم الرازق⁽³⁾.

والظلم أيضاً هو التصرف في ملك الغير، كما أنه يعني مجاوزة الحد⁽⁴⁾، وقد ذكر ابن فارس "المتوفى: 395هـ" أن الظاء واللام والميم جذر يأتي لمعنيين؛ أحدهما خلاف النور؛ وهو خلاف العدل والإنصاف⁽⁵⁾؛ لأنه عبارة عن التعدي من الحق إلى الباطل، وهو الجور، وهو التصرف في ملك الغير⁽⁶⁾.

والمطالع لأدب الطفل الفلسطيني يجد أن بعض قصص الأطفال قد صورت العدو الإسرائيلي بصورة الظالم الذي تجاوز الحد أو تصرف في ملك الغير بغير حق؛ ومن ذلك ما ورد في قصة "كفر قاسم والمحكمة العادلة" للكاتبة روضة الهدهد؛ فقد تناولت الكاتبة جانباً من عدالة دولة الاحتلال؛ تقول:

-
- (1) ينظر: أبو منصور الأزهري، محمد بن أحمد (2001): تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، مادة (ظ، ل، م)، (274/14).
 - (2) سورة لقمان، الآية 13.
 - (3) ينظر: أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين (1420): البحر المحيط في التفسير، تحقيق: صدقي محمد جميل، (دط)، دار الفكر، بيروت، (333/1).
 - (4) ينظر: الزبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض (دت): تاج العروس من جواهر القاموس، (دط)، دار الهداية، مادة (ظ، ل، م)، (32/33).
 - (5) ينظر: ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (1979): معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (دط)، دار الفكر، مادة (ظ، ل، م)، (468/3).
 - (6) ينظر: الجرجاني، علي بن محمد بن علي الزين الشريف (1983): التعريفات، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 144.

«ولم يتقدم أحد لأخذ تعويض عن أبيه أو أمه أو أخته أو أخيه.. واجتمع الجميع في دار المختار وقرروا بناء نصب تذكاري في المكان الذي جرى فيه الحادث. بالمبالغ المقدمة من الحكومة ليكون شاهداً مع مر الزمن على وحشية اليهود وقسوتهم.

بعد عامين كاملين جلس عبد الكريم صرصور إلى والده يستمع له وهو يقرأ الجريدة الرسمية بصوت مرتفع:

- حكمت المحكمة على الضابط "شدمي" لقتله هو وجنوده خمسين رجلاً وامرأة من العمال العرب في كفر قاسم، بدفع غرامة مالية مقدارها قرش واحد.. كما حكمت المحكمة على الرائد "ملينكي" والجندي "دهان" بدفع نصف قرش لأنهما نفدا أو امر قائدتهما بالقتل.

- ما هذه المحاكمة يا ترى؟ وما هذا العدل؟ وأين الحق؟

- الحق لا يضيع يا بني أبداً وربك يمهل ولا يهمل.. وإن لم نأخذ بثأر قتلانا اليوم، فمن يدري من منكم سيثأر للقتلى وللأرض المحتلة وللشجر المسروق وللأرجل المقطعة وللأجنة...»⁽¹⁾.

تصوّر الكاتبة أسر الضحايا المغدورين في صورة نبيلة؛ وهي حقيقة يعلمها القاضي والداني عن شعب فلسطين الصامد المرابط؛ فلم يسع أحد لأخذ تعويض عن فقدته من أسرته؛ بيد أنهم قرروا قبول ما تعرضه عليهم الحكومة من أموال؛ كي يبنوا به نصباً تذكاريًا؛ إنهم يراهنون على ذاكرة النشء ووعيه، فأقاموا نصباً هو أشد فتكاً وشراسة من البنادق والمدافع والطائرات والدبابات؛ ذلك أنه سيكون شاهداً على الجريمة وتذكراً لا يمحوه الزمن والتقدم، وجذوة مشتعلة للجهاد يحملها جيل وراء جيل!

ثم تأتي المفارقة الصادمة التي تؤكد الظلم الفادح الذي يمارسه العدو الصهيوني الغاشم في حق الشعب الفلسطيني؛ فقد حكم قضاته على الجلادين الذين قتلوا خمسين نفساً بريئة من الرجال والنساء غير الجرحى ومن أصيبوا بعاقة أو إعاقه جراء الحادث، حكموا على الجلادين بقرش واحد غرامة يتحملها

(1) الهدهد، روضة (1984): كفر قاسم والمحاكمة العادلة، دار كندة للنشر والتوزيع، عمان، ص 23.

الضابط "شدي"؛ كم يساوي الإنسان الفلسطيني في نظر اليهود! كم يساوي! إنه لا يساوي شيئاً! إنها عدالة المحتل المغتصب القاسي.. الظالم!

وفي قصة "السجين الفنان" تصور الكاتبة روضة الهدهد جانباً آخر من الظلم؛ وهو الجانب المتمثل في الاعتداء البدني على الأسرى أو التعذيب؛ وهو جريمة لا تسقط بالتقادم في الأعراف والاتفاقيات الدولية؛ تقول:

«عندما اعتقل زهدي، قبل عدة أشهر، ظل وحيداً لا يرى أحداً إلا المحقق ومساعدته. كان المحقق ضابطاً إسرائيلياً يتحدث بلكنة غريبة، ويجلس وراء الطاولة يسأل الأسئلة.. وكان مساعدته رجلاً إسرائيلياً آخر لا يعرف إلا الضرب.

كان الأول يسأل والثاني يضرب.. منذ أقبلت السيارة العسكرية إلى منزل زهدي في تلك الليلة البعيدة، ومنذ أخذه من منزله في الليل، وهو نائم إلى جوار أخوته.. ومنذ أن دخلوا به إلى تلك الغرفة، لم يتوقف ضرب زهدي؛ باليد والعصا واللكمات والأحذية والأرجل.. ظل زهدي وحيداً لا يرى غير هذين الرجلين، ولا يعرف هل الدنيا نهار أم ليل.. لقد ظن أن الدنيا قد انتهت، وأن الناس كلهم قد ماتوا.. ظن أنه لم يبق في العالم جيران أو أهل، وكان يتمنى أن يموت هو الآخر.. فهذا الرجل لا يعرف إلا السب والضرب.. سب أباه وأمه وأخوته. سب العرب والمسلمين والمسيحيين.. ضربه على رأسه ورجليه ويديه.. ضربه بقبضته في صدره وبطنه.. سأله الأول الأسئلة نفسها ألف مرة، وضربه الآخر ألف ألف مرة أخرى.. أين أبوك؟ متى مات؟ كيف صعدت الجبال؟ أين يجتمع الأصدقاء في الجبال، ماذا يخبئون؟ من هم الأشبال وماذا يفعلون؟ أسئلة لا تنتهي وضرب لا ينتهي»⁽¹⁾.

لنا أن نتخيل شعور هذا الأسير الذي لاقى ما لاقى من عذاب أليم مهين، على الرغم من أن الأديان والاتفاقيات الدولية حثت على المعاملة الإنسانية للأسير؛ لأنه في النهاية إنسان يؤدي واجبه من وجهة نظره، وليس هناك عداً شخصي بينه وبين أحد، لقد وصل هذا الأسير إلى حالة سيئة من الكآبة يجسدها قول الكاتبة: "لقد ظن أن الدنيا قد انتهت، وأن الناس كلهم قد ماتوا.. ظن أنه لم يبق في العالم

(1) الهدهد، روضة (1996): السجين الفنان، (دط)، المكتبة الوطنية، ص 5.

جيران أو أهل، وكان يتمنى أن يموت هو الآخر؛ لقد وصل الحال بالرجل أن يتمنى الموت ليستريح من هذه الويلات التي لا تنتهي، يبدأ يومه بالعذاب المبرح والإهانة، وينتهي يومه بالعذاب المبرح والإهانة، ولنا أن نتخيل كيف يكون وقع الإهانة على النفوس الحساسة!

ثم تبين الكاتبة في ملمح ذكي يوضح أن العدو الإسرائيلي لا فرق عنده بين غير اليهود، مهما كان دينهم أو اعتقادهم، وهي مسألة أشارت إليها الكاتبة من قبل، وأبرزتها في أكثر من مناسبة في محاولة منها لتأكيد أن العرب الفلسطينيين هم جميعًا أصحاب القضية، وأن الجميع مستهدفون من الصهاينة، وأن الجميع ينكوي بالنار، وأن على الجميع المقاومة والجهاد؛ تقول: "سب العرب المسلمين والمسيحيين". وفي القصة نفسها "السجين الفنان" ما زالت الكاتبة تتناول الاعتداء الجسدي الذي يقع على المعتقلين أو الأسرى ظلماً وعدواناً؛ تقول:

«ومشيت وسطهم.. قالوا: قف.. فوقفت.. فتشوا العربية فوجدوا فيها البضاعة.. فماذا تتصور أنهم فعلوا بي؟ أخذوني حالاً إلى المعتقل وهات يا ضرب ويا تعذيب.. أيام وهم يستجوبوني عن السلاح: من أين أخذته؟ ولمن كنت سأعطيه؟ كانوا يريدون معرفة أسماء كل من أتعامل معهم. ولكن هل كنت تظنني سأعطيه اسمًا واحدًا؟ لا.. وألف لا واستمر تعذيبهم، واستمر إصراري على السكوت. ثلاثة وثلاثين يومًا كاملاً لم أفتح فمي بكلمة. «عملت نفسي أخرس» يضربون، يعذبون، وأنا لا أتكلم.. يسألون عن اسم أبي أو أمي أو أخوتي ولا أجيب.. لم أتكلم مع أحد إطلاقاً. حاولوا خداعي بإحضار أمي لزيارتي، ولكنني لم أكلمها.. جاءوا بأبي، بإخوتي ولم أتكلم.. كل الأساليب استعملوها فلم أتكلم.. حتى أنا نسيت صوتي.. تصورت في ليلة أنني أصبحت فعلاً أصم.. وكنت أريد أن أسمع صوتي لأتأكد من أنني لا زلت أتكلم، ولكنني صمدت...، ولما أحس السجانون بانتصاري عليهم، زادوا من تعذبي، فأطفأوا سجاثرهم في عيوني.. وتركوني بلا حراك؛ أياماً معدودات.. وبعدها أخذوني للمحاكمة؛ فتكلمت عن جرائمهم وعن تعذيبهم فحكم على القاضي بالسجن مدى الحياة..

في تلك الليلة لم ينم زهدي أبدًا ظلت صور حكاية السجين أحمد تدور في رأسه وأمام عينيه، صور النضال والبطولة، وصور الإجرام والنذالة.. كان يحس بالفخر والاعتزاز بأحمد، ولكنه كان يحس بالحزن العميق له.. فكيف سيقضي باقي عمره هنا في السجن وهو أعمى وضعيف؟»⁽¹⁾.

لا يكثر الأعداء أن يتركوا الأسير وقد نالته عاهة مستديمة أو عجزٌ يلزمه طوال حياته؛ فيظل يتعذب ما بقي له من العمر وكأن جلاده معه أينما ذهب وحيثما استقر؛ فينحفر في روحه الألم، وينطبع في قلبه الأسى، وتتجرع نفسه المرائر والحسرات طوال حياته، لكن هذا عند الأحوال العادية من الظلم، أما المظلوم هو الشباب العربي الفلسطيني المؤمن بالله وقضائه المجاهد في سبيل الله لرفع كلمته وحماية أمته وأرضه وعرضه، فإنه شباب صابر محتسب، لا يزيده البلاء إلا صبرًا وقوة وصمودًا، وما ترجل منهم فارس، إلا نهض فرسان سرايا وكتائب.

هناك صور من الظلم تدمي القلوب والعيون، وربما لا يستطيع العقل أن يصدقها من فرط ما فيها من مأساة يشعر القارئ والمتلقي أنه يعيش كابوسًا يحيط بروحه ويسلبه إياها في عنف دون هوادة أو رحمه، وقد استطاع غسان كنفاني بقلم بارع وتصوير فريد أن يرسم لنا في عبارة بسيطة تتاسب الأطفال بعض المآسي التي تعصر القلوب من خلال قصة "ورقة في الرملة"؛ يقول الكاتب:

«وعمي أبو عثمان ليس عمي بالضبط، ولكنه حلاق الرملة وطبيبها المتواضع، ولقد تعودنا على أن نحبه منذ وعيناه وأن نناديه بعمي احترامًا وتقديرًا، كان واقفًا يضم إلى جنبه ابنته الأخيرة، فاطمة، صغيرة سمراء تنتظر بعينيها السوداوين اللواتي إلى اليهودية السمراء.

– ابنتك؟!

وهز أبو عثمان رأسه بقلق، ولكن عينيه كانتا تلتمعان بتكهن قاتم عجيب، وببساطة شديدة رفعت اليهودية مدفعها الصغير وصوبته إلى رأس فاطمة، الصغيرة السمراء ذات العيون السوداء المتعجبة دائمًا.

(1) الهدهد، روضة: السجين الفنان، ص 17.

في تلك اللحظة، وصل أحد الحراس اليهود في تحوله أمامي، واستقلت نظره الموقف، حاجبًا عني المنظر، ولكنني سمعت صوت ثلاث طلقات متقطعة دقيقة، ثم تيسر لي أن رأى وجه أبي عثمان يتموج بأسى مريع، ونظرت إلى فاطمة، مدلى رأسها إلى الأمام، ونقاط من الدم تتلاحق هابطة خلال شعرها الأسود إلى الأرض البنية الساخنة.

وبعد هنيهة، مر أبو عثمان من جانبي، حاملاً على ساعديه الهرمين جثة فاطمة، الصغيرة السمراء: كان صامتاً جامداً ينظر أمامه بهدوء رهيب، وما لبث أن مر بي غير ناظر إليّ البتة، وراقبت ظهره المنحني وهو يسير بهدوء بين الصفين إلى أول منعطف، وعدت أنظر إلى زوجته جالسة على الأرض ورأسها بين كفيها تبكي بأنين مقطع حزين، وتوجه جندي يهودي نحوها، وأشار لها أن تقف.. ولكن العجوز لم تقف، كانت يائسة إلى آخر حدود اليأس.

هذه المرة، استطعت أن أرى بوضوح كل ما حدث، ورأيت بعيني كيف رفسها الجندي بقدمه، وكيف سقطت العجوز على ظهرها ووجهها ينزف دمًا، ثم رأيتها، بوضوح كبير، يضع فوهة بندقيته في صدرها، ويطلق رصاصة واحدة.

في اللحظة التالية، توجه الجندي ذاته نحوي، وبهدوء شديد طلب مني أن أرفع ساقي التي أنزلتها للأرض دون أن أشعر وعندما رفعت ساقي راضخاً، صفعني مرتين، ومسح ما علق على ظهر يده من دم فمي، بقميصي، وشعرت بإعياء مدمر لكنني نظرت إلى أمي، هناك بين النساء، رافعة ذراعيها في الهواء.. كانت تبكي بصمت»⁽¹⁾.

أي ظلم هذا وأي وحشية، بل أي مرارة تلك التي تغص بها الحلو! إن تلك القصة تجسد بعبرية معاناة الشعب الفلسطيني النادرة التي لا يطيقها بشر؛ ذلك الشعب الصامد البطل، الذي يتحمل آلام الفقد، وعذابات النكل؛ تلك العذابات التي تحتم عليه أن يوجع المحتل، ولو كلفه ذلك حياته التي يبذلها راضياً في سبيل الله، ونصرة للحق والعدل، ولكي تجد الأجيال القادمة وطنًا تعيش فيه بأمن وأمان كما يعيش الناس في أوطانهم.

(1) كنفاني، غسان: أطفال غسان كنفاني، ص 20-21.

إن تلك القطعان من الشياطين في زي الغازي المحتل لا تتورع عن قتل طفلة بريئة أمام والديها، يغتالون النفس البريئة التي حرم الله قتلها إلا بالحق، وعلى مرأى ومسمع من أهلها؛ إنهم يريدون قتل الإرادة والأمل والحلم، وأن تموت الأرواح في أجسادها التي ما زالت تنبض بالحياة، لكنهم لم يدركوا أن هذا الشعب لا يركع إلا لله الواحد الأحد!

وفي قصة أخرى يصور لنا غسان كنفاني مرارة الظلم الصهيوني والقمع الذي فاق التصور؛ وذلك في قصة "كان يومذاك طفلاً"؛ يقول الكاتب:

«قبل "نهارياً" بخمس دقائق، صحا الطفل، وتوهجت الشمس رجل نفسه ليغادر السيارة، وشوهدت عربية محملة بالخضار يجرها حمار أبيض صغير على طرف الطريق، وصمتت الشبابة، وقال السائق بصوت مرتفع: "خير إن شاء الله" وأطل الرجال، من فوق ظهور المقاعد إلى الطريق، وقال أحمد: "دورية" ولكن صلاح صحح: "لا، إنهم يهود" وقالت الحاجة: "يا لطيف ألطف"، ثم وقفت السيارة وأطفأ السائق محركها.

- انزلوا.

قالها جندي بلباس داكن الخضرة يحمل مدفعاً رشاشاً قصيراً وهو يطل برأسه إلى الداخل، نزل السائق أولاً، ممسكاً بيد الطفل، ثم أنزلت النساء، وجاء دور الرجال فيما بعد.

وجرى تفتيش دقيق للبشر أولاً، وفتحت الصرر البيضاء المعقودة بعناية، وأعلن الجنديان اللذان قاما بهذه المهمة لقائدهما، وكان رجلاً سمياً قصيراً يتمنطق بمسدس صغير ويحمل عصا سوداء، أن السلال والصرر خالية من السلاح..

وقال القائد القصير لجندي وقف إلى جانبه: هات الطفل، ثم أشار إلى رجاله بأطراف أصابعه إشارة دائرية فانبهر هؤلاء إلى وضع الرجال والنساء في صف واحد، على جانب الطريق، وكان مجرى من الماء يمتد وراءهم مباشرة، تم أحصى العدد وأعلن بالصهيونية: خمسة عشر.

ضرب القائد عصاه السوداء على فخذه ضربة رقيقة، وكان الطفل واقفاً إلى جانبه غير واع لأياً شيء، ثم سار بخطوات قصيرة حازمة أمام الصف المترتب، وبدأ:

- "إنها الحرب، أيها العرب.. وأنتم كما تقولون دائماً شجعان، أما نحن فمجرد فئران، تعالي أنت".

ومن وراء سيارة صغيرة برزت صبية تلبس سروالاً قصيراً، وتعلق على كتفها رشاشاً، ووقفت مباحدة ما بين ساقبيها العاريتين على الطرف الآخر من الشارع:

- "هذه حصتك اليوم".

سقطوا في الخندق، وغرقت وجوههم وأكفهم في الوحل، وقد تكوموا هناك كتلة متراسة واحدة مختلطة اختلاطاً دموياً، فيما كان خيط من الدم الأحمر يتسرب من تحت أجسادهم، ويتجمع وينساب مع جدول المياه إلى الجنوب.

التفت الرجل السمين إلى الطفل وانحنى قليلاً ممسكاً أذنه بقسوة بين إصبعيه:

- "هل رأيت؟ تذكر هذا جيداً وأنت تحكي القصة..".

ثم انتصب، وبعصاه السوداء صفع الطفل على مؤخرة ودفعه إلى الأمام:

- "هيا- هيا أركض بأقصى ما تستطيع، سوف أعد إلى العشرة ثم سأطلق عليك النار، إذا لم تكن قد ابتعدت بصورة كافية".

ولوهلة لم يصدق الطفل شيئاً، ولبت ثابتاً في الأرض كأى شجرة من الأشجار المزروعة حوله ينقل بصره، وقد سقط فكه فكشف أسنانه الناقصة، بين الخندق وبين الفتاة ذات الساقين العاريتين، وفي اللحظة التالية جاءت الضربة الأخرى بالعصا السوداء فأحسها تسليخ لحمه، ولم يكن ثمة ما يفعله غير أن يطلق ساقبيه للريح وقد اغتسل الطريق، أمام عينيه، بغشاوة من الدوار والضباب والبكاء.

ورغم ذلك، فقد وصلت إلى أذنيه أصوات ضحكاتهم الصاخبة فوقف، لم يدر كيف حدث ذلك ولماذا، ولكنه وقف، ووضع كفيه في جيبي سرواله وسار بخطوات ثابتة هادئة وسط الطريق دون أن يلتفت إلى الوراء.

وبينه وبين نفسه فقط أخذ يعد عدًا بطيئاً: واحد، اثنين، ثلاثة... بيروت - أيار 1969م⁽¹⁾.

في هذه القصة نجد ملمحاً جديداً يوضح طبيعة الصهاينة وأن المستوطنين هم عبارة عن كتائب من جيش الدفاع بلباس مدني ولا فرق بين صغيرهم وكبيرهم في الإجرام والقسوة والظلم؛ إذ يشير الضابط إلى طفلة من المستوطنين تحمل مدفعاً رشاشاً؛ كي تصفي هؤلاء العرب العزل الآمنين، ويدوي صوت الطلقات يعلن اغتيال البراءة واغتيال كل المعاني والقيم الإنسانية الرفيعة السامية في مشهد يفطر الفؤاد ويخلع عن اليهود كل أقنعة أخفوا وراءها حقيقتهم القبيحة المفزعة!

(1) كنفاني، غسان: أطفال غسان كنفاني، ص 54-57.

المبحث الخامس: الآخر الخائن

الخيانة نقيض الأمانة، والخائن عكس الأمين، وهي تعني نقض العهد والميثاق والانحلال من الوعود والالتزام والاشتراطات التي اتفق أو تصالح عليها طرفان؛ سواء أكانت عهود المحبة والمودة أم عهود الصلح والهدنة أم ميثاق وعرى الزوجية أو الصداقة، وبشكل عام هي نقض ما بين الناس من اتفاقات قلبية أو مكتوبة⁽¹⁾.

ولا شك أن الذين يحاربون من أجل الأطماع المادية الاستعمارية دون رسالة أو قيم نبيلة أنهم يخونون عندما تمنح لهم الفرصة؛ كيف لا وهم يقاتلون كأنهم مرتزقة؛ {لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ}.⁽²⁾

وفي قصة "لغز الأطفال والبنديقية في مخيم الدهيشة" تتناول الكاتبة روضة الهدد هذه المسألة؛ كيما تبين أن هؤلاء الصهاينة مخترقون من الداخل، وقد أكد الواقع نفسه ذلك، وصار المجاهدون على اختلاف فصائلهم يقاتلون العدو الإسرائيلي بسلاحه؛ تقول الكاتبة:

هذا هو المعهد الديني الذي حدثتكم عنه.. وهذا هو الحارس الذي سنأخذ منه البنديقية.. تلك التي يحملها على ما اعتقد.

نظر سعيد وعيسى إلى البنديقية في يد الحارس وهوى قلباهما بين ضلوعهما، فهل حقًا ستكون من نصبيهما؟!

كان الحارس شابًا نحيلًا، تبدو على وجهه صفرة غريبة تحاكي صفرة الأموات، ويمشي متباطئًا كأن به مرضًا، وكان يلبس الملابس الرسمية.. الكاكي المرقط ويضع زنارًا عريضًا على خصره، ويصوب

(1) ينظر: الفيومي، أحمد بن محمد بن علي (دت): المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، (دط)، المكتبة العلمية، بيروت، مادة (خ، و، ن)، (184/1).

(2) سورة الحشر، الآية 14.

بندقية تجاه المارة ويده على الزناد وكأنه يقوم بدور تمثيلي في فيلم، ينظر إلى ساعته كل لحظة وكأنه ينتظر أحداً..

طلب الأستاذ خالد ثلاثة فناجين من القهوة "الأمريكية" باللغة الصهيونية فهو يتقنها كأحد أبنائها!!

بينما ظل رفيقه ساكنين لا ينبسان ببنت شفه.. وكان الأستاذ خالد يتكلم الصهيونية كلما حضر النادل -صبي القهوة- حتى لا يشك بأمرهم أحد.

بعد عشر دقائق تقريباً أوقف موعد تبديل الحرس على مبنى المعهد، وحضر حارس إسرائيلي آخر فانسحب الأول وأقبل على المقهى، واتجه فوراً إلى طاولة الشباب الثلاثة!!

بدون كلام أو سلام جلس الحارس الإسرائيلي على الطاولة وطلب فنجاناً من القهوة الأمريكية! قال سعيد في نفسه:

هذا أفضل.. لا سلام ولا كلام ولا تحيات.. والله لولا أنني سأحصل منه على البندقية لما رضيت أن أقعد يوماً مع سارق أرضي وقاتل شعبي على طاولة واحدة أشرب معه فنجاناً من القهوة!!

وقطع الصمت صوت الأستاذ خالد يتحدث بالصهيونية:

- متى الاستلام والتسليم؟؟ قال الحارس:

- الاستلام أولاً.. أخذ ألف دولار ثم أسلمكم البندقية.

- ونوعها؟!

- حسب ما تريد.. عندي بنادق إسرائيلية الصنع "عوزي أو جليل" أو أمريكية الصنع M-16 فماذا تريدون؟

والنفت الأستاذ خالد إلى رفيقه يترجم لهما ويستطلع رأيهما قال سعيد:

- البندقية الأمريكية.. نعم فقد يكون أفضل لي نفسياً أن أحمل سلاحاً أمريكي الصنع من أن أحمل سلاحاً إسرائيلي الصنع، أنا لا أتحمّل التعامل معهم بأي من صناعاتهم أو انتاجهم فكيف بسلاحهم؟!

وظل لغز البندقية "M16" محيرًا للمخابرات والشرطة العسكرية الإسرائيلية بل واتسع نطاق اللغز ليشمل مناطق أخرى في فلسطين، في غزة، في الخليل، في حيفا، في عكا.. مخازن الأسلحة الإسرائيلية بدأت تفقد كل مدة عددًا من البنادق والذخيرة.. ضباط في الجيش الإسرائيلي بدأوا يستجوبون لمعرفة أين وكيف تضيع بنادقهم.. بينما كان بعض الشباب يزورون أقاربهم الأموات في المقابر بين الحين والحين⁽¹⁾.

كما سبق للكاتبة أن وصفت مناحم بيجن بالشحوب كأنه مريض، فهي الآن تصف ذلك الجندي الإسرائيلي الخائن بالصفات نفسها؛ تأكيدًا أن هؤلاء مدمنون على الخمر والملذات الحسية التي تستهلك أجسادهم وارواحهم وأنهم أسرفوا على أنفسهم كثيرًا، ولم يبقَ إلا أن يضع المجاهدون الرصاص في رؤوسهم.

ثم وصفت الكاتبة ملابس الخائن؛ كي تؤكد أنه من جنود جيش الدفاع الإسرائيلي؛ ما يعكس أن هؤلاء يقاتلون دون عقيدة قتالية سليمة؛ فربما يظن القارئ دون تصوير ملابسه أنه من المستوطنين، أما الجيش فلا يمكن أن يقدم جنوده على تلك الأفعال المخزية.

ولم يفت الكاتبة أن تبين أن هناك حواجز نفسية بين العرب والصهاينة لا يمكن اختراقها؛ حتى إن المعلم ومن معه لم يستطيعوا أن يتبادلوا مع الخائن أي عبارات للتحية أو نحو ذلك ولو من وراء قلوبهم. ولا يفوت الكاتبة أن تشير إلى الرعاية الأمريكية لحليفها الصهيوني؛ فيعرض الحارس الخائن على المجاهدين سلاحًا إسرائيليًا أو أمريكيًا، ولهم أن يختاروا؛ وهذه إشارة درامية فنية عالية التوظيف إلى دور أمريكا في الدعم العسكري للعدو الصهيوني.

ثم تبين الكاتبة أن مسألة الخيانة لم تكن حالة فردية، بل هي ظاهرة وصفة متأصلة بين جنود جيش الدفاع؛ وهو ما سمح للفلسطينيين بتكوين الكتائب المجاهدة التي تجاوزت مرحلة الحجر إلى مرحلة الرصاصة.

(1) الهدد، روضة: لغز الأطفال والبندقية في مخيم الدهيشة، ص 21، 30.

ثم تتناول الكاتبة في قصة "الزمن الحزين في دير ياسين" جانبًا آخر من الخيانة، يتمثل في خيانة القيم الإنسانية والأعراف والاتفاقيات الدولية؛ وذلك من خلال مباغثة الأمنين العزل والضعفاء من الشيوخ والنساء والأطفال في وقت غفلتهم ومستراحهم، وهم غير مستعدين لا لهجوم ولا لدفاع؛ تقول:

«سوف تكون هذه القرية عبرة لمن اعتبر من العرب، لن نرحم شيخًا ولا امرأة ولا طفلًا سنقضي عليهم ونزرع في قلوب العرب الرعب. ولن يتمكنوا من مقاومتنا، أتدري لماذا؟ لأننا أقمنا معهم عهدًا وميثاقًا ألا نهاجمهم.. تصور.. عهدًا وميثاقًا..»

ويضحك بيغن.. ويقول ديفيد:

سننتظر حتى ينام الجميع في القرية يا مناحيم، فنحن، لا نريد أن نجازف بجنودنا، ولا نريد أن نخسر المعركة.. تذكر ذلك جيدًا يا مناحيم، لا نريد الدخول بمعركة متكافئة مع العرب»⁽¹⁾.

بتصوير درامي ممتاز تصور الكاتبة عمق الخيانة من خلال تقنية الحوار بين اثنين من الصهاينة الذين يفتخرون بخيانتهم للعهد والميثاق الذي بينهم وبين العرب، بل يفتخرون بقتل المستضعفين الذين يتخرج من الإساءة إليهم كل شريف، لكنه الجيش الصهيوني الذي لا يعرف إلا الخسة والنذالة التي تلقاها جنوده منذ نعومة أظفارهم في البيت والمدرسة والمعبد!

ثم تصف لنا الكاتبة من خلال تقنية الحوار أيضًا عن طبيعة الجبن المتأصلة الراسخة في نفوس اليهود؛ حتى إنهم يشبهون الضبع الذي على الرغم من قوته وفكه الرهيب، فإنه لا يصطاد ولا يهاجم حيوانًا حيًا، بل يعيش على الجيف فالجنود الصهاينة ينتظرون أن ينام أهل القرية العزل بشيوخهم وأطفالهم ونسائهم؛ لأن أي حركة بين هؤلاء يعتبرها الجيش الصهيوني الذي لا يُقهر قتالًا متكافئًا!

إن الاعتداء على العزل الأمنين واستلاب أرواحهم البريئة يمثل خيانة كبرى وجريمة حرب لا يمكن أن يمحوها الزمن مهما طالّت المدة وتعاقبت السنين وكثرت الدهور؛ وهذا ما نجده حاضرًا في قصة "نسمات باردة"؛ تقول الكاتبة بثينة حمدان:

(1) الهدهد، روضة: الزمن الحزين في دير ياسين، ص 19.

«فهمت من حديث وهدان ووصفه أن الصهاينة شنوا أكثر من هجوم على القرية، بما فيها الهجومين الكبيرين، وقد كانت النساء خلال كل هجوم يخرجن مع الأطفال للنوم في الكروم.

وفي المحصلة فإن آخر مشهد لقريتي قبل أن يستولي عليها اليهود، كان القمح مدروسا، الذرة والسمسم في انتظار القطاف، وترك أهالي القرية كل شيء في بيوتهم من طعام ومواش وطيور وأمتعة.. " تركنا في البيت عشر نعجات ومائتي طير من إوز ودجاج... " قال وهدان.

قال لي العبد وهدان إن اليهود حين وصلوا مدينة اللد، احتجزوا أكثر من ثلاثمائة وخمسين شابا في جامعها وأطلقوا النار عليهم دفعة واحدة، ويقول: وحين فتح الجامع مرة أخرى في عام 1967 " كانت دماء الشباب جافة على أرض الجامع ".

وعادت بأي جرأة عدت يا عمتي، أية جرأة جاءتك بعد ساعات الركض والاختباء والخوف؟ عادت لتقف على قريتها التي صارت أطلالا بعد غياب ساعات فقط، لتراها مهترئة من الرصاص، بيوتها خرابة لا طير طائر ولا وحش ساير. البيادر والبيوت مخربات، والشوارع لا أحد فيها، وقالت لي أمي: لا تفتحي الباب يا آمنة، طيحي عن ظهر الطابون ".

عرفت من أنت يا عمتي.. أنت أكثر جرأة من ليلي الحمراء أو ليلي والذئب. لقد كانت خائفة من الذئب وكنت خائفة من الذئاب، من الرصاص والطائرة الحربية، كانت تحمل الطعام لجدها وكنت تحضرين الطعام لأهلك وكل الجياع، سرتما في الليل، وحين وصلت يا ليلي كان الذئب قد أكل جدتك، ثم جاء من قتل الذئب وأعاد لك جدتك، نحن في بطن الذئب يا عمتي. نحن في بطن الذئب

المفتاح ظل معكم؟

آه قفلنا الأبواب وأخذنا المفاتيح.

كيف تكون الحياة، حين تنتقل من بيت له جدران ونوافذ وباب، إلى لا بيت، إلى فسحة يأخذك الهواء فيها إلى اليمين وإلى الشمال، دون أن تشعر بمتعة التنفس؟ أنت لست بدويا معتادا على الرحيل، لكن عليك أن تعتاد وتقاوم.

كل مخيم الجزازون كان خياما؟

نعم كان عبارة عن مساحة صغيرة تكبر يوماً بعد يوم، والخيام تزداد، العائلة الصغيرة تحصل على خيمة صغيرة والعائلة الكبيرة تحصل على خيمة كبيرة، وكلتا الخيمتين لا تتسع لحياة هؤلاء الناس، فهي هو جدي بعد أن كان يستيقظ ويرى الفضاء، والأفق الفسيح، يصحو وقماش الخمية في وجهه، ثم يصطف ليل نهار للحصول على مؤونة وكالة الغوث، حتى الماء يحتاج إلى صف طويل للحصول على دلو واحد منه فقط " بقينا نتشف رياقنا ليلة ويوم تتجيب المية.

" طيب لما سكنتوا بالجزلون كيف كانوا يعاملوا اللاجئين؟ زي ما صار بمسلسل التغريبة عن جد كانوا يعاملوكم غير؟

" بقوا يقولوا للحمار إخص عليك وجهك زي وجه اللاجئ.

آه والله، مالنا ذقنا الأمرين، الله يقطع الحكي.

" أخ يا تيتا عن جد إنتو لازم تروحوا على الجنة»⁽¹⁾.

إننا أمام مشهد مروع لمجموعة من 350 شاباً فلسطينياً من طلاب الجامعة يتم اقتيادهم واحتجازهم في مسجد، ثم تصفيتهم جسدياً جميعاً؛ إنها جريمة شنعاء تتم عن صفة الخيانة والغدر المتأصلة في النفوس الصهيونية اللئيمة التي تبتغي استئصال العرب من أرضهم وإحلال اليهود محلهم دون وجه حق على غرار ما فعل الأوروبيون من الإسبان والبرتغال في الهنود الحمر المسالمين.

واللافت للنظر أن هذه المذبحة المروعة ارتكبتها اليهود في أحد دور العبادة؛ وهو جامع مدينة اللد؛ ما يوضح أن هؤلاء القطعان من المجرمين لا يراعون أي حرمة ولا يحترمون أي مقدس في أي دين؛ وهذا ما وقع كثيراً في اعتداءاتهم على الجوامع والمسجد الأقصى دون رحمة أو هوادة أو إبداء أي تردد أو احترام!

(1) حمدان، بشينة (2008): نسيمات باردة، (دط)، مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، ص 21-47.

ثم نستطيع بسهولة أن نلمح القهر والحزن والألم والحسرات المتوالية التي يتجرعها اللاجئين في العراء دون جدران أو خيام؛ إنه إحساس الضياع والتهيه بعد أن أبعدتهم يد الخيانة والغدر عن مساكنهم وأراضهم.

وفي قصة أخرى نرى الغدر والخيانة يطلان بوجيهما القبيحين؛ وهي قصة "شيء من نور" لغيد عبد العزيز؛ تقول الكاتبة:

«عندما اتذكر ذلك اليوم أشعر بألم كبير، ولو يعلم الإنسان ما يخبئ له القدر، لكي يستعد لذلك، لما كنا الآن على هذه الحال! لم أعرف يومها على من أبكي تحديداً، على والدي! خالي! أم نفسي! لا أتذكر شيئاً من تلك الحادثة المروعة سوى وجه خالي العذب ذي الثمانية والعشرين ربيعاً، وهو يتناول الشاي بالنعناع مع والدي في حديقة المنزل، وأنا ألعب الحجلة وحيدة كالبلهاء أمامهما، وأقفز متباهية بقبعتي الجديدة. رأيتهما ينتفضان فجأة، يصرخان بألفاظ غير مفهومة وأنا أقف محملقة لا أدري ما الذي يجري حولي، ولم أنتبه سوى لأزيز طائرة مروحية، يليه صوت انفجار عنيف مزق المكان ومن فيه.

أفقت بعدها بساعات وأيام، لست أدري تحديداً، لأجد نفسي ملقاة على سرير حديدي صلب، تقوح منه رائحة المخدر والدماء، وظلال بيضاء وخضراء عديدة تسير أمامي مسرعة! نحيب أُمي المختلط بأنينها، كان يخرق قلبي وأنا أرمقها بفستانها الأزرق المزركش وشعرها المنكوش المغربي.

حتى ذلك الحين، لم أكن أعرف بعد أنني أصبت بندبة ظننتها خدشاً أو حرقاً بسيطاً سيولي عما قريب، ولم أكن أعلم بأني فقدت أبي وخالي»⁽¹⁾.

هنا تتجلى بوضوح وضاعة وخسة العدو الصهيوني الخائن الغادر الذي يقصف الآمنين العزل في بيوتهم بالطيران الحربي؛ فيحول بيوتهم إلى شظايا، وأجسادهم إلى أشلاء متناثرة هنا وهناك، ومن يبقى حياً منهم، يعاني عاهات أو ندبات في الجسد والروح لا تتدمل ولا تزول على مر الزمان؛ إنها مأساة حقيقة؛ مأساة شعب أعزل كتبت عليه يد القدر أن يواجه وحيداً أعزل تلك العصابات الخائنة الغاشمة.

(1) الهسي، غيد عبد العزيز (2009): شيء من نور، مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، فلسطين، ص 12-13.

المبحث السادس: الآخر القاسي

القسوة مع الماديات تعني الصلابة؛ فهي ضد اللينة، ومع المعنويات تعني الغلظة؛ فهي ضد الرحمة⁽¹⁾، يقول المولى -عز وجل- في محكم التنزيل: {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً}⁽²⁾؛ أي: خلت من الإذعان والإنابة لآيات الله⁽³⁾.

وقد تناولت قصص الطفل الفلسطيني صفة القسوة في العدو الصهيوني؛ وهي صفة طبيعة في كل محتل مغتصب لص خائن؛ ومن تلك القصص قصة "لغز الأطفال والبندقية في مخيم الدهيشة" للكاتبة روضة الهدهد؛ تقول:

«وتدافع الطلاب للنزول.. كانوا يفيضون حماسة وسعادة وبراءة.. ولذلك كانوا يتصايحون ويتدافعون.. كل يريد النزول أولاً.. وما أن اندفعت أول مجموعة خارج الحافلة حتى صرخ الجندي الإسرائيلي بهم قائلاً:

- أنتم.. أيها الأطفال الوقحون.. ألا تتعلمون النظام ابداً؟؟

انتظموا في الصف.. هيا.. التزموا الصمت.. أولاد عرب وقحين..!!

ذهل الطلاب وحاولوا الانتظام والسكوت.. ولكن مجموعة أخرى من داخل الحافلة كانت لا تزال تتدافع للخروج.

هل يعصي هؤلاء الطلبة أمري؟؟ يغيطونني؟! يضايقونني؟! ودون تردد أخذ الجندي يطلق الرصاص على أرجل التلاميذ وفي الهواء..

غابت الابتسامة وعم الخوف والرهبة نفوس الطلاب.. وارتمت سناء عبد الكريم على الأرض وتدفق الدم غزيراً من رجلها.

(1) ينظر: الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد (1987): الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط4، دار العلم للملايين، بيروت، مادة (ق، س، و)، (2462/6).

(2) سورة البقرة، الآية 74.

(3) ينظر: ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام (1422): المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، (1/166).

في تلك الأثناء كان سعيد عبد الكريم لا يزال في مكانه في الحافلة الثانية.. وقربه الأستاذ خالد والطلاب، يراقبون ما يجري.. ولما رأى سعيد اخته سناء وقد ارتمت أرضاً أخذ يصيح:

- أختي.. أختي سناء..

وفي ثوان حمل سعيد أخته سناء وعاد إلى مقعده، ودمها يسيل على ملابسه وملابسها...⁽¹⁾.

استندت الكاتبة في هذا المشهد المؤلم إلى المفارقة؛ المفارقة بين الجنود المدججين بالسلاح الذين يتحدثون ويتصرفون من منطلق القوة والتفوق، وبين الأطفال الذين يمثلون الضعف والبراءة والمسالمة، ثم تحدث الصدمة التي يتلقاها القارئ بأمر الضابط جنوده أن يفتحوا النار على هؤلاء الأطفال دون أي مسوغ -على افتراض أنه ربما يوجد مسوغ لذلك- ويتساقط الأطفال بين قتل وجريح في مشهد دموي مؤلم يعبر بوضوح عن مدى قسوة هذا العدو الصهيوني.

في الحقيقة المشهد يخلو من الحبكة الدرامية، ولو كانت الكاتبة جعلت إصابة الأطفال بين قتل وجريح حدثت بشكل عارض في أثناء مهاجمة الجنود لبعض المجاهدين أو في أثناء تبادل إطلاق النار بين الصهاينة والعرب ربما كان المشهد مقبولا من الناحية المنطقية والفنية الدرامية، بيد أن مسألة قتل الأبرياء والعزل والمستضعفين من الأمور الثابتة المتعارف عليها في تاريخ الاعتداءات الإسرائيلية، ومن هنا فإن ذلك يجعل الأمور في سياقها الطبيعي عند النظرة الكلية للأحداث والتاريخ الإجرامي لدولة الاحتلال.

تتناول بعض القصص جانباً آخر من جوانب القسوة الصهيونية؛ وهو جانب لا يقل إجرماً وسوداوية عن سابقه؛ إنه مشهد الإذلال والإمعان في انتهاك آدمية الطرف الضعيف وهدر كرامته، وترك جرح دام في روحه لا يندمل، وقد ورد في قصة "لغز الأطفال والبندقية في مخيم الدهيشة" للكاتبة روضة الهدهد هذا الجانب؛ تقول الكاتبة:

(1) الهدهد، روضة (1986): لغز الأطفال والبندقية في مخيم الدهيشة، (دط)، دار كندة للنشر والتوزيع، عمان، ص

«اندفع عيسى إلى الأمام بلا تردد ولا تفكير.. وهجم على الشرطي يأخذ منه بندقيته.. ولما رآه صديقه سعيد وحيداً بين أيدي الشرطة اندفع هو الآخر لنجدته.. وفي خلال ثوان كان ما لا يقل عن العشرين شاباً من شباب المخيم مقيدتين بالسلاسل ويساقون إلى السجن..!!

هناك في السجن وبعد أيام، التقى الأستاذ خالد مع الطالبين سعيد عبد الكريم وعيسى عبد ربه.. كانت آلامهم واحدة. فلقد أشبعوا ضرباً بالعصى والهراوات الثقيلة.. وكانت ذكرياتهم واحدة مليئة بالآسى والأحزان..

قال الأستاذ خالد:

- هذه ليست أول مرة أتعرض فيها لهؤلاء الشياطين؛ أتذكرون عندما دخلوا مدرستنا، قبل ثلاثة أشهر؟؟ يومها أوقفونا جميعاً، الأساتذة والمدير، وطلبوا منا المشي على أيدينا وأرجلنا والنباح كالكلاب.. وأين؟؟ في الساحة، وأمام من؟؟ أمام الطلاب كلهم..

كاد عيسى وسعيد أن تغلت من صدرهما ضحكة عالية وهما يتذكران منظر المدير والأساتذة يدورون خلف بعضهم البعض وينبجون الكلاب.. ولكنهما كتما الضحكة احتراماً للأستاذ..

وأكمل الأستاذ حديثه:

وازداد الأمر صعوبة عندما أعطونا أغصاناً رفيعة من شجر التوت وطلبوا منا ضرب بعضها البعض.. تصوروا.. بالتناوب كل معلم يضرب زميله ومديره بالعنف الذي يرضي الجنود بينما هم يضحكون ويقهقهون لقهرنا وإذلالنا..

قال سعيد:

- بسيطة يا أستاذ.. الضرب والاهانة غير مهم يا أستاذ.. أم كنا نحسب أنهم سيحتلون بلادنا ويحبوننا ويدلوننا.. لكن المشكلة بالنسبة لي كانت أبي.. أبي الذي لم يتدخل يوماً في السياسة.. أبي الذي كان كل همه تأمين لقمة العيش لأمي ولأسرتنا. لن أنسى منظره وهو يبكي كالنساء عندما اقتحم المستوطنون

محطة الوقود التي كان يملكها، وأحرقوها عن بكرة أبيها، أبي لم يستطع يومها أن يتحرك عن كرسيه.. وهو لا يزال إلى اليوم مشلولاً لا يتحرك من هول المصيبة...⁽¹⁾.

إن مشهد المعلمين ومدير المدرسة وقد أجبرهم جنود الاحتلال على اتخاذ هيئة الحيوانات والنباح كالكلاب أمام طلابهم من أقسى المشاهد التي لم تتخيلها السينما نفسها؛ إنه مشهد يوضح أن العدو قاسٍ ومفطور على القسوة، ولا يكتفي بهلاك الجسد أو تعذيبه أو إصابته، بل يريد أيضاً أن يغتال الروح ويدمرها، ويضع الفلسطينيين في بئر سحيقة من الخوف والانكسار لا يستطيعون أن يخرجوا منها أبداً! وهذا جانب آخر من القسوة تصوره قصة "السجين الفنان" للكاتبة روضة الهدهد التي رسمت ببراعة فنية درامية معاناة المعتقلين والأسرى في سجون الاحتلال تقول الكاتبة:

«قال راسم:

- سمعت أنهم يأخذون بعض السجناء إلى المستشفى، لوضع أنابيب التغذية في أنوفهم.. تصوروا.. يريدون أن يرغمونا على الأكل حتى لو كان عن طريق الأنف.. والله لو حاولوا ذلك معي، فلن أسكت ولن أَرْضَى.. سأقاومهم مهما كلف الأمر..

ولم يكد راسم ينهى جملته، حتى دخل ثلاثة من السجنائين، أمسكوا به من يديه ورجليه وحملوه خارج الغرفة.. ووجد راسم نفسه في المستشفى مع عشرات من رفاقه.. واتفق الرجال على المقاومة.. أمسك به السجنانون، وبدأت الممرضة تضع الأنبوب في أنفه.. قاوم.. حرك رأسه إلى اليمين وإلى الشمال.. إلى أسفل وإلى أعلى.. أدار جسده، رفس بقدميه، فانحرف الأنبوب ودخل في رثتيه.. ودخل الماء والملح إلى الرثتين بدل المعدة.. فكان الالتهاب.. ثم كان الموت!!

انفجر السجناء غاضبين، وهرع رجال الهلال الأحمر والصليب الأحمر الدولي يهددون، ويرسلون رسائلهم إلى كل بقاع الدنيا: «إسرائيل دولة تغذب سجناءها وتقتلهم»، وأخرجت إسرائيل أمام العالم،

(1) الهدهد، روضة: لغز الأطفال والبندقية في مخيم الدهيشة، ص 6.

فهي تحاول أن تبدو في نظرهم واحة الديمقراطية والعدالة، فكيف تقتل سجناءها الذين وضع العالم قوانينه لحمايتهم؟»⁽¹⁾.

هنا تبدو إسرائيل وقد انفضح أمرها وانكشفت مخازيها بعد تسرب خبر الإضراب عن الطعام إلى الإعلام تبدو مرتبكة تحاول جاهدة أن توارى سواتها؛ فتضطر إلى إطعام المساجين عنوة عبر أنابيب يمر بها الطعام المخفوق عبر أنبوب يدخل من فتحة الأنف حتى يصل إلى المعدة؛ وهنا لنا أن نتخيل حجم العذاب الذي يكابده السجن في أثناء مرور هذا الأنبوب؛ إنه تستر على جريمة بجريمة أخرى تضاف إلى سجل جرائم الاحتلال الحافل بكل المخازي.

ومن الطبيعي في ظل قسوة المحتل أن نرى أدبًا يجسد الاغتراب ويصور أحلام اليقظة بعيدًا عن تلك القسوة المفرطة التي يمارسها الجلادون الغزاة؛ فنرى عوالم سحرية خيالية ليس لها وجود إلا في ضمائر وأحلام الأطفال البريئة؛ وهو ما تناولته قصة "إيمان والطائرة الورقية" للكاتبة ديمة سحويل؛ تقول الكاتبة: «كانت السماء الزرقاء تزدان بالطائرات الورقية على أشكالها المختلفة، كانت إيمان تنتظر إلى السماء وهي في طريق عودتها من المدرسة تحقق بالطائرات الورقية بكل شغف.

إيمان لم تكن تملك طائرة ورقية كبقية الأولاد....

ولم تتمن يوما أن تملكها....

كانت تحلم دائما ان تتعلق بإحدى الطائرات الورقية لتطير بها إلى السماء كالفرشات وتنتقل بين البلدان دون قيود أو حدود أو حواجز بكل حرية.

ظلت إيمان تراقب الطائرات الورقية الجميلة وهي تحوم حول الشمس.....

لفت نظرها طائرة ملونة بألوان قوس قزح ظلت تراقبها أينما حطت.

ابتعدت الطائرة قليلا وارتفعت في السماء الواسعة.

(1) الهدد، روضة: السجناء الفنان، ص 22.

ظلت إيمان تلحق بها من مكان لآخر.

فتعثرت بحجر وسقطت على الأرض وغابت الطائرة عن نظرها واختفت

نهضت إيمان عن الأرض بسرعة وبدأت تنفض مربلة المدرسة الزرقاء من الغبار الذي علق بها.

واستعدت للحاق بالطائرة التي غابت عنها لعلها تجدها بين جموع الطائرات المعلقة بالسماء.

إلا أن قدمها علق بشيء أعاق حركتها، أرادت أن تزيله ولكنها لم تستطع.

كان خيطا شفافا لإحدى الطائرات الورقية التي سقطت على الأرض ولم يفلح الصبية بالتحكم بها.

بدا الخيط فجأة يلتف حول ساقها شيئا فشيئا.....

وصارت إيمان تحلق بالسماء على متن طائرة الورق الملونة

سألت الطائرة الورقية إيمان: أين هي وجهتك أيتها الصغيرة الجميلة؟

تعجبت إيمان من مصدر الصوت ولكنها أدركت أن الطائرة الورقية هي التي تحدثها.

ردت على الفور: أريد أن تأخذيني بعيدا عن بلاد اليأس والحرب...

سمعت عن بلاد الفرح والمرح هل بإمكانك أن توصليني إليها؟ أنها مليئة بالورود والفرشات والدمى والحلويات.

أريد أن ابتعد عن بلاد الحواجز والدمار..

استجابت الطائرة الورقية للصغيرة إيمان وحلقت بها إلى بلاد الفرح والمرح

وصلت إيمان لتلك البلاد فشاهدت بلادا مرصوفة بالورود الملونة، تتطاير الفرشات بسمائها والأطفال يلعبون ويمرحون بالحدائق.

شاهدت النسوة في بلاد الفرح والمرح ينسجن من خيوط الشمس الذهبية ثيابا لأولادهم وكان الرجال يجمعون الأصداغ الملونة من شاطئ البحر بينون بها بيوتهم.

وكان أريج البرتقال ينتشر في أجواء البلاد.

صارت إيمان تبكي.....

سألتها الطائرة الورقية: ولماذا تبكين الآن يا صغيرتي؟ ألم تعجبك بلاد الفرح والمرح؟

ردت إيمان: لقد تذكرت أهلي وأصدقائي الذين يعانون من القهر والتعب قارنت بين الفراشات التي تتطاير في سماء بلاد الفرح والمرح وبين الطائرات الحربية التي تحلق في سماء بلادنا، وبين رائحة البارود في بلادنا وأريج البرتقال في بلادهم وبين الأطفال الذين يلهون ليل نهار وبين أطفال بلادنا... قارنت وقارنت وتذكرت وبكيت، اعذريني أيتها الطائرة الورقية فكم تمنيت أن يحظى أهلي وإخوتي وجيراني وأصدقائي بما حظيت به من رؤية بلاد الفرح والمرح...

أخبرتها الطائرة الورقية بأنها على الفور سترجعها لبلادها لتتنقل معها من تشاء من أهلها لتلك البلاد الجميلة.

فرحت إيمان كثيرا لأن إخوتها سيلعبون بحدائق واسعة وستغزل أمها من خيوط الشمس ثيابا لهم وسيجمع والدها الأصداف الملونة من شاطئ البحر ليبنى لهم منزلا جميلا وسيجتمع الجيران ويتبادلون أحلى الحكايات أمام شاطئ البحر الأزرق.

لحظات ولحظات جميلة عاشتها إيمان وهي على ظهر الطائرة الورقية تتخيل.

وصلت الطائرة الورقية إلى أجواء بلاد اليأس والحرب واقتربت من منزل إيمان.

خافت الطائرة من إنزال إيمان الصغيرة على الأرض لأنها لمحت بالقرب من بوابة منزلها معسكرا للجيش.

ابتسمت إيمان وقالت للطائرة لا تخافي لقد تعودنا على وجودهم...

هبطت الطائرة الورقية وحطت على الأرض بعد أن طمأنتها إيمان

نزلت إيمان على الأرض وطلبت من طيارة الورق أن تنتظرها حتى تحضر مع أهلها وجيرانها.

وغابت إيمان.....ولم ترجع

وظلت الطائرة الورقية تنتظر.....ولم تقلع»⁽¹⁾.

إننا إزاء رحلة خرافية تستلب المتعة والأمل والبسمة من الزمان؛ هرباً من الواقع الأليم الذي ملأه الاحتلال الصهيوني قسوة وباروداً وقتلاً ودماراً، ففي كل شبر على أرض فلسطين الطيبة معركة أو مجزرة، وفي كل لحظة من لحظاتها تدوي الطلقات أو صفارات الإنذار أو هدير الطائرات الحربية؛ فنجد إيمان التي تمثل الأمل والحلم والجيل القادم، قد تعبت روحها المعذبة من هذا الواقع السقيم، وصارت تعيش في أحلام اليقظة؛ تلك الأحلام التي صارت ملاذها وملجأها لاستراحة قصيرة من وحشية الغازي الذي لا يرحم صغيراً ولا كبيراً.

ومن مظاهر وصور القسوة المفرطة التي ربما لا يصدقها العقل ما تناوله الكاتب غسان كنفاني في مجموعته القصصية "أطفال غسان كنفاني"؛ ومن ذلك ما ورد في قصة "ورقة من الرملة"، يقول الكاتب: «أوقفونا صفيين على طرفي الشارع الذي يصل الرملة بالقدس، وطلبوا أن نرفع أيدينا متصالبة في الهواء، وعندما لاحظ أحد الجنود اليهود أن أمي تحرص على وضعي أمامها كي أنقي بظلمتها شمس تموز، سحبني من يدي بعنف شديد، وطلب مني أن أقف على ساق واحدة، وأن أصالب ذراعي فوق رأسي في منتصف الشارع التراب»⁽²⁾.

هنا نلاحظ أن القسوة مزدوجة تصيب طرفين في آن واحد؛ فالجندي يعذب طفلاً على مرأى ومسمع من أمه؛ فينال الطفل العذاب الجسدي الذي يضنيه ويجعله يعاني ما شاءت له المعاناة، في حين

(1) سحويل، ديمة: إيمان والطائرة الورقية، بتاريخ 2011/3/16م، تاريخ الاطلاع 2022/6/25م، متوافر على مدونة حي بن يقظان على الرابط الآتي:

http://haybinyakzhan.blogspot.com/2011/03/blog-post_16.html

(2) كنفاني، غسان: أطفال غسان كنفاني والقنديل الصغير، ص 19.

تتعذب أمه روحياً وهي ترى أمامها ما يدمي قلبها وروحها من خلال تعذيب ابنها الصغير بوحشية وإذلال.

خلاصة الفصل الأول

تناول هذا الفصل صورة اليهودي في أدب الطفل الفلسطيني، وقد لاحظت من خلال ما وصلت إليه من هذا النوع من الأدب الموجه للنشء في فلسطين أن الأدباء قد رسموا لليهودي صورة من خلال عدة صفات أساسية؛ هي:

المحتل: الذي يحاول جاهداً استئصال العرب، وإحلال قطعان المستوطنين محلهم بعد أن جلبهم من شتى بقاع الأرض.

اللس: الذي يطمع في كل ما يمتلكه العرب من مقتنيات وحقول ومزارع وبيوت، وكل ما تقع عليه عينه في فلسطين المنكوبة.

المخرب: ذلك الذي يحاول بكل قوته إفساد الحياة في فلسطين من خلال الهدم والحرق والتجريف، وإتلاف المحاصيل والثمار.

الظالم: وقد تجلّى ذلك من خلال المحاكمات الهزلية التي يعقدها الصهاينة لجنودهم الذين يرتكبون جرائم حرب في حق الشعب الفلسطيني؛ وتتمخض هذه المحاكمات عن أحكام هزلية مسرحية!

الخائن: وقد بينت هذه الصفة أن الجيش الإسرائيلي لا يقاتل عن عقيدة سليمة، وأنه جيش يمكن اختراقه بالمال والماديات.

القاسي: وقد كشفت هذه الصفة عن حقيقة هذا العدو الصهيوني الذي يتمتع بقسوة الجبناء؛ فلا يعرف رحمة بضعيف، ولا احتراماً لمواثيق واتفاقيات دولية!

الفصل الثاني

صورة الفلسطيني في قصص الطفل الصهيوني

مقدمة:

إن المجتمع الصهيوني المزعوم في ذلك الكيان الغاصب مجتمع عنصري بامتياز، وليس أدل على ذلك كون اليهود أنفسهم ينقسمون فيما بينهم إلى طبقتين تستعلي إحداهما على الأخرى، ومرد ذلك التقسيم هو أماكن الهجرة التي انطلقت منها القطعان اليهودية للاستقرار في أرض الميعاد المزعومة؛ طلباً للمعاش والاسترزاق أو بعد التهجير والطرده من مجتمعاتهم الأصلية.

وتُعرف إحداهما باسم "الأشكناز"، والأخرى باسم "السفاراد"، فالأشكناز تستعمل للدلالة على اليهود الذين انحدروا من الدول الغربية الاستعمارية، فجلبوا معهم الكبر والخطورة والاستعلاء ولو على بني ملتهم وجلدتهم، وتعني "الأشكناز" كما هو ثابت في الرواية التوراتية أنه علم لأحد حفدة "نوح" عليه السلام⁽¹⁾؛ ومن ثم فأشكناز هو ابن جומר بن يافث بن نوح⁽²⁾، على أن البحث في اشتقاق هذه الكلمة يشير إلى أنها بمعنى ألمانيا؛ ومن ثم فإنها مصطلح يدل على الجماعات اليهودية التي هاجرت من ألمانيا وبولندا وفرنسا، علاوة على يهود أوروبا وأمريكا⁽³⁾.

وعلى الرغم من أن اليهود الأشكناز يمثلون 90% من اليهود في العالم في القرن التاسع عشر، فإن نسبتهم في إسرائيل أقل من 50%؛ وذلك لأن الدولة الصهيونية تهتم بالهجرة السوفيتية، علاوة على هجرة اليهود السفارديم والشرقيين إلى إسرائيل⁽⁴⁾.

(1) ينظر: المسيري، عبد الوهاب (1999): موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، دار الشروق، ط1، القاهرة، (125/2).

(2) ينظر: سفر الأيام الأول، (ع5-17).

(3) المسيري، عبد الوهاب: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، (125/2).

(4) ينظر: السابق: (127/2).

أما الطائفة الأخرى السفارديم، فهي علم على مدينة في آسيا الصغرى، وتشير حاليًا إلى اليهود الذين أقاموا في إسبانيا والبرتغال، ثم توجه بعضهم إلى الدولة العثمانية⁽¹⁾، وكان هؤلاء السفارديم حريصين جدًا على أن يكون هناك مسافة بينهم وبين الأشكناز في المجتمع الإسرائيلي؛ حتى إنهم كانوا لا يتزوجون منهم ومن يفعل ذلك، ويخالف هذه القوانين، ينبذوه ويطرده، بل وصل بهم الأمر أنهم يدفنونهم في مقابرهم⁽²⁾.

وقد بدأ تهमيش السفارديم الشرقيين من بداية تكوين دولة الاحتلال؛ فقد عمل بن جوريون على وضعهم في مدن مستقلة بعيدًا عن العمران؛ فكانوا يفتقرون إلى المال، والعمل والمشروعات، علاوة على الافتقار إلى العلاقات الاجتماعية مع ذوي النفوذ في الدولة⁽³⁾؛ ولا شك أن هذا التمييز العنصري يعطينا فكرة وتصورًا عن حال اليهود فيما بينهم، ويؤكد أنهم عنصريون مع غيرهم من أصحاب الملل والقوميات الأخرى، وقد زاد من معاناة العرب في فلسطين المحتلة أنهم صاروا أقلية؛ إذ يمثلون خمس السكان⁽⁴⁾؛ فصاروا يعانون التهميش والعنصرية المقيتة التي تمارسها عليهم سلطه الاحتلال ومواطنوها.

ومن ثم فلا عجب أن يمتد هذا التمييز وتلك العنصرية من الواقع إلى الأدب والفنون، حتى إذا ما وصلنا إلى أدب الطفل وجدنا صورة العربي الفلسطيني هناك مشوهة ممسوخة توصل في نفوس الأطفال اليهود العنصرية والبغضاء لأناس يعيشون معهم في الوطن نفسه؛ فتتأصل تلك العنصرية وتترعرع حتى تؤتي ثمارها في صورة جرائم حرب ضد الإنسانية كما نرى ونسمع في كل آن وحين، بل يكفي أن نعلم أن عقب حرب الخامس من حزيران عام 1967م المعروفة.

(1) ينظر: المسيري، عبد الوهاب: مرجع سابق، (122/2).

(2) ينظر: السابق: (123/2).

(3) ينظر: يفتاحيل، أورن (2001): اليهود الشرقيون والمكان "نشوء طبقة إثنية في بلديات التطوير"، قضايا إسرائيلية، العدد (4)، ص 45-46.

(4) ينظر: نديم روحانا (2011): الفلسطينيون في إسرائيل قراءات في التاريخ والسياسة والمجتمع، مدى الكرمل، (دط)، حيفا، ص 129.

بالنكسة ظهر في إسرائيل نحو 1700 كتاب للأطفال، منها ما يقارب 520 كتابًا تتناول العربي وترسم له صورة تتماشى مع المعتقدات اليهودية، وكانت هذه الكتب تُدرّس في المدارس⁽¹⁾.

كانت النظرة الأدبية للعرب تتسم بالاعتدال طوال القرن التاسع عشر، وكان رائد هذا الاتجاه هو الكاتب اليهودي بنجامين دزرائيلي "1804-1881م" الذي صنف العرب في روايته "كونتفزي" على أنهم في المرتبة الثانية بعد اليهود في العرق القوقازي؛ حتى إنه لم يجد بأسًا في وصف العرب بأنهم يهود على ظهور الخيل في روايته "تانكريد"، وكانت كتابات الرجل منطلقًا وأساسًا استند إليه الاتجاه البوبري لصاحبه "مارتن بوبر" الذي يعترف بما وقع على العرب من ظلم واضطهاد تاريخي وإجحاف بحقوقهم التاريخية، بيد أن هذا الاتجاه لم يصمد طويلًا تحت السيل الجارف من المطامع والأحقاد الصهيونية؛ تلك المطامع والأحقاد التي سوغت لنفسها ابتلاع الحقوق العربية تحت زعم أن العرب مجرد قطعان من الهمج البدو الجهلة أقرب إلى الحيوانات لا يكادون يفقهون حديثًا⁽²⁾.

ومن أهم المؤلفات القصصية الموجهة للأطفال، التي تحمل في طياتها العداء للعرب، وتقديم تصور مشوه عنهم ما كتبه يغيثال موسينيزون في شكل سلسلة قصصية معروفة باسم "السامبا" ظهرت في خمسينيات القرن العشرين، وتُعدّ بمنزلة الجسر الذي عبرت عليه أعمال أخرى مشابهة؛ مثل: "البغضاء الأربعة"، و"جماعة شوفتيشيك"، و"عملية جوش عتسيون" للكاتبة "أرنونا جادوت"، على أن أكثر القصص والأعمال الأدبية خطرًا على الإطلاق إنما تتمثل في كتابات "عيدان إستر"، وهو اسم مستعار للكاتب "حزاي لوفمان"، وظهرت عام 1965م مجموعة قصصية للأطفال بعنوان "السقوف الحمراء" للكاتب "إليا هو عاش بيبير" تناولت الحديث عن الخطر المحيط باليهود بسبب العمليات الهمجية العربية للقضاء على اليهود⁽³⁾.

(1) ينظر: صميده، محمود (1992): دور أدب الأطفال الإسرائيلي في خلق صورة سلبية للشخصية العربية الفلسطينية، مجلة رسالة المشرق، مركز الدراسات الشرقية، المجلد (1)، العدد (1-3)، فبراير، مايو، أكتوبر، ص 29.

(2) ينظر: رمضان، علاء الدين (2009): العدو العربي في أدب الأطفال الصهيوني، الوعي الإسلامي، المجلد (46)، العدد (522)، فبراير ص 44.

(3) ينظر: المرجع السابق نفسه.

وقد تناولتُ في الصفحات الآتية نماذج من أدب الطفل الإسرائيلي تبين صورة العربي والنظرة العدائية إليه، في محاولة لتحليل أبعاد تلك القصص الموجهة للأطفال اليهود، وما تمثله تلك القصص والأعمال الأدبية من قنابل موقوتة تهدد الحاضر والمستقبل والسلام والأمن في المنطقة العربية كلها.

المبحث الأول: الآخر العدو

ألقى الصراع العربي الإسرائيلي بظلاله القاتمة التي تفوح في أجوائها رائحة البارود تزكم الأنوف وتدمع العيون، ولها طعم الدماء كالصدأ يملأ الفم فلا تستسيغه نفس ولا تقبله فطرة؛ فنجم عن ذلك حالة من الاستقطاب والتحيز والترقب بين الطرفين، كل منهما يتفحص الآخر، ويرصده تحت عدسات المجهر، يتناول عيوبه ويضخمها، ويستر مناقبه وشمائله الحسنة، وكان اليهود أصحاب النصيب الأوفى من هذه الحالة البعيدة عن الموضوعية والخالية من العدالة والإنصاف.

هناك قصص يهودية من أدب الطفل ترسخ كون العربي الفلسطيني عدوًا لليهود ودولة إسرائيل، وإن هذا العدو العربي دائم الهجوم على اليهود الآمنين، وترويعهم وسلب ما بين أيديهم؛ ولعل أبرز تلك الأعمال الأدبية التي ترسم هذه الصورة قصة "دافيد ونعمان" أ. روز يانكسن، وهي قصة تبرز معاناة اليهود من هجمات العرب على مواقعهم.

تقول القصة: «في نهاية عام 1929م، هجم قطاع طرق لصوص عرب على الأرض، ونهبوا وسرقوا كل شيء في طريقهم... لكنهم لم يقتربوا من مزرعتنا؛ فقد اشتعلت النيران في أجزائها... وفي كل ثمرة من عملنا الشاق، في وسط هجوم آلاف المهاجمين سمع خوار البقر وصهيل الخيل المسروقة⁽¹⁾.

إن أول ما يلفت الانتباه في تلك القصة هو تاريخ أحداثها؛ فهي تجري أواخر عام 1929م؛ وفي تلك الحقبة كانت فلسطين تحت الاحتلال البريطاني، وفي نهاية هذا العام اندلعت ثورة البراق التي وقعت أحداثها في الخامس عشر من آب عام 1929م، وكان ذلك موافقًا ليوم الحداد على خراب الهيكل بحسب التقويم العبراني، وكان بالمصادفة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف يجري في تلك الأثناء، وقد احتشد اليهود بناء على تنظيم حركة بيتار الصهيونية المتطرفة⁽²⁾، وقد رفعوا هناك شعار "الحائط لنا"، وفي اليوم التالي جاء رد فعل العرب المسلمين بتنظيم مسيرة

(1) عبد اللطيف، سناء (1997): هكذا يربي اليهود أطفالهم، دار القلم، بيروت، ص 63.

(2) بيتار: هي حركة شبابية صهيونية تأسست في عام 1923 في ريغا بلاتفيا بواسطة فلاديمير جابوتنسكي. هذه الحركة عادة مرتبطة للحירות الأصلي ومن ثم حزب الليكود السياسي في إسرائيل، وكان مشتركاً بصورة وثيقة بمجموعة صهيونية تصحيحية منشقة تسمى أركون تصيفاني ليثومي. ينظر: رينا بيلد. (1985): حركة بيتار في أرض إسرائيل

حاشدة خرجت من المسجد الأقصى واتجهت إلى حائط البراق، وانفجر الوضع الذي نجم عنه مقتل 67 يهوديًا في مدينة الخليل⁽¹⁾.

ومن ثم فإن هذا التاريخ مقصود إدراجه في هذه القصة؛ لكي يرسخ في نفوس الأطفال اليهود أن ما حدث في أواخر عام 1929م ما هو إلا سطو من العرب الهمج اللصوص الذين يسلبون اليهود الأبرياء الآمنين ما لديهم، ولا يتورعون عن القتل وسفك الدماء في سبيل الوصول إلى مآربهم القذرة.

ثم يلاحظ القارئ عبارة "هجم قطاع طرق لصوص عرب على الأرض، ونهبوا وسرقوا كل شيء في طريقهم"، إن تلك العبارة فيها ما فيها من دلالات؛ لعل أهمها غياب الأمن والأمان في تلك الحقبة؛ ما يقضي بضرورة إقامة الدولة الصهيونية؛ وهو ما حدث بالفعل عام 1948م.

وأيضًا فإن العبارة توحى من ضمن ما توحى بأن اليهود قوم عزل لا يحملون السلاح، ولا يعلمون فنون الحرب والقتال؛ ومن ثم لا يستطيعون دفع المعتدين والذود عن مزارعهم ومحاصيلهم ومواشيهم؛ أي: إنهم لقمة سائغة لكل عابر يبتلعها في سهولة ويسر؛ ما يقضي بضرورة حفظ أرواح هؤلاء وأمنهم وأموالهم في ظل كيان رسمي وحكومة وطنية ترعى مصالحهم وتدافع عنهم.

وعلاوة على ذلك فإن القصة تحمل -على صغرها- رموزًا فيها ما فيها من الدلالات؛ فإنها تصور العرب كما لو كانوا في جاهليتهم؛ عبارة عن مجموعات من الصعاليك اللصوص الذين يعملون بالإغارة ولا حرفة ولا استقرار ولا صناعة، بل يتكسبون من خلال الإغارة على الآمنين وسلب متاعهم.

ثم نجد عبارة أخرى فيها ما فيها من الدلالات والإيحاءات؛ بقول الكاتب: «فقد اشتعلت النيران في أجزائها... وفي كل ثمرة من عملنا الشاق».

منذ تأسيسها وحتى سنوات الخمسينات؛ حركة الشبيبة 1920-1960، إصدار: إياد يتسحاق بن تسفي، القدس، ص 106 وما بعدها.

(1) Palestine--History--Arab riots، 1929، library of congress:

<http://web.archive.org/web/20200315181855/http://id.loc.gov/authorities/subjects/sh85/097175.html>

إن هذه العبارة توحى بأن هؤلاء اليهود قوم مكافحون مجتهدون يأكلون من عمل أيديهم؛ ومن ثم فلا يملك المرء تجاه ذلك إلا الاحترام لهم والتقدير؛ فهم يمثلون صورة على النقيض من صورة العرب اللصوص الذين يعيشون متطفلين على أموال الناس، ثم يريد الكاتب أن يضيفي على القصة نوعاً من التعاطف الذي يصل بالقارئ حد البكاء؛ وذلك بقوله: "اشتعلت النيران... وفي كل ثمرة من عملنا الشاق"؛ إن وصف عملهم الذي أكلته النار بالشاق يبين مدى المجهود المبذول في رعاية الأرض واستصلاحها وزراعتها، إلى جانب تربية المواشي ورعايتها، بذلك يصل التأثير العاطفي مداه وغايته؛ فما بالنا والقارئ الموجهة إليه القصة مجرد طفل صغير يرى العالم بقلبه وعاطفته دون إعمال للمنطق! وإنني أتوقف مع العبارة الأخيرة في هذه القصة؛ وهي قول الكاتب: «في وسط هجوم آلاف المهاجمين سمع خوار البقر وصهيل الخيل المسروقة»، إن قول الكاتب: "آلاف المهاجمين" يوحي بأنها ليست مجرد عصابة من العرب أو مجموعة خارجة عن القانون، بل يريد الكاتب أن يوصل رسالة ضمنية إلى القارئ مفادها أن العرب كلهم لصوص وأعداء لأمتنا اليهودية المتحضرة التي تعمر الأرض وتريد الإصلاح.

ثم هو في النهاية يريد أن يوصل لنا رسالة ضمنية بقوله: "سمع خوار البقر وصهيل الخيل المسروقة" يريد الكاتب إن يقول: إن هذه الأموال والحقوق المسلوبة تستجد أصحابها الحقيقيين؛ كي يستردوها يوماً ما، وتنتهي القصة ولا صوت يعلو على صوت الحق المنهوب الذي يرجو استنهاض الهمم والعزائم والانتقام من العرب المجرمين!

الملح الآخر الذي يلفت الانتباه كتاريخ القصة تماماً هو البعد المكاني للقصة؛ فهي تحدث في الريف، حيث الزراعة والاستقرار والمواشي التي يرتبط بها صاحبها ويألفها وتألفه، إن هذا البعد

يزيد من عمق مأساة اليهود، وهو ادعى إلى التعاطف معهم لا سيما أن المتلقين أطفال صغار يفكرون بقلوبهم.

وهذه قصة أخرى تمثل العربي العدو؛ ذلك الإنسان الذي يضمّر الشر والعدوان لليهود دون أي مسوغ، إلا ما تحمله نفسه العدائية المفعمة بالكراهية والسوداوية؛ يقول زئيف وردي في قصة "من الذي يركض في الأزقة":

«فجأة ظهر من زقاق جانبي بعض المشاغبين العرب وبدؤوا بضربنا دون أن نعمل لهم أي شيء... أنا ورافي ألصقنا ظهورنا بأحد الجدران لندافع عن أنفسنا، وعندها أحد السفاحين العرب استل سكينًا وأصاب ذراعي، وحتى هذا اليوم ترافقني ندبة ذلك الجرح»⁽¹⁾؛ هنا يصف الكاتب العدو العربي بوصف جديد غير السلب والنهب كما مر في القصة السابقة؛ فالعرب هنا مشاغبون، يفتعلون العنف دون أي مسوغ، وهم يعتقدون على الحمايم المسالمة اليهودية التي لا تملك ردًا للعدوان سوى الالتصاق بالجدار؛ كأن العدوان لا يأتي إلا من الخلف! وفي ذلك إشارة إلى أنهم -أي اليهود- اعتادوا على غدر العرب وطعنهم من الخلف؛ فصار الالتصاق بالجدار وحماية الظهر عادة يفعلها كل يهودي عند الإحساس بالخطر بشكل تلقائي عفوي.

ثم تتجلى العدوانية في هذا العدو العربي الذي لا يكتفي بالضرب المبرح بالأيدي -على الرغم من أن اليهوديين أعزلان- فيخرج سكينًا يطعن به أحدهما؛ وقد وصمه السارد في القصة بالسفاح؛ أي: هذه عادته ودينه سفك الدماء، وقد طعن اليهودي تاركًا له جرحًا لن يندمل.

هنا كما حدث مع صوت المواشي التي تطلب الثأر في القصة السابقة، فإننا نسمع صوتًا للثأر أيضًا في هذه القصة، يتمثل في الجرح في ذراع اليهودي، وذلك الأثر الذي لن يُمحى؛ مذكّرًا إياه بالثأر وبطبيعة العرب العدائية، وأنهم العدو الذي يجب الانتقام والاقتصاص منه، وعدم التسامح أو النسيان، وكيف ينسى ونظرة عابرة إلى ذراعه كفيّلة بتذكيره وإعادة التجربة بمرارتها إلى عقله وقلبه!

إننا في هذه القصة أمام حالة من الاضطهاد؛ تلك الحالة التي يروج لها اليهود في العالم كله، وفي وطنهم المزعوم؛ إنها حالة تمثل لهم مقومًا من مقومات وجودهم؛ فلأنهم مضطهدون، يجب أن يجتمعوا في وطن يقام لهم يحتويهم ويصنع لهم مستقبلًا وحرية وكرامة؛ إذن نحن أمام فكرة ثابتة في الكتابة

(1) وردي، زئيف (دت): من الذي يركض في الأزقة، ترجمة: عادل شواورة، (40/4).

اليهودية التي ترى نفسها ضحية للآخر؛ ذلك الآخر المتمثل هنا في العربي الفلسطيني الذي يعيش معهم على الأرض نفسها، وتقله معهم السماء نفسها.

ثم تأتي قصة أخرى لترسيخ فكرة العربي العدو؛ كما وردت في كتاب "أوز يا أوز"، يقول الكاتب لابين: «ربما تكون قد سمعت شيئاً عن "سليم خديجة"؛ وهو اسم مناضل فلسطيني قاوم احتلال اليهود ليافا سنة 1948م، ويصف لابين؛ قائلاً: "على أي حال، إذا لم تكن قد سمعت عنه شيئاً، فلتستمع لي باهتمام وبقطة، لقد كان شريراً مثل أفعى صينية، جريئاً مثل نمر هندي، وكان في طفولته أشبه بالصوص منه إلى الأطفال العاديين، ولد في يافا، وعندما بلغ الثانية من عمره عض أذن أمه فقطعها، وحين بلغ السابعة ضرب رأس معلمته بالكرسي، وقال لها بكل غباء ووقاحة: إن اثنين زائد اثنين يساوي خمسة!! وفي العاشرة من عمره دفع عمه تحت عجلات سيارة»⁽¹⁾.

هنا يأخذ العدو العربي بعداً آخر يتمثل في العدائية؛ فالكاتب يريد بذلك أن يضيف على المناضلين صفة العدائية والوحشية، وأنهم لا يفعلون ما يفعلونه في مناهضة الاحتلال من منطلق وطني أو عقدي، بل تلبية لنفوسهم المريضة المملوءة بالسادية والشيطانية، والمفعمة بالشرور تجاه الإنسانية عامة لا اليهود على وجه الخصوص؛ وليس أدل على ذلك من كون هذا المناضل يرتكب تلك الفظائع في حياته منذ صغره تجاه أقرب الناس إليه؛ فكيف به تجاه من يخالفه في الدين والعرق!

وهنا لنتوقف قليلاً تجاه التشبيهات التي استعملها الكاتب؛ كي يقرب الفكرة للأطفال عن عدوانية وشرور ذلك المناضل الذي سمعوا به أو لم يسمعوا؛ فهو أفعى صينية؛ ما يعني أنه أناني مادي سريع الغضب حقود عنيف؛ وهي صفات برج الأفعى الصيني.

كما أنه نمر هندي؛ فهو قوي مخيف عنيف وماكر وغدار؛ وهي صفات معروفة عن ذلك الحيوان المفترس الذي لا يعرف إلا العيش منفرداً، ولا يقبل المشاركة لا في عيش ولا طعام ولا صيد.

(1) شاهين، إبراهيم عياد (2016): توظيف الأدب الصهيوني التحريضي في أدب الأطفال مع دراسة نماذج كتاب وشعراء صهاينة من شعر وروايات، دار المقتبس، بيروت، ص 221.

وعلاوة على ذلك فهو لص سارق احترف اللصوصية منذ الصبا؛ فلم يشبه أقرانه من الأطفال، بل كان مختلفاً عنهم في السرقة وسلب أمتعة الآخرين؛ حتى صارت اللصوصية صفة ثابتة له، يُعرف بها بين الناس.

ثم ما الذي ينتظره الناس من طفل في العاشرة يقطع أذن أمه التي هي أقرب إنسان إليه وأعطفهم وأشفقهم عليه؛ إن مثل هذا الإنسان فيه ما فيه من صفات الوحوش، ولا يمكن أن يؤمن جانبه.

إن الملاحظ على هذا النمط من القصص الموجهة بغية غرس الكراهية في نفوس الأطفال اليهود تجاه العرب إنما هي قصص تخلو من المنطق وإن كانت قد جرت صياغته بحرفية شديدة لتحقيق أهداف معينة، لكنها تخلو من المنطق والتعقل، بل يمكن أن يقال عنها: إنها لا تصلح إلا للأطفال؛ ومن ثم فهي تؤدي دورها ببراعة؛ فلن يسأل هؤلاء الأطفال عن الثغرات السردية والتناقضات في الأحداث، بل سينطبع في نفوسهم الغرض من القصة؛ وهو كراهية العرب؟، والرغبة العارمة في استئصالهم.

تبرز قصص الأطفال حالة من الانسحاق اليهودي تحت ضربات الظلم العربي لا سيما الفلسطيني؛ حالة من الانسحاق المصحوب بجوقاتم كئيب يبعث على الرعب، بل هو أشبه بأسوأ الكوابيس؛ ولنتأمل هذه الفقرة لفورتل: «الناس تحولوا لحيوانات مفترسة؛ لم يكتفوا بتكسير زجاج نوافذ بيوت اليهود والهجوم عليهم في الشوارع، بل اقتحموا البيوت وسلبوا ما فيها دون أن يوقفهم أحد، وإذا تجرأ أحد السكان اليهود واعترض عليهم، انهالوا عليهم بالضرب المبرح⁽¹⁾.

أول ما يقع في ذهن القارئ وتخبره به الفقرة السابقة أن فلسطين المحتلة تحولت إلى فوضى عارمة يأكل فيها القوي "الفلسطيني" الضعيف "اليهودي" في غياب تام للنظام والحكومة تسوده الفوضى العارمة، والقتل والتتكيل والنهب، دون رادع أو مانع يحول دون تلك المخازي؛ سواء على المستوى الأهلي أم المستوى الحكومي الذي لا نلمح له أي وجود في تلك القصص العجيبة المختلفة!

(1) فورتل، استر شترايت (دت): الهروب، ترجمة: عادل شواورة، ص 37.

أمام هذه الفوضى العارمة غير المسبوقة في أي مكان، اللهم إلا في أزمان الاجتياحات الكبرى للجيش الغازية التي لا تحكمها أخلاق أو دين أو قوانين، لم يبقَ للفلسطيني شيء من إنسانيته، بل هو وحش أو مصاص دماء؛ حتى إن المرء يتساءل: أين يحدث هذا؟ ومن هؤلاء؟ ومن اليهودي؟ ومن الفلسطيني؟ يحاول الكتاب اليهود لا سيما في مجال أدب الطفل قلب الحقائق، وليّ عنق التاريخ والجغرافية والإعلام؛ مستندين في ذلك إلى أنهم يوجهون كتاباتهم لفئة محدودة التفكير، يغلب عليها العاطفة، وتصدق كل ما تسمع لا سيما إن جاءه الخبر من مصدر موثوق به.

قلب هؤلاء الكتاب الحقائق، وجعلوا الفلسطيني ناهبًا سارقًا قاتلاً متوحشًا، على الرغم من أن العكس هو الصحيح، وأن العربي الفلسطيني ضحية لتلك العصابة التي سيطرت على البلاد والعباد على مرأى ومسمع من العالم في ظل الإعلام المفتوح والقنوات الفضائية التي صرنا في ظلها نرى الحروب نفسها على الهواء مباشرة، ولم يعد بإمكان أحد التستر على الجرائم أو خداع الناس بادعاءات جوفاء يكذبها العقل والمنطق والتاريخ والكاميرات!

المبحث الثاني: الآخر الجبان

تُعَدّ صفة الجبن من الصفات الكلاسيكية عند التهاجي بين الأعداء؛ حتى إن كل إنسان يضع لعدوه صورة ذهنية يراه فيها جبانًا غير قادر على المواجهة المتكافئة؛ فيلجأ إلى الخسة واستغلال الغفلة في غريمه وانتهاز نقاط ضعفه للبطش به واستئصاله دون رحمة أو دون وازع إنساني يحثه على الشرف في الخصومة والشجاعة عند النزال.

ومن هذا المنطلق فليس بمستغرب أن نجد صفة الجبن من الصفات التي رسخها الأدب الصهيوني في قصص الأطفال عندما يرسم صورة ذهنية لذلك العدو التقليدي الأزلي؛ فنجد أن الكثير من تلك الأقاصيص تعزف على ذلك الوتر في نفوس النشء؛ واصمة العربي لا سيما الفلسطيني بالجبن والخسة وكل الصفات التي يمكن إرجاعها في النهاية إلى الجبن.

ولعل من أوضح النماذج على ذلك ما ورد في قصة "مقاصد من الحدود الشمالية" التي ورد فيها ما نصه: «أي نوع من الرجال هؤلاء العرب؟! لا يقتلون من اليهود إلا الغُزْل من الأطفال والنساء والشيوخ! لماذا لا يقتلوننا نحن الجنود... لقد ارتكب العرب أعمالاً وحشية ضد اليهود، حيث بدا العربي كأنه لا يعرف معنى الرحمة أو الشفقة؛ فالقتل والإجرام غريزة وهواية عنده، حتى صار لون الدم من أشهى ما يشتهي... لقد باغت العرب اليهود كالحوانات المفترسة، وراحوا يسلبون ممتلكاتهم حتى المدارس والمعابد الدينية لم تسلم من بطشهم⁽¹⁾.

هنا تستوقف القارئ بعض الملاحظات المهمة التي يمكن من خلالها سبر أغوار تلك القصة والوقوف على مراميها ومقاصد كاتبها؛ ومن ذلك:

(1) قرانيا، محمد (2011): النزوع العنصري في الأدب الصهيوني، (دط)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ص 274.

• الاستناد إلى المفارقات⁽¹⁾:

تلوح المفارقات بشكل ظاهر في هذه القصة؛ فنجد أن الكاتب يقابل بين "العرب" و"اليهود" بوصفهما أمتين متناقضتين تعبران عن دينين مختلفين وثقافتين متغايرتين، ثم تمتد المفارقات والمقابلات على طول القصة؛ فنراه يصف العرب بلفظة "الرجال"؛ وهي لفظة ظاهرها المدح، وباطنها الذم؛ فهي للمدح والثناء في نفسها، بيد أنها نزلت إلى دركات الذم والهجاء بمجرد الوقوف على مقابلها؛ إذ جعلها الكاتب في مقابل الأطفال والنساء والشيوخ في سياق الحرب والاعتداء؛ وهنا تتجلى الغلظة والخسة والجبن في عدو لا يعتدي ويستأسد إلا على المستضعفين ممن لا حيلة لهم ولا يستطيعون سبيلاً.

ثم يشير الكاتب من طرف خفي إلى ما يجعل هذه الكلمة؛ أي: "الرجال" ممتدة القبح؛ فيقابل أيضاً بينها وبين كلمة "الجنود" بقوله: "لماذا لا يقتلوننا نحن الجنود"؛ وهو بذلك يريد أن يلمزهم بأنهم مجرد مجموعات من العصابات الغوغائية الهمجية التي تحترف السطو والإغارة، ولا يرتقون إلى مرتبة الجيش النظامي المكوّن من جنود، هم بلا شكّ ينتمون إلى دولة، أما تلك العصابات فلا تعدو أن تكون مجرد قبائل لا دولة لها ولا نظام!

• العدو جبان وجيشنا شجاع:

وصف الكاتب عدوه الفلسطيني بالجبن؛ فهم لا يقتلون إلا الضعفاء؛ فهم أضعف وأجبن من مواجهة حقيقية مع جيش منظم، ثم هو يصف الجيش الصهيوني بالشجاعة من خلال التضمين وعدم المباشرة؛ إذ يدل جبن العرب عن مواجهة الجيش الصهيوني على شجاعة هذا الأخير الذي يتساءل جنوده تسأول العارف الماكر: "لماذا لا يقتلوننا نحن الجنود!!".

من توابع صفة الجبن السادية والتلذذ بقهر وتعذيب الضعفاء واستعذاب آلامهم والطرب لأوجاعهم ومعاناتهم، ويضفي الكاتب هنا من خلال القصة السابقة صفة السادية وهي متفرعة عن الجبن على

(1) المفارقة "Paradox" يستعمل لفظ المفارقة مراداً به الدلالة على الآراء المخالفة للمعتقدات المألوفة، في حين أن المقابلة مصطلح مرتبط بالمقارنة بين تصورين فلسفيين؛ ومن ثم مجد أن هناك تداخلاً بين المصطلحين. ينظر: صليبا، جميل (1982): المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، (402/2).

العربي الذي هو -بحسب الكاتب- "القتل والإجرام غريزة وهواية عنده؛ حتى صار لون الدم من أشهى ما يشتهي!"

لا يفوت الكاتب أن يلفت نظر الطفل اليهودي إلى أن أسباب العداء العربي اليهودي إنما هي أسباب حقيرة لا ترجع إلى قضية كبيرة نبيلة؛ فالعرب لصوص يمارسون اللصوصية والغارة على اليهود، ويحاولون سلب ما بين أيديهم، وليتهم يكتفون بالسلب، بل يحاولون جاهدين استئصال هؤلاء المسلوبين، وكأنهم -أي: العرب- يخشون من العنصر اليهودي أن يقوى وتشتد شوكته؛ فتدور عليهم الدوائر، وقد انقلب السحر على الساحر؛ فأساء الكاتب من حيث أراد أن يحسن؛ لأنه بوصفه العرب بهذه الهمجية والوحشية وقتل الأطفال اليهود والنساء والشيخوخة إنما يصف -دون وعي- جيشه اليهودي بالضعف وقلة الحيلة والهوان وعدم القدرة على التصدي لمجموعة من العصابات المارقة!!

ثم نرى صورة العربي الضعيف وهي صورة تابعة للعربي الجبان؛ لأن الضعف والتحطم والتشظي من لوازم الجبن والخور، وهي صفات بلا شك تناقض الشجاعة والصلابة وقوة الشكيمة ورباطة الجأش؛ لأن هذه الصفات الأخيرة تدخل في حيز الشجاعة والجسارة، ولعل من أبرز القصص التي تعطينا هذه المعاني قصة "العربي المهزوم" التي ورد فيها: «بالأمس نقلت أسرى مصريين لمعسكر مؤقت، أناس حفاة، وخوف رهيب في عيونهم، هم ما زالوا لم يستوعبوا السرعة التي تمت هزيمتهم بها، كما نحن لم نستطع حتى الآن استيعاب ضخامة نصرنا، أحد الجنود المصريين بكى كطفل صغير، ربما بكى خوفاً، وربما اشتياقاً لأمه»⁽¹⁾.

مرة أخرى يستند الكاتب اليهودي لقصص الطفل إلى أحداث تاريخية حقيقية؛ كي يحوك حولها بعض الأساطير، ويدس فيها سموم عدائه غير النهائي، وحقده الأسود الذي سوغ له أن يسلب العربي كل فضيلة، ويصمه بكل رذيلة، ولا شك أن الشجاعة أم الفضائل، ومن ثم فإن الجبن منقصة لا تعدلها منقصة لا سيما في مجال الحرب والقتال وميادين الكر والنزال، وفي القصة السابقة يعتمد الكاتب على حرب الخامس من حزيران؛ تلك الحرب المشؤومة التي مني فيها العرب لا سيما المصريون بهزيمة ثقيلة ساحقة، كان لها ظروفها التاريخية التي أدت إليها ونجمت عنها تلك المفاجعة التي ما زال جرحها

(1) وردى، زئييف: من الذي يركض في الأزقة، ص 27.

ينزف، ولا يحتمل البحث التنقيب عن تلك الظروف والملابسات التي مجالها الأبحاث التاريخية والسياسية، لكن الذي يهمنا هنا هو توظيف الكاتب اليهودي لتلك الأحداث في بناء فني درامي يحقق غايته التي ينشدها؛ وهي وصم العربي بأحط الصفات، ومنها الجبن والضعف.

نلمح في هذه القصة نبرة عدائية تضاف إلى أصوات العداء الصهيوني للعروبة، تلك الأصوات القائمة المتنوعة المملوءة بالسم الزعاف، هنا نسمع نبرة السخرية المفعمة بالشماتة، تلك النبرة التي تفيض بالحق والكراهية، إن الكتاب لا يكتفي بنظرة الرعب المزعومة في عيون الجنود العرب المصريين بعد أسرهم على يد جيش الدفاع الإسرائيلي في حرب الأيام الستة، بل يمعن في السخرية والتشفي عندما يصف أحد هؤلاء الأسرى بأنه يبكي، ثم يعلل الكاتب سبب البكاء بأنه إما خوفًا من المصير المجهول الذي ينتظره، وإما شوقًا إلى أمه، ولا يخفى أن السبب الأخير فيه ما فيه من السخرية المريرة، علاوة على كونه يحمل في طياته كناية عن كون هؤلاء الجنود أغرار لا خبرة لهم بالحروب أو القتال، لا يعرفون إلا أحضان أمهاتهم حيث التذلل والملاعبة والحياة الناعمة؛ إنهم أطفال في أجساد رجال!

وتطالعنا قصة أخرى؛ هي قصة "خريف أخضر" التي تضيء على جبن العربي الفلسطيني بعدًا آخر يتمثل في كونه أمام اليهودي خائر القوى لا يعرف إلا التذلل له والانقياد؛ يقول الكاتب:

«يقرأ الطالب حكاية أسير عربي طاعن في السن، وقع بين أيدي الجنود اليهود، بدت شخصيته مهزوزة هزيلة، ولشدة خوفه وجبنه أفضى بأسرار بلده، من دون أن يطلبها أحد منه، ويصر في تذلل على تقبيل أيدي الجنود اليهود الذين يمتنعون عن التقبيل!

يقول الجندي اليهودي: لقد نفذ كل ما أمرته به، أحضر الماء، قام بمهمات مختلفة كنت أكلفه بها، وكان في كل مرة يعود كالكلب العائد إلى وكره⁽¹⁾.

من خلال النص السابق يمكن بيان بعض النقاط التي هي من الأهمية بمكان، ويمكن إجمالها على النحو الآتي:

(1) قرانيا، محمد: النزوع العنصري في الأدب الصهيوني، ص 275.

• العربي ذليل بطبعه منقاد لليهودي:

يحاول الكاتب في القصة الإشارة إلى أن العربي ذليل بطبعه أمام اليهودي؛ لأنه يراه سيده الذي يملك زمام أمره، ولا يستطيع أن ينفك عن تلك العلاقة التي تجعله بمنزلة العبد الذي يستعذب العبودية والذل والهوان بين يدي سيده، ولو واثته فرصة للفرار، فإنه يضيعها، بل لا يلتفت إليها؛ لأنه لا يرى العالم إلا في الخضوع لهذا السيد المزعوم!

ونلاحظ أن الكاتب يؤكد هذا المعنى ويصر عليه في رسالة واضحة موجهة؛ وذلك في قوله: "وكان في كل مرة يعود كالكلب العائد إلى وكره"؛ إذن هذا العربي لا يريد الانفلات والهرب من سيده؛ لأنه كلب لا يعرف الحياة إلا في كنف السيد، ونحن أيضًا نتعجب من هذا المعنى، فإن كان هذا الرجل الطاعن في السن أسيرًا لدى هؤلاء الجنود، فهذا يعني أنه حتى بلوغه من العمر أرذله لم يترك الجهاد، ولم يتخلّ عن القضية، بل عاش طوال حياته رافعًا رأسه يطاول بها السماء، لا يترك سلاحه إلا أن يحاط به، ولا تهدأ نفسه التي شاخت بمرور الزمان، فكيف لمثل هذا الرجل أن يكون جبانًا ذليلاً عند وقوعه في الأسر؟ ألم يكن من الأولى أن يبيع القضية منذ نعومة أظفاره، وأن يرتمي تحت نعال جلاديه!

إننا نلاحظ التفتك وعدم المنطقية والعقد المحلولة المنفكة في نسيج قصص الأطفال اليهودية؛ فهي تفتقر إلى المنطق السليم القويم، ولا تستند إلى حجة أو دليل، بل تحمل في طياتها عوامل ضعفها وتلفيقها وهوانها وانكشاف زيفها وفضحها!

• أكاذيب ملفقة:

كما ذكرت سابقًا فإن القصص اليهودية تحمل داخلها عوامل زيفها وفضحها، وفي القصة السابقة يذكر الكاتب أن هناك أسيرًا طاعنًا في السن وقع في أيدي الجنود، وهنا نتساءل: أي أسير هذا الذي طعن في السن؟ وكيف لمثل هذا الأسير أن يحمل السلاح وينافح؟ وكيف لرجل مسن هرم أن يمثل خطرًا على جنود الاحتلال حتى أخذه أسيرًا!!

إن الكاتب اليهودي يفتقر إلى أدوات الفن الروائي القصصي التي أبسطها الحكمة الدرامية المستندة إلى المنطق والمعقول واحترام عقول القراء، لكن عندما نعلم أن هذه القصص موجهة للأطفال وهم بطبيعة

الحال لا يحتكمون إلى المنطق، وليس لديهم العقلية المنطقية المحللة التي يمكنها أن تحكم على الأشياء وتميز بين غثها وسمينها؛ ومن ثم فنرى أن هؤلاء الكتاب اليهود تعنيهم الغاية التي يريدون الوصول إليها أكثر من الأدوات الفنية أو البناء الدرامي المحكم، إن كل ما يعينهم هو بثّ العداوة والبغضاء في نفوس الأطفال اليهود تجاه العرب، علاوة على الاحتقار والازدراء والرغبة العارمة في استئصالهم والفتك بهم!

• قسوة مفرطة:

يلاحظ في القصة السابقة فرط قسوة هؤلاء الجنود الذين هم أقرب إلى المرتزقة ومجرمي الحرب منهم إلى جنود دولة لها جيش نظامي يحكمه قانون ونظام؛ إن هؤلاء الجنود على الرغم من أن أسيرهم رجل مسن هرم متهالك، فإن هذا لم يشفع له عندهم كي يعاملوه ولو بالحد الأدنى من المعاملة الإنسانية الكريمة؛ تلك المعاملة التي تضمنها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في مادته الخامسة⁽¹⁾، واتفاقية جنيف في مادتها الثالثة البند "ج"، وكذلك المادة "13" من الاتفاقية نفسها والمادة "14"⁽²⁾، بل إننا نتساءل أين هذه المعاملة الوحشية القاسية التي لا ترحم الشيب والضعف والوهن من قوله تعالى: {وَيُطْعَمُونَ عَلَىٰ حَبِّهِ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا}⁽³⁾. لقد رسم القرآن الكريم لأتباعه معاملة الأسرى وهم صنف من المستضعفين الذين لا يستطيعون حيلة، وقد ألزم الإسلام أتباعه بهذه المعاملة؛ لأنّ العداء إنما يكون للمنهج والطريقة في التفكير، ولا يمكن أن يكون إذلال الناس وإخضاعهم والتنكيل بهم هدفًا في ذاته عند أي مصلح أو صاحب رسالة!

وفي قصة "يضحك كثيرًا من يضحك أخيرًا" للكاتب "مناحم تلمي"، تحكي القصة عن حال الضابط داود حلمي، عندما هاجمت الطائرات الإسرائيلية الموقع المصري، فيقول:

(1) الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، قرار الجمعية العامة 217 ألف، د-3، 10 كانون الأول 1948م.

(2) اتفاقية جنيف بشأن معاملة أسرى الحرب، 12 آب 1949م

(3) سورة الإنسان، الآية 8.

«وبعد ذلك بساعات قليلة عندما قصفت الطائرات الإسرائيلية بطاريات المدفعية المصرية، قفز إلى خندق مائي ضحل على جانبي الطريق، وارتمى فيه كجثة متجمدة.. وعندما رفع رأسه من الخندق كان وجهه معفرًا بالتراب.. وأخذ يشم ويبصق وخوذته إلى الراء.. وكان منظره مثيرا للسخرية»⁽¹⁾.

يحاول الكاتب في القصة السابقة أن يقضي على أي رهبة قد تكون في نفوس أطفال اليهود من المقاتلين العرب، لا سيما المقاتل المصري الذي كان له مع اليهود صولات وجولات؛ تحاول القصة أن تغرس في نفوس الأطفال أن الجندي المصري ضعيف وجبان، ولا يمكنه أن يصمد في الحرب أمام هجمات الجيش الإسرائيلي وأسلحته المتفوقة الفتاكة.

وفي قصة أخرى بعنوان "دندين يبحر في البحر"، للكاتب "أون سيرج"، يقول:

«كان القبطان يرتدي بدلة عسكرية أنيقة، مملوءة بالنياشين الذهبية الجميلة.. فألقى دندين به أولاً في الماء.. ثم ألقى وراءه في الماء واحدا إثر الآخر.. كل الذين جاؤوا مع القبطان.. فامتألت مياه البحر برعاع مصر وهم يرتجفون».

لا شك أن الكاتب يرمز بالقبطان لعبد الناصر الزعيم العربي المشهور، بنياشينه العسكرية وفخامته المعهودة، لا سيما أنه كان يتوعد اليهود بإلقائهم في البحر؛ هنا يحاول الكاتب أن يكسر ما قد يكون وقع في نفوس اليهود من رعب أو رهبة تجاه هذا الرجل القوي وجيشه العنيد.. ويلاحظ أن الكاتب لا يفوته أن يصف المصريين بأنهم رعاع، وأنهم جبناء يرتجفون من جيش الدفاع الإسرائيلي.

(1) عبد اللطيف، سناء: هكذا يربي اليهود أطفالهم، ص 205-206.

المبحث الثالث: الآخر الوحش

تعتمد أدبيات الطفل اليهودي إلى تصوير العدو العربي بالوحش، ولا شك أنه تصوير يتمشى مع طبيعة الأطفال ومخاوف الطفولة؛ فالطفل كثيرًا ما يتحدث عن وحوش مجهولة لا وجود لها إلا في خياله الصغير؛ ومن ثم فالكتاب اليهود يستغلون طبيعة الأطفال وينسجون عن العربي أقاصيص تصوره وحشًا بعيدًا كل البعد عن طبيعة البشر، وعن كل معنى من معاني الإنسانية.

تمتلئ القصص الصهيونية بالصور السلبية النمطية عن العربي الفلسطيني، وينعكس هذا أيضًا على النتاج القصصي لأطفال المدارس؛ فقد لوحظ أن الأعمال الأدبية لهؤلاء الأطفال اليهود تصور العربي وحشًا لا يعرف إلا الاعتداء دون مسوغ ولا مفسر، سوى الرغبة العارمة في البطش والتكيل بالشعب اليهودي المسالم؛ ومن تلك النماذج:

«تقول إحدى التلميذات: صعدت إلى الأتوبيس، وجلست، وعندما صعد العربي إلى الأتوبيس جلس بجواري، حينئذ فكرت أن اترك المكان وانتقلت إلى مكان آخر، فانتقل العربي إلى نفس المكان؛ فاعتقدت أنه يريد أن يفعل شيئًا معي، اعتقدت أنه سيخطفني، وعندما حاول العربي أن ينزل من الأتوبيس، لم يفتح له السائق، واستدعى الشرطة التي أخذته، ووضعت في السجن»⁽¹⁾.

ونجد الفكرة نفسها عند تلميذة أخرى؛ كتبت تقول: «سافرت بالأتوبيس، وفجأة جلس بجواري ولد عربي، كان يبدو عليه الفقر؛ فأردت القيام من مكاني، فقال: لا تخافي، لن أضرك، رأيت معه سكينًا حادة، وقتت؛ فأخرج الولد السكين، وحاول قتلي، دفعته وأخذت السكين منه، وأبلغت سائق الأتوبيس الذي استدعى الشرطة، فأبلغتها بما حدث، فأخذته ووضعت في السجن عشر سنوات، وبعد ذلك أطلقوا سراحهم»⁽²⁾.

(1) صميذة، محمود: دور أدب الأطفال في خلق صورة سلبية للشخصية العربية الفلسطينية، مرجع سابق، ص 32.

(2) السابق: ص 33.

إن القصتين السابقتين تبرزان بوضوح ما انطبع في نفوس الأطفال اليهود جراء المناهج المدرسية التي تعج بالعنصرية من خلال مجموعة أقاصيص موجهة لتوجيه الشعور العام لدى الأطفال إلى كراهية العرب والنفور منهم والرغبة الجامحة في الاقتصاص منهم واستئصالهم، ويمكننا أن نستشف من هذين النموذجين بعض المحاور الأساسية التي تبين الصورة الوهمية المصنوعة في عقول الأطفال اليهود، ويتمثل ذلك فيما يأتي:

• المجتمع الإسرائيلي مجتمع العدالة والمساواة والإخاء :

القاسم المشترك في النموذجين السابقين هو أن المجتمع الإسرائيلي مجتمع إخاء وحرية وعدالة ومساواة؛ وهي نفسها شعارات الثورة الفرنسية التي قيل عنها بأنها نتاج الماسونية العالمية⁽¹⁾، فنجد أن المجتمع لا يمنع العربي الفلسطيني من استقلال الحوافل مع اليهود، على الرغم من أن هؤلاء الآخرين يتوقعون الغدر والهجمات الوحشية التي لها مسوخ، لكنهم يكتفون بالحد، وتجنب هؤلاء السفاحين قدر المستطاع، وهذا طرح بلا شك يقدم لنا مجتمعاً يهودياً ودولة فاقت حدود المثالية على المستويين الرسمي والأهلي! إن تلك الأقاصيص تعكس تمسك اليهودي بالحرية؛ فهو يعيش في مجتمع يقدر الحرية ويرفض القيود ولو على غرمائه وأعدائه حتى يقع منهم ما يسلبهم تلك الحرية، تحاول تلك الأقاصيص المتداولة بين تلاميذ المدارس الإسرائيلية أن تعزف على هذا الوتر في محاولة للتغطية على جرائم الاحتلال وتصوير تلك الجرائم على أنها مجرد ردود أفعال شرعية أو جهود رسمية لكبح جماح الإرهاب وقتله في مكمته!

• الفلسطيني همجي غير متحضر:

من القواسم المشتركة أيضاً في هذه القصص التي تعكس مدى ترسيخ هذه الصورة وذلك النمط أنها تصور الفلسطيني فقيراً رثّ الهيئة بعيداً عن التحضر والرقى؛ فهو شخص غير متعلم ولا مهذب، يرتدي ملابس غير نظيفة بالية مهترئة، له هيئة منفرّة؛ حتى إن بطلاة القصة الأولى امتعضت نفسها بمجرد جلوسه بجواره، وهمت بمغادرة المكان نفوراً منه واستهجاناً لحاله السيئ، وإننا نحن معاصر القراء نتعجب

(1) ينظر: الحميدة، حمد صالح (2020): الماسونية ونشأتها وخطرها على العالم الإسلامي، مجلة كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية، العدد (39)، ص 362؛ سلامي، أسعيداني (2017): الصورة الدعائية الماسونية في الرسومات المتحركة على الفكر التربوي "نموذج تطبيقي سيميولوجي"، مجلة فتوحات، العدد (4)، جانفي، ص 260.

من هذه الصورة النمطية التي يكذبها الواقع أيما تكذيب، صحيح أن تلك النماذج البائسة لا يخلو منها مجتمع في أي زمان ومكان، لكن الذي يؤيده الواقع المشاهد الملموس أن الفلسطينيين مجتمع متحضر نظيف يجمع أفراده بين جمال الوجوه والنضارة وبين النظافة وحسن المنظر وأناقة الملابس العصرية؛ حتى إننا نعتقد أن من كتبوا تلك الأقاصيص يبدون كأنهم يعيشون في عالم افتراضي ويتحدثون عن شخصيات لا وجود لها، إنهم يشبهون من يتحدث في غرفة مغلقة بالأكاذيب ويظن أن العالم كله يستمع ويصفق!

• الفلسطيني وحش بطبعه:

يبدو في القصتين السابقتين الفلسطيني وحشًا بطبعه؛ فكما يهاجمك الحيوان المفترس فور رؤيتك دون أن تبدي له ما يسوغ هذا الهجوم، بل ينقض عليك منقادًا لنداء غريزته التي لا تعرف إلا الاعتداء؛ فالفلسطيني في تلك القصص يبدو مثل هذا الوحش الذي فطرت نفسه على الفتك والعدوان دون مسوغ وبمجرد رؤية الفرائس التي يمثلها اليهود!

يبدو ذلك واضحًا في ملاحقة الفلسطيني الفتاة في القصة الأولى، وعلى الرغم من أنه لم يصل إلى مرحلة الاعتداء الفعلي، فإن ملاحقته لها من مقعد لآخر داخل الحافلة تشي بأنه يبيت نية سوداء لفعل قبيح؛ وهنا تقفز الكاتبة على الأحداث بأنه حاول النزول فمنعه السائق الذي سلمه للشرطة؛ كي يلقي مصيره المحتوم المرسوم من البداية؛ فكما أن المكان الطبيعي للحيوان المفترس هو القفص، فكذلك -بحسب الكتاب اليهود- فإن المكان الطبيعي لهذا الوحش المعروف بالفلسطيني لا بد أن يكون خلف القضبان أيضًا؛ وهي النهاية التي رأيناها للفلسطيني في كلتا القصتين.

• توسيع دائرة العقاب:

يبدو في القصة الثانية أن الفلسطيني يستحق عقابًا ممتدًا لا يقتصر عليه وحده، بل لا بد أن يمتد إلى أسرته؛ عقابًا لها على أنها أنجبت مثل هذا الوحش؛ فهي لا شك أسرة لا تختلف عن ابنها؛ فإن كان ابنها وحشًا، فمن الطبيعي أن يكون سليل وحوش، والوحوش لا بد من وضعها في خلف القضبان؛ كي يأمن الناس شرورها وينعمون بالسلامة والسكينة في معزل عنها.

لم يقتصر العقاب المبالغ فيه على الفلسطيني وحده في القصة الثانية، بل عوقب هو وأسرته بحبسهم جميعاً عشر سنوات، على الرغم من أن أسرته لا ذنب لها سوى أنها أسرة عربية فلسطينية، كما أن العقاب نفسه ولو اقتصر على الفلسطيني دون أسرته، فيظل عقاباً مبالغاً فيه!

وتطالعنا قصة أخرى ورد فيها ما نصه:

«الناس تحولوا لحيوانات مفترسة؛ لم يكتفوا بتكسير زجاج نوافذ بيوت اليهود والهجوم عليهم في الشوارع، بل اقتحموا البيوت وسلبوا ما فيها دون أن يوقفهم أحد، وإذا تجرأ أحد السكان اليهود واعترض عليهم، انهالوا عليهم بالضرب المبرح»⁽¹⁾.

يبدو في النص السابق بوضوح التصريح بكون العربي الفلسطيني وحشاً؛ وهو اللفظ المرادف لتعبير "حيوان مفترس"؛ هكذا يبدو العربي الفلسطيني في عيون وعقول وقلوب اليهود، لا سيما الأطفال الذين امتلأت نفوسهم بالأكاذيب والحكايات الملفقة التي تتاجر بها الصهيونية وتصدرها للداخل والخارج.

نحن أمام تصوير بدائي ساذج؛ فمن السهل على أي إنسان أن يدعي الأكاذيب ويلصقها بعذوه بغية تشويهه، وأن تخرج أجيال إلى الدنيا مملوءة بالحق والكراهية، لكن مثل هذه الأمور ربما كانت تمر وتتجح في عصور سابقة لا في عصرنا عصر الشاشات والقنوات الفضائية والإعلام المفتوح؛ هذا العصر الذي لا يمكن فيه خداع الجماهير؛ فمثل الأكاذيب والادعاءات في عصرنا مثل السراب الذي سرعان ما يتبين للظمان أنه مجرد لمعان وانعكاس لا ماء فيه يروي غلة أو يبرد حرّاً.

وفي قصة خربة خزعة" يصور الكاتب "س. يزهار" الطفل العربي تصويراً يبين كيف يرى اليهود العرب ولو كانوا أطفالاً صغاراً؛ يقول:

«رأينا كذلك ذلك الشيء الذي كان يدور، والذي لا يمكن أن يكون حين يكبر إلا حية سامة»⁽²⁾.

(1) فورتسل، استر شترايت: الهروب، ترجمة: عادل شواورة، ص 37.

(2) ينظر: صميده، محمود (1996): الشخصية العربية في القصة الصهيونية القصيرة المعاصرة، مجلة عالم الفكر،

دولة الكويت، المجلد (24)، العدد (3)، يناير / مارس، ص 113.

إن النص السابق يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن العربي الفلسطيني في نظر الأدباء اليهود مجرد وحش مهما بدت عليه سمات الإنسانية، ولا شك أن الوحش لا يلد إلا وحوشاً، ومهما كان

صغار الوحش مسالمين ضعفاء في صغرهم تبدو عليهم البراءة والدعة، فسرعان ما يتحولون إلى حقيقتهم القاتلة عندما يشتدّ عودهم وتقوى شوكتهم ويتمّ تمامهم.

إن الكاتب لم يستطع أن يعبر عن ذلك الطفل الفلسطيني بالكلمة الطبيعية المناسبة له؛ وهي كلمة "طفل"؛ فنراه يعبر عنه بعبارة فيها ما فيها من الاحتقار والازدراء والغمط، لا يرى الكاتب اليهودي في الطفل الفلسطيني أي معنى للطفولة والبراءة، بل هو مجرد "شيء"، نعم شيء لم تتضح معالمه الحقيقية بعد، لكن قريباً تظهر أنيابه التي يسيل منها السم الزعاف!

نحن أمام عنف لفظي وعنصرية مقبلة تجاوزت حد العقل والتصور، بل تجاوزت المنطق الإنساني؛ لقد حكم هؤلاء الكتاب على الفلسطيني كبيراً كان أم صغيراً بأنه مجرد وحش، ويجب أن يعامل كما تعامل الوحوش؛ بالقتل أو القنص أو الحبس خلف القضبان!

هل بعد تلك العنصرية والعنف يمكن أن نتوقع أن يأخذ الأطفال والشباب اليهود رافة أو رحمة بطفل فلسطيني ولو كان رضيعاً يحبوا لا يعرف من الدنيا شيئاً!

بل لا تجد الكتب المدرسية حرجاً في الإساءة الصريحة المنهجية لطائفة من الناس تعيش على الأرض نفسها؛ فقد ورد في كتاب "أرض الوطن" ما نصه: «تعليمات للحارس المستجد وفقاً لقوانين الحراسة يلتزم الحارس بأن يسمع دبة النملة على الأرض، وأن يكون سلاحه على أهبة الاستعداد، وأن يسترق السمع لببيت الزواحف العربية»⁽¹⁾.

النص ببساطة يصف عرقاً وشعوباً كاملة بالزواحف كالثعابين؛ ولا شك أن هذا يكفي كي يغرس في نفوس النشء كراهية العرب والنفور منهم، علاوة على الرغبة الجامحة في استئصالهم والتخلص منهم

(1) أبو مساعد، أسماء عليان (2011): صورة العرب والمسلمين في المناهج الإسرائيلية، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الإسلامية، كلية التربية، قسم المناهج وطرق التدريس، غزة، ص 42.

إن هذا الوصف السابق "الزواحف العربية" يمثل ضوءًا أخضر وتصريحًا بالقتل المباشر دون إبداء أسباب عند حصول أي احتكاك مع العرب أو عند ظهور أي بادرة اختلاف؛ لأنهم في النهاية ثعابين سامة، ولا لوم على المرء إن هو قتل ثعبانًا، بل إن ذلك يُحمد له!

وهنا تطالعنا قصة أخرى تبرز وحشية العرب من خلال الأفعال الرمزية؛ وهي قصة "الأمير والقمر" للكاتب "يوري ايفانز"؛ يقول:

«قالت الصغيرة لي: من الذي سرق القمر؟

قلت: العرب.

قالت: ماذا يفعلون به؟

قلت: يعلقونه للزينة على حوائط بيوتهم!

قالت: ونحن؟

قلت: نحوله إلى مصابيح صغيرة تضيء أرض إسرائيل كلها.

ومنذ ذلك الوقت، والصغيرة تحلم بالقمر، وتكره العرب، لأنهم سرقوا حلمها وحلم أبنائها.

هذا الصباح جاء أمير صغير إلى بيتنا وقال: هل تقبلونني ضيفاً؟

رضينا به، لكن الصغيرة قالت: على أن تقول لنا من أنت؟

قال: أنا فارس من فرسان الأرض، محارب قديم في أرض إسرائيل. مت صغيراً، لكنني أخرج مرة في

كل عام، أطوف في هذه الأرض، وأسأل إن كان شعبي يسكنها أم لا.

قالت الصغيرة: نحن شعبك، وأنا حبيبتك أيها الأمير.

قال الأمير: ما أروعك.. أطلب منك الملجأ ليلة واحدة، فتفتحين لي قلبك، أنت يهودية حقا.

قلت: نعم، كلنا هنا شعب إسرائيل.

ضرب الأمير برمحه وقال: إذن تحقق الحلم الآن أستطيع أن أعود إلى قبري مرتاح البال.

تشبثت به الصغيرة، وقالت: لا.. لم يتحقق الحلم بعد.

قال الأمير: كيف.

قالت الصغيرة: لقد سرقوا القمر.

قال الأمير "وهو يضرب برمحه مرة ثانية": من؟

قالت الصغيرة: العرب.

بصق الأمير على الأرض قال: الجبناء، كلهم لصوص وقتلة، لكن لا بأس.

سألت الصغيرة: وماذا سنفعل؟

قال الأمير: انتظري الليلة، سأعود لك بالحلم الجميل.

انتظرت الصغيرة، القت رأسها على إطار النافذة.

وظلت تنتظر إلى السماء.

ومرت الساعات، ونام الأطفال والنساء والرجال والشيخوخ، ولكن الصغيرة ظلت تنتظر، لم تياس ولم تستسلم للنوم، لأنها تعرف أن أطفال شعب إسرائيل لا يكذبون.

بعد منتصف الليل بقليل، انشقت الغيوم فجأة، ورأت الصغيرة القمر لأول مرة، رآته جميلا ورائقا، حدقت فيه طويلا، ثم ركضت إلى وقالت: استيقظ يا أبي، استيقظ، وقادنتني إلى النافذة وقالت: أنظر يا أبي، هل هذا وجه الأمير الصغير؟

قلت: يا بنتي، الذي سرق القمر هو الذي قتل الأمير الصغير.

لم تبك الصغيرة، فقد تحقق حلمها وأشرق القمر على أرض إسرائيل⁽¹⁾.

(1) نجم، السيد (2016): بذور العدائية في الأدب الصهيوني، مجلة الكلمة، العدد (114)، أكتوبر، متوافر على الرابط الآتي:

<http://www.alkalimah.net/Articles/Read/8525>

إن القصة السابقة قصة رمزية كثيرة لإيحاءات يمكن إجمالها على النحو الآتي:

- الذات اليهودية مبعثرة وتبحث عن لم شتاتها، كما أنها مملوءة بالخوف من المجهول.
 - اليهود يخافون من تجارب الماضي، وينظرون للمستقبل بوجل وريبة.
 - يبحث اليهود عن الاستيطان لكونه مسألة وجود؛ أي: أكون أو لا أكون.
 - يمثل العرب في هذه القصة وحشًا ظلاميًا يعيش في الظلام، ويريد أن تنطفئ المصابيح حوله؛ كي لا تعرف حقيقته، وكي يظل الحق اليهودي في الأرض مطموسًا لا يطلع عليه أحد.
- من الواضح أن اليهود يربون أبناءهم على العيش في دور الضحية كما فعلوا تمامًا مع النازية عندما سخروا آلة الإعلام الغربي من أجل الترويج للهولوكوست المزعوم الذي شكك فيه كثير من الباحثين الغربيين؛ مثل: الدكتور نورمان فنكلستين في كتابه المعنون بـ "صناعة الهولوكوست"، والباحث دوجلاس ريد" في كتابه "بعيدًا وواسعًا"، ولاقوا ما لاقوا من العنت والتضييق والتهميش، بل الملاحقات القضائية في كل مكان، وكأن الحديث عن هذه المسألة من المحظورات التي لا يمكن التطرق إليها ومناقشتها بشكل موضوعي وبالأدلة والحجج والبراهين، وإن كانت مسألة الهولوكوست وتعذيب اليهود على أيدي النازية محل خلاف وجدل وشك، فإن بروتوكولات حكماء صهيون لا يختلف عليها أحد⁽¹⁾، لكن الأطفال اليهود يعيشون في حالة من التغيب العقلي على المستوى الجمعي؛ في البيت، والمدرسة، والشارع، والإعلام وفي كل وقت وحين؛ ومن ثم فمن الطبيعي أن نجد مثل هذه القصص التي تصور العرب بأنهم اختطفوا القمر الذي يمثل الأمل والمستقبل وحلوه بطمعهم إلى مصابيح للزينة؛ لكونهم

(1) الصهيونية والهولوكوست المزعوم، وكالة الأنباء اليمنية سبأ، يناير 2021م،

<https://www.saba.ye/ar/news3126151.htm>

أنانيون يريدون أن يستفيدوا وحدهم بنوره، في حين يبحث اليهود عن القمر؛ كي ينير الطريق للسائرين المتعثرين في الظلام!

ولم ينسَ الكاتب أن يضمن بعض الرسائل؛ مثل: "لأنها تعرف أن أطفال شعب إسرائيل لا يكذبون"، لا شك أن الكاتب يقصد لا يكذبون فيما بينهم -وهذا بحسب مزاعم الكاتب- لكنهم يكذبون على غير اليهود، ويستحلون دماءهم وأموالهم وأعراضهم.

يبدو أن اليهود ينتظرون مخلصًا سيخلصهم من أعدائهم، وقد رمز له الكاتب بالأمير الصغير الذي يمثل الحلم والثأر والروح اليهودية منذ أقدم العصور، تلك الروح التي تصبو إلى الاجتماع في وطن بعد الشتات والتفرق في كل مكان، ولا يخفى أن هذا الوطن المزعوم سيقام على أنقاض أمة أخرى، وتنشأ سعادة اليهود على تعاسة الآخرين وأحزانهم وويلاتهم!

المبحث الرابع: الآخر القذر

الملاحظ أن الأدباء اليهود لم يستندوا إلى الواقع من خلال تجربة حقيقية عايشوها وتعرفوا فيها إلى العرب الفلسطينيين لا سيما أنهم يعيشون معهم على الأرض نفسها وتقلهم السماء نفسها، لكنهم أغمضوا عيونهم عن الحقائق وصموا آذانهم فلم يسمعوها إلا ما تمليه عليهم الصهيونية وأدبياتها وتصوراتها العدائية؛ ومن ثم كانت كتاباتهم انتقائية؛ فعمدوا إلى نماذج سلبية، وجعلوها نموذجاً يمثل الشعب العربي الفلسطيني؛ ظلمًا وبغياً وعدوانًا وليًا لعنق الحق والحقيقة⁽¹⁾.

ووتر القذارة الحسية أو المعنوية من الأوتار المهمة التي عزفت عليها أصابع الأدباء اليهود في محاولة لوصف العربي الفلسطيني بالقذارة، فنجد من هذه النماذج مثلاً قصة "صفية المسيحية" للكاتب "أشر براش"، يقول:

«كان أولادها الخمسة أولاد عرب بكل تفاصيلهم: الملابس القطنية القذرة، والشعر المنساب على مقدمة الرأس، وربما كان هناك دائماً التهاب مزمن بالعينين»⁽²⁾.

جعل الكاتب في القصة السابقة من أولاد تلك المرأة البائسة نموذجاً يصح انسحابه على شعب كالشعب الفلسطيني العربي، بل على العرب قاطبة، وجعلهم نموذجاً للقذارة في ملبسهم وهيئتهم وعيونهم التي أضناها الرمد بسبب التلوث وشعورهم الطويلة إهمالاً التي تعيث فيها الحشرات وترتع وتمرح؛ ما سبب لهم التهابات وتقرحات دائمة لا تزول.

لا شك أنها صورة منفرة تقع في نفوس النشء ممن يقرؤون تلك الأعمال الأدبية؛ فيتكون لديهم شعور متأصل بالرفض والامتناع والتقرز؛ فينشأ حاجز نفسي يعوق التواصل السليم بينهم وبين أبناء العرب. وهنا قصة أخرى تتناول مسألة القذارة بوضوح تام؛ وهي قصة "القرية العربية"، يقول الكاتب:

(1) ينظر: صميده، محمود: دور أدب الأطفال الإسرائيلي في خلق صورة سلبية للشخصية العربية الفلسطينية، ص 29.

(2) ينظر: صميده، محمود: الشخصية العربية في القصة الصهيونية القصيرة المعاصرة، ص 109.

«إن شروط النظافة والمحافظة على الصحة تكاد تنعدم بين العرب، والإجراءات الصحية التي لا يستطيع الإنسان العيش من دونها غير متوافرة في أي قرية عربية، حتى في القرى الغنية، ولعدم وجود المراحيض يقضي العرب حاجاتهم في أي مكان، فالأولاد يقضون حاجاتهم في الساحة أو الحظيرة أو البيت، أما الكبار فيأخذ الواحد منهم إبريقاً ويخرج إلى الحقل، وعادة الاستحمام تكاد تكون غير مألوفة عند العرب، وهناك بعض الفلاحين الذين لم يمس الماء أجسادهم منذ زمن طويل.. وهناك مثل عند العرب يقول: "الطفل الوسخ أصبح أشد"، والعرب يرتدون الثياب ولا يغيرونها إلى أن تبلى، حتى تمتلئ بالقمل والبراغيث، ويكلح لونها»⁽¹⁾.

• مظاهر القذارة المتعددة ودلالاتها:

تعددت مظاهر القذارة التي وصم بها الكاتب العرب دون استثناء، وعلى المستويات كافة لا فرق بين غني وفقير؛ ومن ثم فإنه يصف أمة كاملة بالقذارة، ومن هذه المظاهر:

عدم توافر المراحيض:

لنا أن نتخيل بيتاً من دون مرحاض؛ لا شك أنه ستتبعث منه الروائح القذرة المستكرهة من على بعد مسافة طويلة، ولن يقبل أي عاقل له بصيص دين وإيمان أن يدخل هذا البيت أو يتعامل مع سكانه لا من قريب ولا من بعيد، ومن نافلة القول إن مثل هذا البيت لا يقبل أحد أن يأكل طعامهم أو يشرب شرايبهم لما في حياتهم من هذه الأقدار المستهجنة.

عدم الاستحمام:

لا شك أن عدم الاستحمام عادة سيئة بل أسوأ العادات؛ لما فيها من انعكاس سلبي على النظافة الشخصية، وعلاوة على ذلك فإن عدم الاستحمام مجلبة لأمراض جلدية خطيرة؛ مثل: الجرب.

(1) قرانيا، محمد: النزوع العنصري في الأدب الصهيوني، ص 275.

تلفيق التراث:

إنه الكذب والبهتان والافتراء على أمة كاملة، وتلفيق تراث لها هي لا تعرف عنه شيئاً، ومن المعلوم أن الأمثال تعكس العقل الجماعي لأي أمة، وتجربتها وثقافتها ونمط معيشتها وأسلوب حياتها.

وقد ابتعد الكاتب كثيراً عن المنطق في زمان الفضائيات والصورة الحية التي تصلنا لحظة وقوع الحدث؛ حتى إننا صرنا في زماننا هذا الذي يعد بامتياز عصر الشاشة نرى الحرب نفسها لحظة بلحظة في أثناء جريان معاركها، نسي الكاتب أننا في عصر الانفتاح والمعرفة، وإن هؤلاء العرب الذين يتحدث عنهم لا وجود لهم أصلاً!

أين هؤلاء العرب الذين يرتدون ملابسهم ولا يغيرونها أبداً حتى تبلى وتتمزق وتتساقط عن أجسادهم المتسخة! لماذا لا نراهم في الفضائيات أو نسمع بهم في المحافل أو على مواقع التواصل! بل هل هناك أمة من الأمم بهذه القذارة المستحيلة؟!

لا نستطيع أن ندعي أن أمة من الأمم الكافرة بهذه القذارة التي ادعاها الكاتب على العرب كذباً وبهتاناً، وإن كان بعض الأفراد في كل أمة ممكن أن تنطبق عليهم تلك الصفات، لكن أن تكون أمة كاملة بهذا السوء، فهذا ما لا يقبله عقل أو منطق، ولا يصدق.

الواقع؛ فما بالنا والعربي من أنظف وأطهر الناس قاطبة، لا سيما إن كان مسلماً، فهو أطهر الناس على وجه الأرض دون مبالغة أو مزايدة، كيف لرجل يتوضأ في اليوم خمس مرات، ويغتسل من الجنابة، ويرتدي أنظف الثياب كي يدخل المسجد أن يقال عنه مثل تلك الترهات والأكاذيب!!

إن ما ذكره الكاتب وألصقه بالعرب هو محض أكاذيب ومبالغات موهلة في الكذب والافتراء، بعيدة عن المنطق والعقل، وكل من يعرف العرب والمسلمين يعلم في نفسه أنهم أمة الطهارة والنظافة والإيمان، لكن الكاتب يخاطب أطفالاً لا منطق لهم ولا عقل، يخاطب مشاعرهم ويعمي عيونهم ويسد آذانهم عن الحقائق؛ فلا يرون الشمس الساطعة المشرقة!

وتطالعنا قصة أخرى؛ وهي قصة "المرأة العربية" للكاتبة "نوريت زرحي"، تتناول صفة القذارة في محاولة لإصاقها بالعرب أيضاً، تقول:

«ها هو الحمام، سارعي الآن للاستحمام.. فالعادة عندنا في هذه المؤسسة، أن نستحم مرة واحدة في اليوم. خرجتُ وغادرت المكان، بينما بقيتُ معهن، وقفن ينظرن إليّ باستغراب. نظرت من حولي، فوجدت أن كل شيء جميل...

الأرضية من الرخام والحيطان تلمع... اقتربت أكثر فأكثر إلى الحمام، كانت مرافقه تتلألأ، الحنفيات مصنوعة من الذهب، الخاصة منها بالمياه الساخنة أو المياه الباردة... شاهدتهن وهن مستقلقيات، اقتربت من حوض الحمام... صرخن بي، نحن لا نكتفي بغسل الجزء الأسفل من جسمنا بل جسمنا كله.

قلت لهن: لكني اغتسلت في العيد، وأبلغتهن هذه الحقيقة... فنظرن إلي، وقالت إحداهن: أنت لست زهرة تستحم وتغتسل حسب فصول السنة، أنت إنسانة... أدخلني إلى الماء واستحمي لأنه ليس بإمكانك أن تسكني معنا وأنت قذرة ورائحتك نتنة.

كن جميعاً عاريات.. ركضت باتجاه الباب. لكن واحدة منهن كانت تراقبني، وتترصد لي، فمنعتني من الخروج.. نظرت إلى أعلى، واعتقدت أنني أستطيع القفز إلى الخارج من أي نافذة، لكنهن أحطن بكل الغرفة. تمكنت أن أزحزح إحداهن، الواقعة عند الباب، لكني لم أستطع أن أبعداها كثيراً، فقد كانت عارية تماماً... قالت لي بهدوء... ادخلي إلى الماء ورددن وراءها، ادخلي ادخلي... وعندها أحطن بي وكأنني مخلوق غريب... فجأة سمعت صوتاً يخاطبني: ادخلي يا فرحيا أنا مسرعة إليك، وإلا سألقي بك إلى الماء برغم أنفك... اندفعت إلى الداخل بحذائي وملابسي... كان هذا حظي العاثر حين فتحت على جسمي حنفية المياه المغلية التي تفور كالنار...

كن يصرخن: طهروها نظفوها، لقد دخلت المياه بملابسها القذرة، كلهن قفزن وتجمهرن حولي... رأيت أن هناك منفذاً يمكن اختراقه، فهربت إلى الخارج، صرخن من ورائي. إذا أبلغت المشرفة بما حدث لك هنا فسنقوم بحرق شعرك... هذه حقيقة ما جرى.. لكن شقيقها داوود لم يقدر أن يصدق ذلك، لأن هذه

المدرسة خصصت لتدريس مواد وموضوعات علمية متطورة جدًا، إنها الباب الذي نعبر منه إلى العالم الجديد...»⁽¹⁾.

واضح أنها تحكي قصة طالبة عربية أدخلت إلى السكن الداخلي للطالبات اليهوديات الفتاة العربية تبدو مذعورة من الجو، جاهلة بطريقة استعمال مرافق الحمام من ماء بارد وساخن، الأمر الذي حولها إلى موضع للسخرية.

لا تخلو القصة من لقطة فنية متمثلة في الاستناد إلى تقنية الحوار؛ وهي تقنية توحى بالموضوعية وأن الأنا والآخر قادران على الأخذ والرد والجدل والإتيان بالحجج والبراهين التي تدعم موقفه بحسب رؤيته وتوجهاته ومرجعياته الدينية والثقافية والتاريخية، ولكن المغزى يظل واضحًا وناشرًا، فالمرأة العربية شأنها شأن العرب جميعًا، قذرة وقليلة الاستحمام، والطالبات اليهوديات يقذنها إلى النظافة بالإكراه

هذا حوار بين مجموعة من الفتيات اليهوديات وفتاة عربية، سألنها: متى استحممت آخر مرة؟ وما سؤالهن ذاك إلا لما رأيته منها من قذارة بادية في الجسم والملابس، علاوة على رائحتها المنفرة، وقد أجابتهم بأن آخر مرة كانت في العيد الماضي، فأجبنها تلك الإجابة المتهمكة، وهنا يحاول الكاتب التركيز على بعض الأمور في القصة السابقة يمكن إجمالها على النحو الآتي:

سماحة اليهود:

تعكس القصة السابقة سماحة اليهود ومدى إنسانيتهم؛ فهم لا يحملون أية أحقاد على العرب؛ بدليل أن الفتيات لا يمانعن من أن تسكن معهن فتاة عربية، وما اعتراضهن إلا على قذارتها وسوء حالتها المنفرة، وعلاوة على ذلك فهن لم يرفضن أيضًا أن تسكن معهن، ولكنهن اشترطن عليها شرطًا عادلًا هو في مصلحتها هي في المقام الأول؛ أن تستحم وتهتم بنظافتها الشخصية!

(1) سمعان، سمير، السواحري، خليل (2004): التوجيهات العنصرية في مناهج التعليم الإسرائيلية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ص 98.

قذارة العرب:

إن الفتاة العربية في القصة شابة لا طفلة؛ بدليل أنها ستسكن بعيدًا عن أسرتها؛ فإذا كانت شابة بهذه القذارة، فما بالنا بالأطفال! تريد الكاتبة أن تشير إلى أن العرب لا يعرفون الاستحمام، ومن يعرفه منهم، فإنما يكون ذلك في مناسبات سنوية!!

وليت الأمر يقف عند هذا الحد، بل نجد بعض القصص تتبالغ في السخرية؛ ومن ذلك قصة "الأصدقاء" التي ورد فيها ما نصه:

«تقدم اليهودي الطيب شمعون بهدية مهمة ومناسبة لصديقه العربي أحمد الذي يقيم الليلة حفلة زفافه، كانت هدية اليهودي الطيب شمعون لصديقه أحمد عبارة عن قطعة من الصابون، لقد أحضر شمعون قطعة الصابون لإدخال السرور إلى قلب صديقه وأسرته؛ فرح العربي كثيرًا بهذه الهدية القيمة، فقام وفتحها أمام الحضور، وابتلع منها قطعة، وناول ما تبقى منها إلى زوجته العربية! لكن شمعون بادر إلى صديقه موضحًا أن الهدية ليست قطعة حلوى، بل صابون للاستحمام، وإزالة النجس والقذارة عن جسده المتسخ⁽¹⁾.

تتجلى في القصة السابقة عدة ملامح، يمكن إجمالها على النحو الآتي:

- سماحة اليهود والتعايش مع الآخر:

يحاول الكاتب في القصة السابقة أن يبرز سماحة اليهود وطيبة قلوبهم وقدرتهم على التعايش مع الآخر، بل إقامة علاقة صداقة معه مبنية على المودة والمجاملات وحضور المواقف المختلفة؛ حتى عن شمعون اليهودي بادر بحضور زفاف صديقه العربي، بل أهده هدية غالية! كي يفرحه ويفرح عروسه.

- قذارة العرب وجهلهم:

يريد الكاتب أيضًا أن يبرز لنا قذارة العرب في شيء من الفكاهة المسمومة التي ينبثق من جنباتهم المكر والكبر والعداوة والبغضاء، فقد بلغ الجهل -بحسب الكاتب- بذلك الصديق العربي حدًا جعله لا

(1) قرانيا، محمد: النزوع العنصري في الأدب الصهيوني، ص 276.

يعرف الصابون؛ ما يدل على أنه لم يستخدمه طوال حياته!! على الرغم من أن العرب منذ فجر زمانهم عرفوا المنظفات كالأشنان⁽¹⁾، والنورة⁽²⁾، وغيرهما، وكان لهم الحمامات العامة والخاصة.

وهنا سأعرض قصة عجيبة ربما أعجب من كل سوابقها؛ إذ يقول "موشيه سميلانسكي" في قصته "القرية العربية" بـ«أن امرأة عربية أقسمت بالله أنها ولدت ستة أولاد دون أن يمس الماء جسدها»⁽³⁾.

هنا نتساءل: هل من المعقول أن تلد امرأة مهما كان عرقها أو دينها دون أن تتطهر من دماء الولادة وأقذارها!! فمن يخاطب هؤلاء، لا شك أن مخاطبة الأطفال هينة يسيرة، لا تحتاج إلى منطق أو عقل، لكن غاب عن الكاتب أن طفل اليوم يختلف تمامًا عن أطفال الماضي!!

وقد استخدم الأم تحديدًا؛ لأنها هي التي تربي، وهي مدرسة يتعلم منها الأبناء، فإذا كان هذا حال الأم، فلنا أن نتخيل حال الأبناء وحال المجتمع العربي بأسره، وقد استعمل الكاتب القسم في القصة السابقة؛ لأنه يتحدث عن شيء غير طبيعي، أمر شاذ يصعب تصديقه في المجتمعات المتحضرة، وذكر الميلاد؛ لأنه من أكثر الأمور التي تتطلب النظافة الشخصية.

وهنا يطالعنا نموذج قاتم آخر، يقول الكاتب "أدير كوهن" في قصة "وجه قبيح في المرأة":

«هيا ندخل إلى القرية العربية وفور وصولنا استقبلتنا مجموعة من الأطفال القذرين ويرتدون الأسمال البالية وحفاة الأقدام، وأحاطوا بالخيول التي نمتطيها ومن كل مكان برز كلب ينبج ويقفز على ثلاثة

(1) الأشنان: مادة منظفة تستعمل لتنظيف الأيدي عقب الأكل. ينظر: أبو منصور الأزهري: تهذيب اللغة، مادة (ح، ر، ض)، (121/4).

(2) النورة: مادة تشبه الجبس كانت تخلط مع الزرنخ لإزالة الشعر. ينظر: الحميري، نشوان بن سعيد اليماني (1999): شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، تحقيق: د. حسين بن عبد الله العمري، مطهر بن علي الإيراني، د. يوسف محمد عبد الله، ط1، دار الفكر المعاصر، بيروت، مادة (ن، و، ر)، (6791/10).

(3) نجم، السيد (2016): بذور العدائية في الأدب الصهيوني، مجلة الكلمة، العدد (114)، أكتوبر، متوافر على الرابط الآتي: <http://www.alkalimah.net/Articles/Read/8525>

أرجل وبينما كنا في طريقنا... مررنا بقرية عربية ووجدنا أنفسنا أمام كهوف عربية يتصاعد منها دخان
المواقد والكلاب الكريهة المنظر تنبج أمامنا»⁽¹⁾.

لعل هذا الكاتب مولع بأفلام الغرب الأمريكية ذات الدعاية السيئة المغلوطة والمكذوبة تجاه الهنود الحمر
السكان الأصليين لأمريكا الذين استعمل الرجل الأبيض الأوربي معهم النمط الاستعماري الإحلالي؛
من خلال إبادة شعب، وإحلال شعب آخر مكانه، استطاع الأمريكيان استئصال الهنود الحمر، ولم يكتفوا
بذلك، بل حاولوا التغطية على جرائمهم البشعة في حق الإنسانية من خلال إنتاج عشرات بل مئات
الأفلام التي تصور الهنود الحمر على الهيئة نفسها التي وردت في القصة السابقة؛ مجموعة من
الكائنات التي تشبه الإنسان، تعيش عيش القروء في كهوف وبنائات طينية بدائية، تنتشر حول تلك
الديار سحب الدخان هنا وهناك، وحيواناتهم تسير في الطرقات دون نظام، وكلابهم القذرة وأطفالهم تلهو
وتنبج في كل مكان؛ إنه المشهد ذاته الذي يعرفه كل من عرف أفلام الغرب الملفقة المفعمة بالأكاذيب،
إن الدعاية الصهيونية تمارس اللعبة القذرة نفسها، لكن الفارق أننا سمعنا بالهنود الحمر ولم نرهم، لكن
العالم كله سمع ورأى العرب!

وفي القصة نفسها دعونا نتوقف قليلاً مع هاتين الفقرتين:

يقول الكاتب في الفقرة الأولى: «لقد اقترب منا نادل ضخمة الجثة كبير الكرش ليستقبل طلباتنا. وكان
المكان صغيراً قذراً ولكن كان الجلوس في المقهى أفضل بكثير من التعرض لأشعة الشمس اللاهبة في
الشارع، وكانت هناك مروحة قديمة مدلاة من السقف وصاحب المقهى يقف وراء المنضدة ينكش أسنانه
الصفراء وينظر نحونا نظرات لا معنى لها وكان النادل يطرد الذباب بمنشفة قذرة»⁽²⁾.

(1) كوهن، أدير (1988): وجه قبيح في المرأة، ترجمة: غازي السعدي، ط1، دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث
الفلسطينية، ص 60.

(2) السابق: ص 63.

ويقول في الفقرة الثانية: «وبينما كان في طريقه إلى الفندق بيافا شاهد: جماهير مختلفة الأشكال وسمع أصوات الجمال والحمير تتردد في الطرقات كما شاهد قطيعا من الأغنام يسير في الطريق وراعٍ عربي يحلب الحليب في وعاء قذر⁽¹⁾».

من الواضح أننا أمام إلحاح من الأدباء اليهود على مسألة القذارة والتنفير الحسي من العرب، ولا شك أن هذه الحيلة مأكرة جداً وتتطلي على الأطفال تحديداً الذين يتقززون من الأقدار، وبينهم وبين الأشياء المتسخة عداً أصيل، إنها حيلة ناجعة لتنفيرهم من العرب بما يستطيعون إدراكه من المظاهر الحسية الملموسة والمشاهدة.

(1) السابق: ص 65.

الفصل الثالث

مقارنة الصورتين

مقدمة:

تناولتُ في الفصلين السابقين صورة الصهيوني في قصص الطفل الفلسطيني، وصورة الفلسطيني في قصص الطفل الصهيوني؛ وذلك في محاولة للدرس والتحليل من خلال التعاطي مع المسألة من منظور أدبي وبأدوات علمية يوفرها المنهج الوصفي؛ بغية الوصول إلى نتائج موضوعية تتسم بالقياس.

وفي هذا الفصل سأتناول الفصلين السابقين بالموازنة بين الصورتين في عدة محاور؛ هي:

1. الأساليب.
2. تقنيات السرد.
3. التصوير.
4. الاستناد إلى الواقع والخيال.
5. التواصل مع التراث من عدمه.

وهي كلها محاور فنية يمكننا من خلالها الحكم الموضوعي على مدى تمتع هذه القصص بالنواحي الفنية الجمالية.

أما الأسلوب، فيشمل محاور فنية؛ منها: الخبر والإنشاء، والتكرار، والتقديم والتأخير، والألفاظ، والجمال الاسمية والفعلية، وأما تقنيات السرد، فهي بعض الأدوات الفنية التي تقيم صلب السرد في أثناء القصة؛ ومن ذلك: الاسترجاع، والاستشراف، والحوار... الخ. وأما التصوير، فيشمل الصور المجازية الجزئية، والصور الكلية المعتمدة على عناصر اللون والحركة والصوت، علاوة على تنوع المشاهد، وأما الاستناد إلى الواقع والخيال، فيشمل الاعتماد على الواقع نفسه بوصفه خلفية للعمل الأدبي، أو الاستناد إلى الخيال والأحداث الأسطورية أو الرمزية بوصفها أرضية للمعالجة القصصية والفنية، أما التواصل تراث، فهو عبارة عن الاتكاء على أحداث أو شخصيات أو رموز تراثية في تاريخ أمة ما؛ لتكون منطلقاً لفهم

أو تفسير أو وضع رؤية للأحداث المعاصرة أو تبني وجهة نظر بعينها؛ لأنها مدعومة بأدلة تاريخية وبراهين قديمة.

المبحث الأول الأساليب

المطلب الأول: تعريف الأسلوب:

الأسلوب لغة:

الأسلوب في اللغة يعني الطريقة أو الفن؛ وهذا يعني أنه يعبر عن أداء العمل الفني بالمعنى الواسع للفن بما يشمل الحرفة والصناعة؛ فكل صانع أو فنان له طريقته في الأداء وإنجاز المهمة التي بين يديه؛ سواء أكانت عملاً أم منتجاً أم أدباً⁽¹⁾.

الأسلوب اصطلاحاً:

عرفه جوزيف ميشال بأنه مزج الأداء الشخصي في عملية البناء اللغوي بغض النظر عن الغاية من ذلك⁽²⁾، في حين رأى شارل بال أن الأسلوب هو الاستعمال اللغوي الذي يميز شخصاً عن آخر⁽³⁾، ويرى بوفون أن الأسلوب خصيصة ملازمة لصاحبها في الاستعمال اللغوي لا يمكن تكرارها؛ فالأسلوب عنده يعني الإنسان نفسه⁽⁴⁾، ويرى منذر عياشي أن للأسلوب أبعاداً تتمثل في كونه لسانياً، ونفسياً، واجتماعياً⁽⁵⁾، ويرى رفاتير أن الأسلوب عبارة عن بعض العناصر التي يريد الكاتب لفت انتباه القارئ إليها لما تحمله من دلالات معينة⁽⁶⁾، بيد أنني أرى أن الأسلوب سمة لدى الكاتب غير مقصودة منطبعة في نفسه تتجلى آثارها وانعكاساتها في أعماله دون وعي منه.

(1) ينظر: الرازي، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي (1999): مختار الصحاح، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، ط5، المكتبة العصرية، بيروت، مادة (س، ل، ب)، ص 151.

(2) ينظر: شريم، جوزيف مشال (1984): دليل الدراسات الأسلوبية، ط1، المؤسسة الجامعية، للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، ص 39.

(3) ينظر: السابق: ص 85.

(4) ينظر: عياد، شكري محمد (1988): اللغة والإبداع، ط1، إنترناشيونال للطباعة، الجيزة، ص 24.

(5) ينظر: عياشي، منذر (2002): الأسلوبية وتحليل الخطاب، ط1، مركز الإنماء الحضاري، سورية، ص 37.

(6) ينظر: السابق: ص 38.

المطلب الثاني: الخبر والإنشاء:

1- مفهوم الخبر والإنشاء:

أما الخبر في اصطلاح البلاغيين، فهو ما يحتمل الصدق أو الكذب لذاته؛ أي: يكون لنسبته خارج تطابقه أو لا تطابقه، أو لا يكون لها خارج، وبغض النظر عن قائله⁽¹⁾، أما الإنشاء، فهو عكس الخبر؛ أي: لا يحتمل الصدق والكذب، بل يكون بناء يراد به غرض آخر غير الفائدة ولازمها اللذين هما من خصائص الخبر⁽²⁾، للخبر أغراض أصلية يقضي بها الاستعمال الظاهري الأصلي للغة، تتمثل في الفائدة ولازمها، والأولى هي إلقاء الخبر لمن لا يعرفه؛ فيستفيد بذلك الوقوف على مضمونه، أما الثانية، فيراد بها إعلام المتلقي بأن المتكلم يعلم مضمون الخبر⁽³⁾، ولا يقتصر الأمر عند هذا الحد، بل يتعداه لتنتقل أغراض الخبر من الحقيقة إلى المجاز؛ فنرى للخبر أغراضاً أخرى كثيرة مجازية يحددها السياق والمقام⁽⁴⁾.

2- الخبر والإنشاء في الصورتين:

أولاً: الخبر في صورة الآخر الصهيوني كما عالجتها قصص الطفل الفلسطيني: وسأتناول الأخبار التي وردت في تلك القصص وكان لها أغراض مجازية، وسأقف مع تلك الأخبار بالبيان والتحليل؛ هنا وردت عدة أخبار ذات دلالات ومعان مجازية، يمكن تناولها على النحو الآتي:

-
- (1) ينظر: الخطيب القزويني، محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي (دت): الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، ط3، دار الجيل، بيروت، (1/55-56).
 - (2) ينظر: العلوي، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني (1423): الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، (1/26).
 - (3) ينظر: بهاء الدين السبكي، أحمد بن علي بن عبد الكافي، أبو حامد (2003): عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، تحقيق: د. عبد الحميد هندواي، ط1، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، (1/112-117).
 - (4) ينظر: الطرّابلسي، ابن عبد الحق العمري (2018): دُررُ الفرائد المُستَحسنة في شرح منظومة ابن الشَّخْنة، تحقيق ودراسة: د. سُلَيْمان حُسَيْن الغُميرات، ط1، دار ابن حزم، بيروت، ص 13 وما بعدها.

دلالة الخبر على البراءة والمسالمة:

من ذلك ما ورد في قصة "ليلي وفرن الصمود" للكاتبة روضة الهدهد تجسيد لتلك الصورة الوحشية عن المحتل الغاصب، فتحكي: "تحملان إبريق الشاي وتنتظران عودته من الجامع"، هذا الخبر ينم عن المسالمة والبساطة؛ فنحن أمام طفلتين بريئتين تتعاونان في حمل إبريق الشاي في انتظار أبيهما الذي يحرص على أداء الفرائض في صلاة الجماعة؛ إن مثل هذه الأسرة البسيطة لا يمكن لأحد أن يصفها بالإرهاب أو العنف.

إظهار ظلم العدو ووحشيته:

تحقق ذلك في القصة من خلال قول الكاتبة في القصة السابقة نفسها: "لم يكن هناك سبب واحد ليطلق هذا المستوطن الإسرائيلي النار على بناته وفرنه"، إن هذا الخبر لا تقتصر دلالاته على حدود ألفاظه وإعلام المتلقي بحقيقة عدم وجود أسباب لإطلاق المستوطن النار على الفتاتين، بل تتخطى الدلالة فائدة الخبر لتعكس للمتلقي مدى ظلم العدو الصهيوني ووحشيته التي تجاوزت المدى وحدود الإنسانية، فلو افترضنا أن هناك عداوة بين هذا المستوطن وبين الرجل الفلسطيني والد الطفلتين، فليس هناك أي دين أو عرف أو خلق يقبل بقتل هاتين الطفلتين البريئتين؛ ومن ثم كان هذا الخبر كاشفًا لحقيقة الصراع العربي الصهيوني ومدى فظاعة الصهيوني.

غياب القانون والعدالة:

يتجلى هذا المعنى وينعكس من خلال الجملة الخبرية في قول الكاتبة في القصة نفسها: "بينما هرب القاتل إلى المستعمرة القريبة ألون موريه"، يبين هذا الخبر حقيقة غياب العدالة والقانون عن الأرض المحتلة تحت وطأة العصابات الصهيونية الغاشمة.

جبن العدو وخسته:

يتجلى هذا المعنى الذي تدل عليه الجملة الخبرية في قصة "الحرب" للكاتب عبد الرحمن عباد؛ يلح الكاتب في القصة على فكرة السيطرة والأخذ التي هي صفة ملازمة لكل محتل للأرض بقوة السلاح، يقول الكاتب على لسان الأم ردًا على سؤال ابنها الذي سألها قائلاً:

- "هل يعرف أبي العدو وهل يراه بالعين.

- لا يا ولدي.. إنه لا يراه.. لأنه يختبئ في الخنادق".

إن جواب الأم مجرد جملة خبرية من المفترض أنها تحمل فقط لهذا الطفل الصغير فائدة الخبر؛ لأنه بالفعل لا يعرف لماذا لا يرى أبوه العدو، لكن الخبر موجه للمتلقي برسائل ضمنية محملة بطاقة تعبيرية ودلالية كبيرة؛ فنحن أمام عدو جبان لا يستطيع المواجهة، بل يتوارى دائماً خلف الجدران أو داخل الخنادق، وقد وصفهم الله -تعالى- في محكم التنزيل بذلك؛ قائلًا: {لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ لَا يِقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ} (1).

مماثلة العدو وإخلافه الوعد:

نجد هذه الدلالة في الجملة الخبرية حاضرة في قصة "الكنيسة والمقبرة" للكاتبة روضة الهدهد؛ تقول الكاتبة على لسان الأم التي تشرح لابنها لماذا ليس لهم بيت طبيعي ويعيشون في مخيم على الرغم من أنهم في بلادهم:

- "ولكن الأسبوعين أصبحنا سنتين، والسنتين صارتا أربعًا، ونحن ننتظر السماح لنا بالعودة إلى بيوتنا".
إن الخبر السابق أعمق بكثير من مجرد فائدة الخبر؛ إنه يبين بوضوح مماثلة العدو الصهيوني وإخلافه الوعد وعدم التزامه بكلمة أو عهد أو ميثاق؛ ما يجعل الحرب معه مريعة قاسية؛ لأنه لا يراعي أي شرف أو التزام في الخصومة، ولا شك أن الحرب وإهلاك الناس ليس هدفًا في حد ذاته، كما أنه لا ينبغي أن تكون الخصومة دون قواعد مسندة إلى الأخلاق والشرف.

(1) سورة الحشر، الآية 14.

الحسرة والشوق:

من قصة "الكنيسة والمقبرة" للكاتبة روضة الهدهد، نجد أن هذا المعنى يتجلى في جملة خبرية على لسان الأم؛ تقول:

-والله كل يوم أحلم أنني ذهبت إلى بيتنا، وأحضرت غرضًا من أغراضي أو فستانًا من فساتيني أو بنطالًا من بناطيل أولادي.

إن الجملة الخبرية السابقة تحمل للمتلقى شحنة كبيرة من مشاعر الشوق للديار النائية البعيدة المغتصبة، علاوة على الحسرة على تلك الديار الضائعة بما فيها من جمال وسعادة ومؤانسة وأيام جميلة لا يرتجى رجوعها، ولا يخفى أن العدو الصهيوني كان وراء ذلك.

خيرات وبركات فلسطين وأصحابها الحقيقيون:

تتجلى هذه الدلالة في قصة "كفر قاسم والمحاكمة العادلة" للكاتبة روضة الهدهد؛ تقول: "في قرى المثلث العربي" وفي السهول والجبال المحيطة تنتشر أشجار الزيتون خضراء.. يانعة.. عميقة الجذور متفرعة الأغصان، زرعها ويزرعها أهل القرى العرب منذ مئات السنين وإلى مئات السنين القادمة"، في الجملة الخبرية السابقة تتجاوز الدلالة الأصل في الإفادة إلى منح المتلقي تصورًا عن طبيعة خيرات فلسطين العامرة منذ مئات السنين بسواعد بنيها العرب الذي غرسوا وزرعوا وشيدوا وعمرُوا بلادهم وجعلوها جناتًا تسر الناظرين؛ ومن ثم فهم السكان الأصليون وأصحاب الأرض والخيرات ورثوها جيلًا عن جيل.

الصهاينة غرباء وافدون:

هذه دلالة مهمة وخطيرة في حركة الصراع العربي الصهيوني؛ لأنها تُعدّ مرتكزًا أساسيًا في تحديد الحقوق والمسؤوليات، وقد ظهرت هذه الدلالة المهمة في قصة "زيتونة ستي حفيظة" للكاتبة روضة الهدهد؛ تقول: "أما مناحيم فقد جاء إلى فلسطين من مدينة نيويورك من أمريكا.. وأما زوجته فجاءت قبله إلى فلسطين من بلد اسمه إيرلندا"؛ إذن نحن أمام شذاذ آفاق جاؤوا من كل حذب وصوب؛ كي يتجمعوا في

وطنهم المزعوم زورًا وبهتانًا؛ وكأن هؤلاء العرب أصحاب الأرض ليسوا بشرًا، بل مجرد كائنات يمكن إبادة وتطهير الأرض منها؛ كي يعيشوا مكانهم في هدوء وسكينة ويتنعموا بخيراتهم.

الصهاينة لصوص حقراء:

هذه دلالة مهمة مرتبطة بالعدوان والاحتلال، وقد تجلت هذه الدلالة عبر الجملة الخبرية في "الزمن الحزين في دير ياسين"؛ فقد بينت الكاتبة روضة الهدهد جانب اللصوصية في الصهاينة وأنهم لاهم لهم إلا سلب ممتلكات العرب الفلسطينيين؛ تقول الكاتبة: "يا الله! إنها تأخذ من يديها أساور الذهب، بل وتأخذ الحلق من أذنيها.. هكذا إذن.. يريدون أيضًا سرقة الذهب والأموال من أهل القرية"، نحن أمام قطاع طرق وليسوا مجرد جيش معتدٍ مغتصب يعمل من خلال تنظيم عسكري له ثوابته وقواعده، بل هم مجموعة من قطاع الطرق واللصوص، كانوا لصوصًا قبل أن ينضموا لجيش الاحتلال، ثم صاروا أكثر لصوصية بعد انضمامهم في بيئة إجرامية تمتلك السطوة والقوة أمام شعب أعزل ضعيف ليس لديه الإمكانات المناسبة لرد هذا العدوان.

الصهيوني مفسد:

هذه الدلالة ترتبط بكل محتل غاصب؛ حتى إننا يمكننا القول بأن كل محتل مخرب؛ لأن الاحتلال اقتحام وسلب، ولا شك أن السلب والاقتحام يصاحبه التخريب، لكن مع الصهيوني نجد أن الأمر يتعدى التخريب المصاحب للاقتحام والسلب؛ إذ نراه يفسد دون أي حاجة تدفعه إلى ذلك، وقد عبر الخبر عن ذلك في "سر القنابل الموقوتة" للكاتبة روضة الهدهد؛ فقد جاء على لسان أحدهم ساخرًا مستكبرًا: "هذا ما يحصل عندما يفتح الجندي المستعمر تنكة الزيت بكل وحشية وقسوة، لينسكب الزيت الغالي على الأرض، ويملأ البيت والأرض والملابس... عندها لا يكون زيتًا... يكون ثورة تملأ النفس... يكون حقًا... يكون نارا تشتعل في نفوس نساءنا وأطفالنا ضد هذا المستعمر...!".

لنا أن نتخيل أن فتح تنكة زيت أو شوال قمح بطريقة اعتيادية كيف أنه يحفظ الثروات والخيرات، لكنه الحقد والرغبة في إهلاك ما عند الفلسطينيين من خير؛ لجعلهم يعانون تحت وطأة الحاجة والعوز؛ ومن ثم فقد عبرت لنا الجملة الخبرية السابقة عن حالة من الإفساد.

الإيمان بتحقيق العدالة يومًا ما:

الفلسطيني يؤمن بالعدالة وأنها لا بد متحققة يومًا ما مهما بلغ الظلم والفساد، وربما لا يراها جيل، لكن لا بد أنها ستحقق على يد جيل ما من المناضلين؛ هذه الدلالة المهمة نستطيع أن نلمحها في إحدى الجمل الخيرية؛ كما هو الحال في قصة "كفر قاسم والمحاكمة العادلة" للكاتبة روضة الهدهد؛ تقول:

- الحق لا يضيع يا بني أبدًا وربك يمهل ولا يهمل.. وإن لم نأخذ بثأر قتلانا اليوم، فمن يدري من منكم سيثأر للقتلى وللأرض المحتلة وللشجر المسروق وللأرجل المقطعة وللأجنة.

إن هذه الجملة الخيرية مفعمة باليقين بأن العدالة قادمة لا محالة في يوم من الأيام مهما اشتدت الأحوال وأحاطت بالجميع الكوارث من كل ناحية؛ وهو إيمان مستمد من الإيمان بالله الواحد الأحد؛ ومن ثم يمكن أن يقال بأن الأمل لدى الفلسطينيين إنما هو ينبثق عن عقيدة راسخة.

ثانيًا: الإنشاء في صورة الآخر الصهيوني كما عالجتها قصص الطفل الفلسطيني:

استعملت القصص الفلسطينية التي تناولت صورة الآخر الصهيوني الأساليب الإنشائية الطليعية استعمالات مجازية انتقلت فيها الدلالة من الحقيقة للمجاز، ويمكن بيان هذه الدلالات على النحو الآتي:

التعجب والاستنكار:

ورد ذلك في قصة "ليلي وفرن الصمود" للكاتبة روضة الهدهد التي حاولت تجسيد الصورة الوحشية عن المحتل الغاصب، فتقول على لسان عبد الله الفران بعد استشهاد طفليته على يد أحد المستوطنين:

"كيف يأتي هؤلاء اليهود الصهاينة ليحتلوا أرض فلسطين وليقتلوا أبناءها؟ كيف يأتي هذا المستوطن الإسرائيلي ليسكن قرب نابلس، ثم يقتل ابنته البريئة عائشة؟".

في العبارتين السابقتين خرج الاستفهام من معناه الحقيقي؛ إنما أمام استفهام يقطر حزنًا ممزوجًا بالتعجب والاستنكار؛ فلا شك أن تلك الأحداث عجيبة لا يستوعبها العقل والمنطق، وليس لها مثل في بلاد الناس؛ فالغريب في كل مكان ضعيف أو مستضعف، لا حيلة له، ولا يمكن أن يمثل تهديدًا لأهل البلاد، إلا فلسطين التي منيت بشذاز الأفاق الذين عاثوا فسادًا، وقتلوا أبناء الوطن.

الدعاء :

وقد تحققت هذه الدلالة في قصة "الحرب"، للكاتب عبد الرحمن عباد؛ يقول الكاتب على لسان الطفل

زيدون الذي ذهب والده إلى الحرب:

يا رب، أرجع لنا أبي سالمًا.

هنا يتجلى منحى مهم في الصراع العربي الصهيوني؛ يتمثل في سلاح الدعاء؛ ما يوضح الجانب

المظلوم المؤمن الذي يتجرد من كل حول وقوة، ويركن إلى حول الله وقوته.

الاستبعاد:

تحقق ذلك في قصة "كفر قاسم والمحاكمة العادلة" للكاتبة روضة الهدهد، التي تقول على لسان الجدة:

من قال بعد هذا العمر إنني سأصبح عاملة في أرضنا ذاتها التي كنا نملكها؟

إن الاستفهام هنا قد خرج من معناه الحقيقي وهو طلب الفهم بحسب الأداة التي هي هنا "من" من معنى

الاستبعاد والحسرة؛ استبعاد أن يقول أحد هذا الأمر؛ لأنه بعيد جدًا؛ إذ ما كان يخطر على بالها أن

تفقد أرضها، ثم تصير عاملة بها؛ ومن هنا تأتي الحسرة والكمد!

الحسرة:

نجد ذلك في في القصة نفسها "الزمن الحزين في دير ياسين"؛ إذ تقول الكاتبة:

- ليتهم استعدوا لهذا قبل الآن.. ليتهم اشتروا السلاح بدل الذهب! ليتهم اشتروا البنادق للدفاع

عن قريتهم!

إن "ليت" هنا لا تفيد التمني الذي هو معناها الأصلي، بل خرجت إلى معنى التحسر على ما فرط فيه

العرب بعدم أخذهم بأسباب القوة ومقومات الوجود في عالم لا يفهم إلا منطق الأقوياء، ولا يحترم إلا

نوي الشوكة ويرهب جانبهم ويخشى انتهاك حماهم.

ثالثاً: الخبر في صورة الفلسطيني كما عالجتها قصص الطفل الصهيوني:

وهنا سأتناول الأخبار التي وردت في تلك القصص وكان لها أغراض مجازية، وسأقف مع تلك الأخبار بالبيان والتحليل؛ وقد وردت عدة أخبار ذات دلالات أو معان مجازية، يمكن تناولها على النحو الآتي:

لصوصية العرب:

تصور الجملة الخبرية لصوصية العرب وأنهم قطاع طرق يحترفون السلب والنهب في عصابات مارقة، وقد تجلّى ذلك بوضوح في قصة "دافيد ونعمان" للكاتب روز يانكسن، وهي قصة تبرز معاناة اليهود من هجمات العرب على مواقعهم؛ تقول القصة: "في نهاية عام 1929م، هجم قطاع طرق لصوص عرب على الأرض، ونهبوا وسرقوا كل شيء في طريقهم...".

في ظاهر الأمر يبدو للقارئ أن هذا خبراً اعتيادياً في أثناء السرد يفيد الفائدة الطبيعية للخبر، بيد أن الكاتب يرسل من خلاله رسالة واضحة مفادها أن العرب لصوص يهجمون على اليهود الأبرياء، ويسلبون منهم خيراتهم التي ترعرعت على أيديهم؛ فقلب الكاتب المنطق عندما جعل أصحاب الأرض لصوصاً يسرقون خيراتهم التي انتزعها الغازي.

الشغب والعدوان:

مسألة الشغب والعدوان من الأمور البارزة التي عزف على وترها الكتاب اليهود في قصصهم للأطفال؛ تلك القصص التي تصور الفلسطيني وترسخ لصورة إجرامية مشوهة في نفوس الأطفال وعقولهم، ونحن الآن بصدد دلالة الجملة الخبرية على الشغب والعدوان، وهي دلالة قريبة من الدلالة السابقة "للصوصية"، وقد ظهر ذلك في قصة "من الذي يركض في الأزقة" للكاتب زئيف وردي يقول:

"فجأة ظهر من زقاق جانبي بعض المشاغبين العرب وبدؤوا بضربنا دون أن نعمل لهم أي شيء...".

ولا تستطيع تلك القصص أن تجيب على سؤال افتراضي مفاده: ما العلاقة بين العرب المشاغبين هؤلاء وبين اليهود الأبرياء؟ لماذا جمعت هذه الأرض بين هذين الصنفين من البشر طالما أنهم ليسوا شعباً واحداً؟!

العربي مفسد:

هذه الدلالة أيضًا ليست بعيدة عن الداليتين السابقتين؛ إذ يلح الكتاب اليهود على وصم العرب بالوحشية والإفساد، وسلب المعاني والصفات الإنسانية منهم، وهذه الدلالة عبرت عنها الجملة الخبرية في فقرة لفورتل؛ يقول: "الناس تحولوا لحيوانات مفترسة؛ لم يكتفوا بتكسير زجاج نوافذ بيوت اليهود والهجوم عليهم في الشوارع، بل اقتحموا البيوت وسلبوا ما فيها دون أن يوقفهم أحد...".

الملاحظ أن القصص الفلسطينية واليهودية تتلاقى في دلالات الخبر عند مسألة الإفساد؛ وكأنّ هذه الدلالة تعبر عن الكراهية والرفض من أي طرف.

العربي لا يحترم المقدسات:

يصور الكتاب اليهود العرب في قصص الأطفال بأنهم قوم همجيون لا علاقة لهم بالله؛ ومن ثم لا يتورعون عن الاعتداء على المقدسات؛ فلا فرق بينها وبين غيرها في نظرهم، وقد تجلى هذا المعنى في دلالات الخبر؛ ومن ذلك ما ورد في قصة "مقاصد من الحدود الشمالية" التي ورد فيها ما نصه: "لقد باغت العرب اليهود كالحوانات المفترسة، وراحوا يسلبون ممتلكاتهم حتى المدارس والمعابد الدينية لم تسلم من بطشهم".

فالعربي حيوان مفترس، يسرق وينهب ويسلب، يبطش بكل شيء، ولا يفرق بين البيوت، وبين المدارس التي هي صروح العلم، والمعابد التي هي بيوت الله في أرضه!

وتظل الحلقة مفقودة؛ تلك الحلقة التي يتحاشاها الكتاب اليهود؛ وهي ذكر بداية ظهور اليهود على تلك أرض تلك البلاد؛ كيف جاؤوا؟ ومن أين؟ ومن سمح لهم؟ وبأي حق؟...؟...

العربي خائن ذليل بطبعه:

مسألة الخيانة والذل من الأمور التي دأب على تناولها الكتاب اليهود في قصصهم الموجهة للأطفال؛ لتشكيل وعيهم تجاه العدو التقليدي، ويمكننا أن نلمح تلك الدلالة في الجملة الخبرية في أثناء السرد كما هو الحال في قصة "خريف أخضر" التي تضيف على جبن العربي الفلسطيني بعدًا آخر يتمثل في كونه أمام اليهودي خائن القوى لا يعرف إلا التذلل له والانقياد؛ يقول الكاتب: أسير عربي... ولشدة خوفه

وجبته أفضى بأسرار بلده، من دون أن يطلبها أحد منه، ويصر في تذلل على تقبيل أيدي الجنود اليهود الذين يمتنعون عن التقبيل!".

إنه جبان ويحب عدوه وجلاده، لكن لا يستطيع المتلقي أن يمنع نفسه من التساؤل: طيب إذا كان هو حريص هكذا على الحياة ويتذلل ويفشي الأسرار ويقبل الأيادي، فلماذا يناضل ويجاهد ويحمل السلاح؟!
العربي قدر:

هذه إحدى المثالب التقليدية التي يصم بها اليهود اعداءهم العرب، تناولها الكتاب في أعمالهم الموجهة للطفل الصهيوني؛ ومن ذلك ما ورد في قصة "القرية العربية"، يقول الكاتب: "إن شروط النظافة والمحافظة على الصحة تكاد تنعدم بين العرب، والإجراءات الصحية التي لا يستطيع الإنسان العيش من دونها غير متوافرة في أي قرية عربية".

إن فالعربي قدر لا يعرف النظافة، وقد تناسى وتغافل هؤلاء الكتاب عن كون العرب أمة مسلمة مؤمنة في مجملها، والنظافة والطهارة مسألة عقديّة دينية توجب عليهم التطهر والاغتسال والوضوء؛ لكي يستطيعوا أداء الشعائر والعبادات.

رابعاً: الإنشاء في صورة الفلسطيني كما عالجتها قصص الطفل الصهيوني:

استعملت القصص الصهيونية التي تناولت صورة الآخر الفلسطيني الأساليب الإنشائية الطلبية استعمالات مجازية انتقلت فيها الدلالة من الحقيقة للمجاز، ويمكن بيان هذه الدلالات على النحو الآتي:

التعجب:

إن التعجب معنى أساسي راسخ يتبناه كتاب أدب الأطفال الصهاينة عندما يتناولون شخصية العربي ويصورونها عجيبة تثير التعجب والاستغراب، وقد دل الإنشاء الطلبي على ذلك كما هو الحال في قصة "مقاصد من الحدود الشمالية" التي ورد فيها ما نصه: «أي نوع من الرجال هؤلاء العرب؟!»

لقد خرج الاستفهام في العبارة السابقة من معناه الحقيقي الذي هو طلب التصور بتحديد شخص الفاعل أو المفعول إلى معنى آخر مجازي؛ هو التعجب من هؤلاء العرب أي شيء يكونون؛ فهم ليسوا بشراً بالمعنى المعروف المتداول، لا بد أن يكونوا شياطين يقتلون العزل والضعفاء من الأطفال والنساء والشيوخ...

الاستبعاد:

قد يخرج الاستفهام من معناه الحقيقي إلى الدلالة على الاستبعاد عندما يكون المسؤول عنه بعيد الحصول لا يمكن تصوره، ولا يمكن أن يذهب إليه عقل؛ كما هو الحال في قصة "الأمير والقمر" للكاتب "يوري ايفانز"؛ يقول:

قالت الصغيرة لي:

-من الذي سرق القمر؟

إن الأميرة الصغيرة تستبعد أن يقدم أحد على سرقة القمر، لكن طالما أنه غير موجود، إذن فقد سرقه اللصوص، بيد أن القصة رمزية كما سيأتي بيانه في موضعه من هذا الفصل إن شاء الله.

المطلب الثالث: التكرار:

تعريف التكرار:

التكرار لغة:

ذهب ابن أبي الأصبع إلى أن التكرار هو إعادة كلمة واحدة؛ بغية تأكيد غرض ما؛ كالمدح، أو الذم، أو التهويل... الخ⁽¹⁾، وذهب القاضي الجرجاني إلى أنه الإتيان بشيء مرة بعد أخرى⁽²⁾؛ ويلاحظ أن

(1) ينظر: ابن أبي الأصبع العدواني، عبد العظيم بن الواحد بن ظافر (دت): تحرير التعبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تحقيق: د. حفني محمد شرف، (دط)، لجنة إحياء التراث الإسلامي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، الجمهورية العربية المتحدة، ص 375.

(2) ينظر: الشريف الجرجاني، علي بن محمد بن علي الزين (1983): التعريفات، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 65.

تعريف الجرجاني أكثر احتياطاً ودقة من تعريف ابن أبي الأصبع؛ لأن التكرار غير مقصور على اللفظة كما سيأتي؛ ولذلك أتى الجرجاني في تعريفه بكلمة "شيء" بدلاً من "لفظة أو كلمة"، بيد أن تعريف الجرجاني خلا من الغرض من التكرار.

وقد عرفته نازك الملائكة بأنه إلحاح على جهة مهمة في العبارة تكون محل اهتمام الأديب أكثر من غيرها؛ ما يجعل التكرار ذا دلالة نفسية مفيدة عند التصدي للتحليل⁽¹⁾.

ومن ثم يمكن القول بأن التكرار عبارة عن إعادة مرة أو أكثر كلمة أو عبارة أو تركيباً أو صيغة بما يمنح النص أبعاداً دلالية لا يمكن أن يكتسبها دون هذا التكرار.

ومن ثم يمكن القول بأن التكرار عبارة عن إعادة مرة أو أكثر كلمة أو عبارة أو تركيباً أو صيغة بما يمنح النص أبعاداً دلالية لا يمكن أن يكتسبها دون هذا التكرار.

الفرع الثاني: التكرار في الصورتين:

وسأتناول في السطور الآتية دلالات التكرار وقيمه الفنية كما وردت في الصورتين؛ صورة الصهيوني، وصورة الفلسطيني.

المسألة الأولى: التكرار في صورة الصهيوني بقصص الطفل الفلسطيني:

هناك مجموعة من الدلالات المستفادة من التكرار في قصص الطفل الفلسطيني، يمكن بيانها على النحو الآتي:

براءة الجانب ونقاء السريرة:

إن هذه الدلالة تبرز بوضوح عند العزف على وتر التكرار من خلال إبراز الجهل بالأسباب التي نجمت عنها وقائع لها آثارها السلبية، بل المدمرة في حياة بعض الأفراد أو أمة كاملة، ونستطيع أن نلمح هذا بسهولة في إحدى القصص المبنية على سؤال حائر وهي قصة "الحرب"، للكاتب عبد الرحمن عباد؛ يلح الكاتب في القصة على فكرة السيطرة والأخذ التي هي صفة ملازمة لكل محتل يستعمر الأرض

(1) ينظر: الملائكة، نازك صادق (دت): قضايا الشعر المعاصر، ط5، دار العلم للملايين، بيروت، ص 276.

بقوة السلاح، وفي القصة نجد أن أداة الاستفهام "لماذا" قد تكررت عشر مرات في قصة صغيرة ربما لا تزيد عن صفحة واحدة؛ من ذلك:

لماذا تبكي...؟

_ ولماذا لم يخبرني.. ولماذا لم يأخذني معه..

_ ولماذا يا أمي...؟

_ لكن لماذا يهجمون على بلادنا أليس لهم بلاد؟

_ ولماذا يا أمي أليست عندهم أرض...؟

_ ولماذا يا أمي وعندهم منازل وبيوت؟

ولماذا يقاتلنا وعنده أرض مثل أرضنا...؟

الرغبة في القوة والحرب:

لا شك أن الرغبة في القتال هي رغبة طبيعية مشروعة لكل مظلوم أو صاحب قضية يصارع الطواغيت والجبارين أعداء الإنسانية والحياة، ولما كانت الدنيا لا تعترف إلا بالقوة والتدافع الذي هو سنة كونية؛ يقول المولى - عز وجل - في محكم التنزيل: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّتِ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ⁽¹⁾؛ ومن هذا المنطلق كان لا بد من الإعداد والتسلح، وقد وردت دلالة الرغبة في القوة والحرب التي أفادها التكرار في قصة "الزمن الحزين في دير ياسين"؛ إذ تتناول الكاتبة روضة الهدهد التحول الذي طرأ على الصهاينة من رعايا للدولة العثمانية يعيشون في أراضي الخلافة، يمثلون أقلية دينية تنعم بما يكفله لهم الإسلام والمسلمون من عيش كريم وحرية في العبادة والشعائر تحت راية الإسلام التي تحتوي الجميع، ثم تحولهم إلى عصابات شرسة مجرمة تبتغي استئصال أهل البلاد أصحاب الأرض والعيش مكانهم بعد جلب قطاعان اليهود من كل حذب وصوب؛ فنجد أن هذه القصة قد تكررت فيها كلمة "السلاح"

(1) سورة الحج، الآية 40.

أربع مرات في دلالة واضحة على أهميته وكونه صمام أمان في حياة الأمم وحفظ أرواحها ودمائها ومعتقداتها وخيراتها وصيانتها.

السلام والبركة والنور:

لعل لفظة معينة تتكرر في عمل ادبي ما توحى إحياءات دلالية شتى، ويكون لها من القوة التعبيرية ما يجعلها تمثل شفرة دلالية أو مفتاحاً من مفاتيح الدلالة، لكن هذا لا يتأتى إلا من خلال التكرار الذي يمثل إلحاحاً واعياً أو غير واعٍ كمن ينكأ جرحاً فتسيل منه الدماء، في حين لا يشعر القارئ بتلك الدلالات من مجرد الذكر الاعتيادي؛ وهذا نفسه يجده القارئ حاضراً في قصة "كفر قاسم والمحاكمة العادلة" للكاتبة روضة الهدهد؛ إذ تكررت كلمة "الزيتون" أربع مرات باللفظ، ومرات أخرى بشكل غير مباشر؛ ما يعني إحساس الكاتبة باتجاه فلسطين نحو السلام وأنها بلاد خير وبركة؛ يقول المولى عز وجل: {اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} (1).

الهوية والتمايز:

إن مسألة الهوية والتمايز عن الآخر تُعدّ من أهم وسائل الدفاع عن النفس ضد المستعمر الغازي الذي أقصى ما يتمناه ان يذوب الطرف الآخر فيه وتنطمس هويته، ثم جيلاً بعد جيل لا يدري أصحاب الأرض والحق من هم وما رسالتهم وشخصيتهم؛ فتضيع حقوقهم وتطوى قضيتهم في غياهب النسيان والإهمال والتفريط؛ ومن هذا المنطلق فقد حرصت قصص الأطفال الفلسطينية في تصوير الآخر الصهيوني أن تعزف على وتر الهوية والتمايز عن الآخر من خلال سمة أسلوبية تتمثل في تكرار ما يدل على الهوية والانتماء والتمايز، ويمكننا أن نلمح ذلك بوضوح في بعض النماذج التي تناولها الفصل الأول كما هو الحال في قصة زيتونة ستي حفيظة" للكاتبة روضة الهدهد؛ فقد تكررت كلمة فلسطين

(1) سورة النور، الآية 35.

فيها كثيرًا؛ حتى إن الفقرة الواحدة ترد فيها كلمة "فلسطين" ست مرات؛ ما يوحى بالتركيز على الهوية والرغبة في التمايز عن الآخر؛ لأن هذا هو مفتاح المطالبة بالحق وبقاء جذوته متأججة وشعلته مضيئة في القلوب.

الرغبة في الاستقرار:

عانى الشعب الفلسطيني التغريب والتهجير في موطنه من خلال الأعمال الوحشية للاحتلال الصهيوني الذي صادر البيوت والمزارع، بل أجلى السكان عن قرى كاملة، وقد انعكس ذلك على أدب الطفل الفلسطيني من خلال سمة التكرار لعناصر لغوية تعكس الرغبة في الاستقرار والعيش في سكينة وهدوء؛ حتى إن بعض القصص كما هو الحال في قصة "الكنيسة والمقبرة" للكاتبة روضة الهدهد؛ فقد تكررت كلمة "بيوت" كثيرًا جدًا أكثر من اثنتي عشرة مرة.

المسألة الثانية: التكرار في صورة الفلسطيني بقصص الطفل الصهيوني:

هناك مجموعة من الدلالات المستفادة من التكرار في قصص الطفل الصهيوني، يمكن بيانها على النحو الآتي:

ضياع الحق:

من الدلالات التي أفادها التكرار في قصص الطفل الصهيوني الإلحاح على فكرة ضياع الحق أو أن هناك حقًا مسلوبًا أو مسروقًا سرقه العرب من اليهود، ويمكننا أن نلمح ذلك بسهولة في قصة "الأمير والقمر" للكاتب "يوري ايفانز" التي تكرر فيها الفعل "سرق" أربع مرات في إلحاح على ترسيخ هذه الفكرة في نفوس الأطفال اليهود.

استحضار صورة العدو:

هناك إلحاح في قصص الطفل اليهودي على تجسيد واستحضار العدو بوصف وذكر هويته؛ حتى إن بعض القصص قد أفرطت في ذلك بشكل ملحوظ؛ منها قصة "القرية العربية" التي تكرر ذكر العرب في فقرة واحدة منها ست مرات؛ حتى إن قصة "مقاصد من الحدود الشمالية" تكررت كلمة "العرب" أربع

مرات في فقرة صغيرة لا تتجاوز خمسة أسطر، صار العرب يمثلون هاجسًا للطرف اليهودي يرددونه ولو في أحلامهم.

مفردات القتل والهجوم والسرقة:

إن المطالع لقصص الطفل الصهيوني التي تناولت صورة العربي، ليجدها قصصًا مملوءة بمفردات القتل والهجوم والسرقة من الجانب العربي الذي تحول إلى شيطان رجيم يغتال ويروع الأمنين في هجمات شرسة بهدف السرقة والسلب والنهب؛ ولعل أوضح النماذج التي تكررت فيها تلك المفردات قصة "مقاصد من الحدود الشمالية"، وقصة "الأمير والقمر"، ما يعكس رغبة عارمة لدى المؤلفين الصهاينة في ترسيخ حالة من الاستنفار والاستحقار، علاوة على تسويق إراقة الدماء العربية دون أي وازع ديني أو أخلاقي؛ لأن أي تقتيل للعرب أو تخريب لممتلكاتهم وبيوتهم هو مجرد رد فعل انتقامي جزاء ما اقترفته أيديهم.

المطلب الثالث: التقديم والتأخير:

وفي السطور الآتية سأتناول صور التقديم والتأخير في قصص الطفل الفلسطيني والطفل الصهيوني.

الفرع الأول: التقديم والتأخير في قصص الطفل الفلسطيني:

لعب التقديم والتأخير دورًا مهمًا في قصص الطفل الفلسطيني التي تناولت صورة الصهيوني، والجدول الآتي يبين بعض أغراضه:

العبارة	القصة	المتقدم	نوعه	غرضه
عادت إلى ذاكرة عبد الله أحداث ذلك النهار	ليلى وفرن الصمود	إلى ذاكرة	جار ومجرور	الاستحضار
ليضع في يدها مصروفها اليومي	//	في يدها	//	الحرص
أليست عندهم أرض...؟	الحرب	عندهم	ظرف	القصر
يا رب ارجع لنا أبي سالما.	//	لنا	جار ومجرور	//
لا بد أن نزرع في كل واد شجرة	الطريق إلى القدس	في كل واد	//	العناية بالشمول

العبارة	القصة	المتقدم	نوعه	غرضه
تبحث جادة عن مجموعته	//	جادة	حال	الإشفاق
إن اليهود هذه الأيام، غير الذين...	الزمن الحزين في دير يس	هذه	ظرف	التنبية
كانت عمته حاملاً... ولديها ثلاثة أطفال	كفر قاسم والمحاكمة العادلة	لديها	ظرف	المسؤولية
من قال بعد هذا العمر إني سأصبح عاملة	//	بعد	//	المفارقة
يا الله! إنها تأخذ من يديها أساور الذهب	//	من يديها	//	العنف
بعد عامين كاملين جلس عبد الكريم صرصور...	كفر قاسم والمحاكمة العادلة	بعد	ظرف	الصبر

الجدول (1) يبين بعض أغراض التقديم في قصص الطفل الفلسطيني

تنوعت الفصائل النحوية المتقدمة في قصص الطفل الفلسطيني بين الظرف والجار والمجرور والحال، وإن كانت الغلبة الغالبة لشبه الجملة كما هو واضح في الجدول السابق، وقد تنوعت الأغراض بين القصر، والغفلة؛ أي: غفلة السامع فضحكاتهم تصل إلى أذنيه فقط، واستحضار الصورة، والمفارقة... وغير ذلك.

الفرع الأول: التقديم والتأخير في قصص الطفل الصهيوني:

لعب التقديم والتأخير دوراً مهماً في قصص الطفل الصهيوني التي تناولت صورة الفلسطيني، والجدول الآتي يبين بعض أغراضه:

العبارة	القصة	المتقدم	نوعه	غرضه
ظهر من زقاق جانبي بعض المشاغبين الم	من الذي يركض في الأزقة	من زقاق	جار ومجرور	الغدر
وكان في طفولته اشبه باللصوص	أوز يا أوز	في طفولته	جار ومجرور	فطرة السوء
لا يقتلون من اليهود الا العزل	مقاصد من الحدود الشمالية	من اليهود	جار ومجرور	الجبن
ولشدة جبنه أفضى بأسرار بلاده	خريف اخضر	لشدة خوفه	جار ومجرور	الجبن
وكان في كل مرة يعود كالكلب العائد الى وكره	خريف اخضر	في كل	جار ومجرور	الذل
يلصقونه للزينة على حوائط بيوتهم	الامير والقمر	للزينة	جار ومجرور	العبثية

العبارة	القصة	المتقدم	نوعه	غرضه
لعدم وجود المراحل يقضي العرب حوائجهم	القرية العربية	لعدم	جار ومجور	القذارة
تقدم اليهودي شمعون بهدية مهمة لصديقه	الاصدقاء	بهدية	جار ومجور	الكرم
ومن كل مكان برز كلب ينبج	وجه قبيح في المرأة	من كل	جار ومجور	العشوائية

الجدول (2) يبين بعض أغراض التقديم في قصص الطفل الصهيوني

كان التقديم في النماذج التي بين أيدينا للجار والمجور فقط، وقد تنوعت أغراضه بين الجبن، والذل، والعبثية، والعشوائية؛ هذا طبعا في الجانب العربي، في حين كان غرض التقديم الكرم فيما يتعلق بالجانب الصهيوني.

المطلب الرابع: الجمل الاسمية والفعلية:

ذكر أرباب اللغة والمعاني أن الجملة الاسمية موضوعة لإفادة الثبوت؛ أي: لثبوت الخبر للمبتدأ دون إرادة الاستمرار أو الحدوث، بيد أنها ربما يصاحبها من القرائن ما يكسبها الدوام والاستمرار؛ كما لو كان المقام للمدح أو الذم؛ كما في قوله جل شأنه: {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ} ⁽¹⁾، بيد أن الجملة الاسمية إنما تفيد الثبوت وضعا والدوام والاستمرار بالقرائن عندما يكون خبرها مفردا أو جملة اسمية، أما إن كان خبرها جملة فعلية، فإنها تدل على التجدد، أما الجملة الفعلية، فإنها موضوعة لإفادة الحدوث في زمن معين؛ نحو: "أشرق الشمس، تشرق، ستشرق"، فإن الدلالة التي يستفيد منها المتلقي هي حدوث الشروق في زمن معين؛ هو الماضي أو الحاضر أو المستقبل ⁽²⁾، على أن المضارع يدل على الاستمرار من خلال تجدد حدوثه مرة بعد أخرى؛ بدءا من الزمن الحاضر إلى المستقبل ⁽³⁾.

وفي هذا المطلب سأتناول استعمال الجملتين الاسمية والفعلية في الصورتين، ودلالات هذا الاستعمال ومدى توظيفه بما يخدم أغراض صانعي كل صورة.

الفرع الأول: الجمل الاسمية والفعلية في قصص الطفل الفلسطيني:

(1) سورة الانفطار، الآية 13-14.

(2) ينظر: الجرجاني: دلائل الإعجاز، (174/1-175)؛ القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، (133/2)؛ بهاء الدين السبكي: عروس الأفراح، (181/1).

(3) ينظر: بهاء الدين السبكي: عروس الأفراح، (317/1).

المسألة الأولى: دلالات استعمال الجملة الاسمية:

حملت الجملة الاسمية في قصص الطفل الفلسطيني دلالات متعددة كما وظفها صانعو صورة الصهيوني ومن ذلك:

التعبير عن حقيقة راسخة:

تبدأ قصة "ليلي وفرن الصمود" للكاتبة روضة الهدهد بالجملة الفعلية في قولها: "عادت إلى ذاكرة عبد الله أحداث ذلك النهار"، ويستمر السرد على هذا المنوال متخذاً من الجملة الفعلية متناً للدلالة على الأحداث التي يتذكرها بطل القصة، تلك المآسي التي امت به في حياته، والتعبير بالجملة الفعلية مناسب جداً لما فيها من الدلالة على التجدد والحدوث، بيد أن الكاتبة تغير مسار التركيب في نهاية القصة للدلالة على حقيقة راسخة من خلال التعبير بالجملة الاسمية في قولها: "ولكن أن يأتي بنواياه الخبيثة ليحتل مساكنها ويقطع أشجارها ويقتل أبناءها؛ فهذا ما لا يقبله أي إنسان" إن هذا التركيب يحمل الرسوخ والثبوت بوصفه يعبر عن أصول ثابتة لا تتغير وحقائق راسخة لا تقبل النقاش أو المساومة؛ فلا حر في هذا العالم يقبل أن يجتاح الآخر موطنه ويجتث حياته اجتثاثاً ليحل محله!

وهذه الدلالة نفسها نلمحها في قصة "الحرب" على لسان أم "زيدون" في محاولة منها إقناعه بأن الحرب غير مناسبة لطفل مثله؛ قائلة: "الحرب للرجال وأنت ما تزال صغيراً"، إن الجملة الاسمية السابقة "الحرب للرجال" تحمل دلالة الثبوت والرسوخ؛ تلك الدلالة التي اقتضتها العادة والعقل والأعراف.

الدلالة على الطبع والسجية:

لعبت الجملة الاسمية في قصص الطفل الفلسطيني دوراً مهماً في الدلالة على الأخلاق والطباع والسجايا، ولا شك أن تلك الأمور راسخة في الإنسان؛ حتى قالوا: "الطبع يغلب التطبع"، وقد وردت الجملة الاسمية معبرة عن ذلك في قصة "الحرب" على لسان أم "زيدون" عندما أرادت أن تكشف لابنها الصغير دوافع اجتياح الصهاينة أرض فلسطين بعد أن وجدت عقله غير قادر على فهم ذلك؛ قائلة: "إنهم طماعون يا ولدي"، فكانت هذه الجملة كاشفة وفاضحة لحقيقة الصهاينة الذين نظروا إلى ما عند غيرهم وطمعوا فيه.

وهذه الدلالة نفسها الدالة على الأخلاق والسجايا الثابتة التي لا تتغير نجدها أيضًا في قصة "الطريق إلى القدس" على لسان الشيخ قائلًا: "بلادنا لا تضيق بأحد"؛ معبرًا بذلك عن طبيعة فلسطين وأخلاق أهلها الكرماء الذين لا يضيقون بضيف طالما أنه ضيف ويعرف حدوده.

التأكيد:

لما كانت الجملة الاسمية دالة على الثبوت والاستمرار، فإنها صالحة لتأكيد المضامين؛ ومن ثم يميل إليها المتكلم عندما يريد أن يؤكد كلامه؛ ليوحي للمتلقي بأن كلامه مثل الحقيقة التي لا تقبل الشك، ونجد تلك الدلالة واضحة في "الزمن الحزين في دير ياسين" على لسان حياة البليسي مخاطبة أم محمد؛ قائلة: "إن اليهود هذه الأيام، غير الذين كانوا يعيشون معكم بهدوء"، إن اليهود بعد عام 48 غير اليهود قبل ذلك ممن عاشوا في كنف الدولة العثمانية ونعموا بالمواطنة وحقوقهم كافة تحت مظلة الإسلام، لكنهم بعد سقوط الخلافة وتكالب الدول الصليبية على العالم الإسلامية كشفوا عن حقيقة قبحهم ونياتهم الخبيثة؛ ومن ثم اتخذت العبارة من الجملة الاسمية وشاحًا اتشحت به كي لا يبقى في نفس المتلقي أدنى شك في هذا الزعم الذي تؤكدته الوقائع والأحداث.

تجدد الأحقاد والأطماع على سبيل الاستمرار:

إن الجملة الاسمية ذات الخبر المضارع تكتسب التجدد الاستمراري؛ وهذا نجده في قصة "زيتونة ستي حفيظة" للكاتبة روضة الهدهد؛ تقول: "فنظرات الحقد والطمع تملأ قلوب المستوطنين تجاه البشر والحجر والشجر الفلسطيني"؛ فالحقد متجدد بتجدد المضارع وحدثه مرة بعد مرة في الحاضر والمستقبل؛ ما يعطيه صفة الدوام والاستمرارية؛ وهذا مناسب جدًا للتعبير عن مقصد الكاتبة التي تريد أن تبين أن في كل وقت وفي كل جيل حقد اليهود وأطماعهم يتجدد ويستمر تجاه كل الكائنات.

فقدان الأمل:

من خلال ثبوت الجملة الاسمية فإنها من خلال السياق قد تلقي بظلال من اليأس وفقدان الأمل في المستقبل، علاوة على ما في الحاضر من ألم ومعاناة وإحباط، وقد استغلت الكاتبة روضة الهدهد هذا المعنى في قصة "الكنيسة والمقبرة" على لسان المطران يوسف مخاطبًا أهل القرية: "إنكم أصبحتم بلا

بيوت نهائياً هناك"، نستطيع أن نلاحظ حجم الألم والمعاناة مع فقدان الأمل في المستقبل من خلال هذه الجملة الاسمية ذات القسوة المقصودة.

المسألة الثانية: دلالات استعمال الجملة الفعلية:

حملت الجملة الفعلية في قصص الطفل الفلسطيني دلالات متعددة كما وظفها صانعو صورة الصهيوني ومن ذلك:

الدلالة على العادة:

بطبيعة الجملة الفعلية المضارعية أنها تدل على التكرار في الحاضر والمستقبل، وهذا التكرار يصبح عادة من خلال السياق، ونجد ذلك في قصة "الزمن الحزين في دير ياسين" للكاتبة روضة الهدهد في قولها:

وتسأل حلوة بدهشة:

- ومن أين لهم بالسلاح؟

وتجيب حياة:

- "يشترونه من أوروبا ويهربونه للبلاد".

الرغبة المتأصلة في السرقة:

من خلال السياق فقد دلت الجملة الفعلية على الرغبة المتأصلة في السرقة والسلب والنهب من قبل الصهاينة، وقد تجلّى ذلك قصة "الزمن الحزين في دير ياسين" التي ورد فيها: "يريدون أيضاً سرقة الذهب والأموال من أهل القرية".

الفرع الثاني: الجمل الاسمية والفعلية في قصص الطفل الصهيوني:

المسألة الأولى: دلالات استعمال الجملة الاسمية:

حملت الجملة الاسمية في قصص الطفل الصهيوني دلالات متعددة كما وظفها صانعو صورة الفلسطيني ومن ذلك:

القصر:

قد يلجا المتكلم لاستعمال الجملة الاسمية للدلالة على القصر إذا ما أراد أن يعبر عن حالة خاصة أو تجربة ما مرت به؛ سواء أكانت تجربة مريرة أم سعيدة غير أنه تجرع كأسها حتى الثمالة منتشياً أم صابراً؛ فيدل التركيب على تلك الحالة؛ ومن ذلك ما ورد في قصة "من الذي يركض في الأزقة"، يقول الكاتب زئيف وردي: "أنا ورافي ألصقنا ظهورنا بأحد الجدران"، يريد الكاتب أن يشير بهذا التركيب إلى حالة المعاناة المقصورة على اليهود في عيشهم بين العرب الفلسطينيين القساة الغلاظ من وجهة نظره.

الطبيعة الراسخة:

يشير المتكلم إلى مسألة متعلقة بالخلقة أو الجبلية، ولا شك أن مسألة الطباع والأخلاق من الأمور الثابتة الراسخة؛ لكونها من طبيعة الإنسان؛ ومن ذلك ما ورد في إحدى القصص؛ يقول الكاتب: "الناس تحولوا لحيوانات مفترسة"، وهو يقصد بالناس الفلسطينيين، وجاء التركيب على نمط الجملة الاسمية إشارة إلى أن هذه صارت طبيعتهم.

ومن ذلك أيضاً ما ورد في قصة "العربي المهزوم"؛ يقول الكاتب متحدثاً عن العرب المصريين من أسرى 76: "أناس حفاة، وخوف رهيب في عيونهم"، استند الكاتب إلى الجملة الاسمية؛ كي يصف العرب بالجن كأن هذه طبيعتهم التي جُبلوا عليها على الرغم من أن هؤلاء كانوا أسرى حرب ومن الطبيعي أن يكونوا في حالة من الضعف وسوء المنظر؛ فليسوا في ظروف مناسبة للأناقة! ومن ذلك أيضاً ما نجده في قصة "الأمير والقمر" للكاتب "يوري ايفانز"؛ يقول عن العرب: "الجناء، كلهم لصوص وقتلة"، والأمر نفسه في قصة "صفية المسيحية" للكاتب "أشر براش"، يقول عن العرب: "كان أولادها الخمسة أولاد عرب بكل تفاصيلهم".

النبيل والفروسية:

ثم يلاحظ أن بعض الكتاب الصهاينة ربما يلجأ إلى استعمال الجملة الاسمية في سياق معين للدلالة على النبيل والفروسية؛ من ذلك ما ورد "الأمير والقمر" للكاتب "يوري ايفانز"؛ يقول على لسان فارسه الأسطوري المزعوم: "أنا فارس من فرسان الأرض، محارب قديم في أرض إسرائيل"، جعل الكاتب الفروسية صفة راسخة ثابتة لعساكر الاحتلال وقطعان المستوطنين.

التهكم والسخرية:

قد تلعب الجملة الاسمية دوراً في التهكم على الخصم، وقد ورد ذلك في قصة "المرأة العربية" للكاتبة "نوريت زرجي"، تتناول مسألة القذارة العربية؛ تقول عن فتاة عربية: "أنت لست زهرة تستحم وتغتسل حسب فصول السنة"، وتنطلق السخرية من المفارقة بين حال المخاطب ولسان حاله؛ فالفتاة قدرة لا تستحم، لكن لسان حالها أنها تظن نفسها زهرة تستحم بحسب فصول السنة!

المسألة الثانية: دلالات استعمال الجملة الفعلية:

حملت الجملة الفعلية في قصص الطفل الصهيوني دلالات متعددة كما وظفها صانعو صورة الفلسطيني ومن ذلك:

1. التجدد الاستمراري:

ذكرت سابقاً أن المضارع يدل على التجدد الاستمراري إذا كان زمنه يتخطى الزمن الحاضر، وأحياناً يستند بعض الكتاب إلى ذلك للتعبير بالجملة الفعلية المضارعية عن التجدد الاستمراري، ونجد ذلك في قصة "من الذي يركض في الأزقة" للكاتب زئيف وردي؛ يقول على لسان البطل الذي جرحه عربي وترك له ندب: "ترافقني ندبة ذلك الجرح".

2. الوصم بالجبن من خلال التجدد الاستمراري:

قد يستند بعض الكتاب إلى دلالة الجملة المضارعة على التجدد الاستمراري كي يصفوا العرب بالجبين، وقد ورد ذلك في قصة "مقاصد من الحدود الشمالية"؛ يقول الكاتب عن العرب: "لا يقتلون من اليهود إلا العُزْل من الأطفال والنساء والشيوخ".

الوصم بالمذلة من خلال التجدد الاستمراري:

قد يستند بعض الكتاب إلى دلالة الجملة المضارعة على التجدد الاستمراري كي يصموا العرب بالمذلة، وقد ورد ذلك في قصة "خريف أخضر" التي تضيف على جبن العربي الفلسطيني بعدًا آخر يتمثل في كونه أمام اليهودي خائر القوى لا يعرف إلا التذلل له والانقياد؛ يقول الكاتب: "ويصر في تذلل على تقبيل أيدي الجنود اليهود الذين يمتنعون عن التقبيل".

الوصم بالعبثية من خلال التجدد الاستمراري:

قد يستند بعض الكتاب إلى دلالة الجملة المضارعة على التجدد الاستمراري كي يصموا العرب بالعبثية والحمق، وقد ورد ذلك في قصة "الأمير والقمر" للكاتب "يورى ايفانز"؛ يقول عن العرب وسبب سرقتههم القمر: "يعلقونه للزينة على حوائط بيوتهم".

المبحث الثاني: تقنيات السرد

أولاً: تقنية الاسترجاع:

هي عبارة عن الرجوع إلى نقطة ما قبل زمن الحكي؛ وذلك من خلال العودة إلى الأحداث الماضية؛ فيقطع الكاتب السرد؛ ليرجع إلى وقائع سابقة في ترتيب زمن السرد عن مكانها الطبيعي في زمن القصة⁽¹⁾، وبحسب جيراد جنيت فإن تقنية الاسترجاع تنقسم إلى ثلاثة أنواع:

1. الاسترجاع الخارجي:

وهو استرجاع الراوي أو الشخصيات حدثاً بعيداً وقع في بداية القصة⁽²⁾؛ فهو يتناول حادثة خارج النطاق الزمني للحكاية الأولى؛ ومن ثم فإن سعته كلها خارج الحكاية الأولى⁽³⁾.

2. الاسترجاع الداخلي:

هو استعادة أحداث ماضية ضمن المجال الزمني للمحكي وذات صلة وثيقة بالشخصيات وأحداث القصة، وربما تسير في خط زمني واحد بالنسبة للزمن الروائي⁽⁴⁾.

3. الاسترجاع التكميلي:

وترد لسد نقائص في الاستمرار الزمني قد تركها محكي سابق⁽⁵⁾.

المسألة الأولى: توظيف الاسترجاع في قصص الطفل الفلسطيني:

(1) ينظر: الحميداني، حميد (2000): بنية النص السردى من منظور النقد الأدبي، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ص 74.

(2) ينظر: جنيت، جيرار (1997): خطاب الحكاية بحث في المنهج، ترجمة: محمد معتصم وآخرون، ط2، الهيئة العامة للمطابع الأميرية، القاهرة، ص 48.

(3) ينظر: السابق: ص 60.

(4) ينظر: النجار، وليد (1985): قضايا السرد عند نجيب محفوظ، ط1، دار الكتاب اللبناني، ص 96.

(5) ينظر: مرشد، أحمد (2005): البنية والدلالة في روايات إبراهيم نصر، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 248.

استطاع الكتاب العرب توظيف تقنية الاسترجاع بمهارة عالية لتحقيق أغراضهم في رسم صورة الصهيوني؛ ومن هذه الأغراض:

تفسير الرغبة في الانتقام من الصهاينة:

قد يستند بعض الكتاب إلى تقنية الاسترجاع لبيان أسباب الرغبة الجامحة لدى الفلسطينيين في الانتقام من الصهاينة؛ فيعود الاسترجاع بإلقاء أضواء كاشفة وتفسيرات تربط الماضي بالحاضر؛ ومن ذلك ما نجده جاء في قصة "ليلي وفرن الصمود" للكاتبة روضة الهدهد؛ تقول: "عادت إلى ذاكرة عبد الله أحداث ذلك النهار منذ ثلاثة أعوام عندما كانت ابتناه عائشة وفدوى تحملان إبريق الشاي وتنتظران عودته من الجامع...، كانت فدوى تجلس على أكياس الطحين، بينما تقف عائشة بالباب تنتظر مجيئه ليضع في يدها مصروفها اليومي.. يومها لم يضع لها المصروف في يدها، ولم يضع العجين على ألواح الخشب كالمعتاد، يومها لم يعرف ماذا يفعل وكيف يتصرف.. لقد رأى سيارة أحد المستوطنين الصهاينة في المستعمرة القريبة من نابلس، وهي تعود أدرجها بعد إطلاق الرصاص، فوجئ بابنته عائشة وقد ارتمت على الأرض أمام الفرن، وبابنته فدوى وقد ارتمت على أكياس الطحين، لم يكن هناك سبب واحد ليطلق هذا المستوطن الإسرائيلي النار على بناته وفرنه، حمل عبد الله ابنتيه على ألواح الخشب وانطلق مع شباب الحي إلى مستشفى الحاجة عندليب العمد، بينما هرب القاتل إلى المستعمرة القريبة "ألون موريه"، منذ ذلك النهار تعاضم الأمر في نفس عبد الله.. كيف يأتي هؤلاء اليهود الصهاينة ليحتلوا أرض فلسطين وليقتلوا أبناءها..".

تفسير عيش الفلسطينيين في المخيمات:

كذلك يكون الاستناد إلى تقنية الاسترجاع لبيان السبب وراء عيش الفلسطينيين في مخيمات على الرغم من أنهم في وطنهم وليسوا لاجئين في بلاد الناس؛ فتبين هذه التقنية أن السبب وراء ذلك هو المحتل الصهيوني الذي سلب بيوتهم ومزارعهم؛ ومن ذلك ما نجده في قصة "الكنيسة والمقبرة" تصور الكاتبة روضة الهدهد جوانب أخرى للمحتل؛ وذلك في بناء فني درامي عالي المستوى، وفي الوقت نفسه يتناسب مع الأطفال؛ تقول الكاتبة مستندة إلى تقنية الاسترجاع: "جاء الجنود اليهود وأمرونا أن نترك بيوتنا لمدة أسبوعين فقط.. قالوا لنا ستعودون لبيوتكم حال انتهاء الحرب.. خذوا أغراضكم المهمة فقط

واتركوا بيوتكم.. وكنت أنت يا فوزي طفلاً صغيراً فحملتك ولم أحمل أي شيء آخر من البيت، وحمل أبوك أخاك الأكبر، وأمرنا الجنود اليهود أن نركب السيارات العسكرية، وساروا بنا حتى وصلنا إلى هذه البلدة الصغيرة «الرامة»، وجدنا بعضاً من بيوتها خالية من السكان بسبب الحرب، فجلسنا في هذه الدار كما ترى: خمس عائلات؛ كل عائلة أخذت غرفة فقط.. يعني سقفاً تنام تحته حتى نعود إلى قريتنا".

تفسير الرغبة في اجتثاث الفلسطينيين:

يستند بعض الكتاب إلى تقنية الاسترجاع لبيان أن الاحتلال الصهيوني لفلسطين هو من نمط الاحتلال الاستيطاني الإحلالي الذي يستهدف استئصال السكان الأصليين وإحلال قوم غرباء محلهم، ويمكننا أن نجد ذلك في قصة "زيتونة ستي حفيظة" للكاتبة روضة الهدهد؛ تقول: "في المستعمرة القريبة من منزل حفيظة في قرية سالم، يعيش مناحيم جولدمان وزوجته وحوالي خمسمائة مستوطن، أما مناحيم فقد جاء إلى فلسطين من مدينة نيويورك من أمريكا.. وأما زوجته فجاءت قبله إلى فلسطين من بلد اسمه إيرلندا؛ وأما باقي سكان المستعمرة، فقد أتوا من جهات مختلفة في أوروبا؛ فمنهم من جاء من روسيا أو ألمانيا أو فرنسا أو حتى إنجلترا.. كان "مناحيم جولدمان"، عندما جاء إلى فلسطين، يظن أن أرض فلسطين خالية من السكان، وأنه هو وجماعته من اليهود سيبنون بيوتها، ويزرعون شجرها، ويعيشون فيها بأمن واطمئنان، لكنه عندما شاهد بيوت الفلسطينيين ومزارعهم وأشجارهم، حقد عليهم وقرر محاربتهم وطردهم من بيوتهم وأرضهم، فنظرات الحقد والطمع تملأ قلوب المستوطنين تجاه البشر والحجر والشجر الفلسطيني".

توظيف الاسترجاع في قصص الطفل الصهيوني:

تسويق قيام دولة الاحتلال:

في الجانب المقابل نرى بعض الكتاب الصهاينة يستندون إلى تقنية الاسترجاع بغية تسويق ضرورة الحذر من العرب؛ لما اقترفوه في حق اليهود قبل تأسيس دولة الاحتلال؛ رغبة من هؤلاء الكتاب في بيان أن قيام دولة الاحتلال كان ضرورة للمحافظة على أرواح وممتلكات اليهود في فلسطين؛ ومن ذلك ما نجده في قصة "دافيد ونعمان" أ. روز يانكسن، وهي قصة تبرز معاناة اليهود من هجمات العرب

على مواقعهم؛ تقول القصة: "في نهاية عام 1929م، هجم قطاع طرق لصوص عرب على الأرض، ونهبوا وسرقوا كل شيء في طريقهم... لكنهم لم يقتربوا من مزرعتنا؛ فقد اشتعلت النيران في أجرانها... وفي كل ثمرة من عملنا الشاق، في وسط هجوم آلاف المهاجمين سمع خوار البقر وصهيل الخيل المسروقة".

ثانيًا: تقنية الحوار:

وتُعرف أيضًا بتقنية المشهد غالبًا⁽¹⁾، يُعدّ الحوار من أهم تقنيات السرد، ومسرح لتعدد الأصوات؛ سواء أعوان السرد المتخيلين أم عونا السرد الواقعيين "المؤلف والقارئ"، وله وظائف شتى؛ منها: الإيهام بالواقع أو ما يمكن تسميته بالواقع الافتراضي، والوصف، والتزويد بالأخبار، وبيان صفات وملامح الشخصيات، علاوة على دفع عجلة الحركة الحكائية داخل البناء الفني الروائي أو القصصي، والحوار هو الأقوال المتبادلة بين شخصين فأكثر منذ لحظة الالتقاء إلى لحظة الافتراق مع ما يصحب هذه الأقوال من هيئات وإيماءات وحركات، وكل ما يخبر عن ظروف التواصل ترد جميعها في شكل خطاب إنشادي⁽²⁾.

توظيف الحوار في قصص الطفل الفلسطيني:

بيان انعكاس الحرب على الأطفال:

استند بعض الكتاب في رسم صورة الصهيوني إلى تقنية الحوار؛ وهي تقنية مهمة جدًا من الناحية الفنية؛ إذ يبتعد بها الكاتب عن المباشرة، ويضع بعض الآراء والتوجهات على ألسنة أبطاله أو من خلال ممارساتهم في القصة، فيتوارى خلفهم، ولا يستطيع المتلقي أن يرى وجهه الحقيقي أو أن يسمع صوته بشكل صريح، وهذه القصص موجهة للأطفال؛ ومن ثم فإن تبني طريقة تفكيرهم من خلال جعل طرفي الحوار أو أحدهما طفلًا إنما هو من البراعة بمكان، ويمكننا أن نقف على ذلك في قصة "الحرب"، للكاتب عبد الرحمن عباد؛ يلح الكاتب في القصة على فكرة السيطرة والأخذ التي هي صفة ملازمة لكل

(1) ينظر: جنيت، جيرار: خطاب الحكاية، ص 108.

(2) ينظر: القاضي، محمد وآخرون (2010): معجم السرديات، (دط)، دار الفارابي للنشر والتوزيع، تونس، ص 159.

محتل يستعمر الأرض بقوة السلاح، يقول الكاتب في حوار بين الطفل "زيدون" وبين والدته بعد ذهاب أبيه إلى الحرب:

سكت زيدون عن البكاء، ثم نظر حوله، فلم يشاهد أباه فقال: أين أبي؟

_ لقد ذهب إلى الحرب.

_ ولماذا لم يخبرني.. ولماذا لم يأخذني معه..

_ الحرب للرجال وأنت ما تزال صغيرا.

_ ولكنه قال لي أمس أنه سوف يأخذني لنصطاد العصافير.

_ وماذا تكون إذن...؟

_ إنها قتال بالرصاص والدبابات والطائرات.

_ ولماذا يا أمي...؟

_ لقد هجم الأعداء على بلادنا ولا بد من رد عدوانهم.

_ لكن لماذا يهجمون على بلادنا أليس لهم بلاد؟

_ بلا يا زيدون ولكنهم يريدون أرضنا.

_ ولماذا يا أمي أليست عندهم أرض...؟

_ عندهم.

_ وماذا يريدون من أرضنا؟

_ إنهم يريدون أن يسكنوا عليها ويزرعوها ويأكلوا خيراتها.

_ إنهم يريدون أن يطردونا منها أيضا.

_ ولماذا يا أمي وعندهم منازل وبيوت؟

_ إنهم طماعون يا ولدي.

_ وهل ذهب أبي ليضربهم؟

_ نعم يا ولدي.. ادع الله أن يعود سالما.

فضح المؤامرات:

ربما يحتاج الكاتب إلى إمطة اللثام عن بعض المؤامرات وغيرها مما يحاك في الخفاء؛ فيكون الحوار وسيلة لكشف المستور من خلال النقاش بين أبطال العمل الأدبي؛ فيجعله الكاتب وسيلة للتوعية والتبصير؛ ومن ذلك ما نجده في قصة "الزمن الحزين في دير ياسين" للكاتبة روضة الهدهد؛ تقول:

"وتسأل حلوة بدهشة:

- ومن أين لهم بالسلاح؟

وتجيب حياة:

- يشترونه من أوروبا ويهربونه للبلاد، لقد سمعت يا حلوة أنهم يشترون السلاح من أي مصدر في أوروبا ثم يشحنوه على السفن إلى مرفئ فلسطين، حيث ينزلون الشحنات ويخبئونها في مستعمراتهم..
- والإنجليز.. ألا يعرفون ذلك؟ ألا يمنعونهم؟ أليسوا هم الذين يمنعون العرب من شراء أي قطعة من السلاح؟

- نعم، إنهم يمنعون العرب من حمل السلاح، أو حتى حيازته، ولكنهم يغمضون أعينهم عن تسليح اليهود، يرون سفنهم تحمل الآلاف من البنادق ولا يعترضون. لقد كانت قبل مدة سفينة "التلينا" الإسرائيلية، تنزل ألفي بندقية، وأكثر من مائتين وخمسين".

المسألة الثانية: توظيف الحوار في قصص الطفل الصهيوني:

إظهار التمايز بين العرب واليهود:

يستند بعض الكتاب الصهاينة إلى تقنية الحوار لبيان التمايز في زعمهم بين العرب والصهاينة، ويجدون ذلك فرصة لوصف العرب بكل قبيح، ووصف اليهود بكل فضائل؛ ومن ذلك ما نجده في قصة "الأمير والقمر" للكاتب "يوري ايفانز"؛ يقول:

قالت الصغيرة لي: من الذي سرق القمر؟

قلت: العرب.

قالت: ماذا يفعلون به؟

قلت: يعلقونه للزينة على حوائط بيوتهم!

قالت: ونحن؟

قلت: نحوله إلى مصابيح صغيرة تضيء أرض إسرائيل كلها.

...

تشبثت به الصغيرة، وقالت: لا... لم يتحقق الحلم بعد.

قال الأمير: كيف؟

قالت الصغيرة: لقد سرقوا القمر.

قال الأمير "وهو يضرب برمحه مرة ثانية": من؟

قالت الصغيرة: العرب.

بصق الأمير على الأرض قال: الجبناء، كلهم لصوص وقتلة...

ونجد ذلك أيضًا في قصة "المرأة العربية" للكاتبة "نوريت زرجي"، تتناول مسألة القذارة العربية أيضًا، تقول:

"قلت لهن: لكني اغتسلت في العيد، وأبلغتهن هذه الحقيقة..."

فنظرن إلي، وقالت إحداهن: أنت لست زهرة تستحم وتغتسل حسب فصول السنة، أنت إنسانة... أدخلني إلى الماء واستحمي لأنه ليس بإمكانك أن تسكني معنا وأنت قذرة ورائحتك نتنة".

ثالثاً: تقنية الاستشراف:

وتعرف أيضًا بالاستباق؛ وهي مخالفة لمسيرة زمن السرد، تستند إلى تجاوز حاضر الحكاية، وتناول حدث لم يحن وقته بعد⁽¹⁾؛ فالراوي هنا يستعمل تقنية زمنية تنبئ صراحة أو ضمناً عن حدث لم يتحقق بعد في مجريات السرد، لكنه سيقع لاحقاً⁽²⁾.

المسألة الأولى: توظيف تقنية الاستشراف في قصص الطفل الفلسطيني:

لا نكاد نلمح لتقنية الاستشراف في قصص الطفل الفلسطيني إلا بصيصاً خافتاً؛ ولعل مرد ذلك أن الصراع مستمر بين الطرفين، ولا يمكن التكهّن بشيء مما تخفيه الأيام، اللهم إلا إيمان المؤمنين بنصر الله عباده المتقين وأوليائه، ويمكن أن نجد ذلك في قصة "كفر قاسم والمحاكمة العادلة" للكاتبة روضة الهدهد؛ تقول: "الحق لا يضيع يا بني أبداً وربك يمهل ولا يهمل.. وإن لم نأخذ بثأر قتلانا اليوم، فمن يدري من منكم سيثأر للقتلى وللأرض المحتلة وللشجر المسروق وللأرجل المقطعة وللأجنة...".

المسألة الثانية: توظيف تقنية الاستشراف في قصص الطفل الصهيوني:

وقد خلت النماذج التي بين يدي من تقنية الاستشراف لرسم صورة العربي في قصص الطفل الصهيوني.

(1) ينظر: الشمالي، نضال (2006): الرواية والتاريخ، ط1، عالم الكتاب الحديث، الأردن، ص 165.

(2) ينظر: العزي، نفلة حسن أحمد (2010): تقنيات السرد وآليات تشكيله الفني، ط1، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، ص 69.

رابعاً: تقنية الوقفة:

هي تقنية فنية زمنية تتمثل في تعطيل السرد وتعلق الحكاية؛ لاستطراد المؤلف أو ما يُعرَف بتدخلات المؤلف⁽¹⁾؛ ومن ثم يمكن تعريف الوقفة بأنها "كل انقطاع في مجرى السرد؛ سواء من خلال الوصف أم الاستطراد في ثوب التعليق والتأمل، وإبداء الانطباعات والملاحظات، وفيها تتجلى روح السارد وبصمة تجاربه وخبراته وعصارة حياته؛ ومن ثم فإن تقنية الوقفة فيها ما فيها من تضافر روح الفن وما فيه من تشويق وإثارة وإمتاع من ناحية، وظل الواقع المتمثل في عقل السارد وشخصيته من ناحية أخرى"؛ ومن ثم فبحسب جيرار جنيت لا تقتصر الوقفة على الوصف⁽²⁾؛ ولا أملك إلا موافقته في عدّه زمن الوقفة خارج زمن القصة⁽³⁾.

المسألة الأولى: توظيف تقنية الوقفة في قصص الطفل الفلسطيني:

استند الكتاب في رسم صورة الصهيوني إلى تقنية الوقفة؛ لما لها من التأثير والخطورة الكبيرة في التوجيه ونقل المشاعر والأخبار والمعلومات وغير ذلك من الأوصاف التي ربما لا يبينها الحوار أو غيره من التقنيات، علاوة على أن حسن توظيفها واختيار الوقت المناسب لها يضيفي على العمل الأدبي عمقاً وإمتاعاً، ويمكننا أن نجد للوقفة بعض الأغراض في قصص الطفل الفلسطيني؛ ومنها:

نقل الحرمان وتجسيد المظالم:

عمد بعض الكتاب إلى الوقفة في قصص الطفل الفلسطيني لتجسيد الحرمان والمظالم؛ ومن ذلك ما نجده في قصة "الكنيسة والمقبرة" للكاتبة روضة الهدهد؛ تقول:

"كانت كل أم تبكي على بيتها وفراشها وذكرياتهما في تلك الدار.. وقد كان لهم في كل يوم أمل يتجدد بأن يعودوا إلى قريتهم الصغيرة تلك، وإلى شجر الزيتون والعنب الذي يملأ السهل والجبل.. ولكن اليوم وبعد أن علموا بالهدم، انقطع أي أمل لهم بالعودة، فكيف تكون الحياة دون أمل؟!".

(1) ينظر: القاضي، محمد وآخرون: معجم السرديات، ص 478.

(2) ينظر: جنيت، جيرار: عودة إلى خطاب الحكاية، ص 42-43.

(3) ينظر: جنيت، جيرار: خطاب الحكاية بحث في المنهج، ص 108.

ما أروع هذا التساؤل الذي ختمت به الكاتبة الوقفة! نعم، كيف تكون الحياة بلا أمل!! لنا أن نتخيل ذلك؛ لقد جسد هذا السؤال مشاعر الفلسطينيين بكل جدارة وبراعة وأغنى عن كثير من الكلام.

عرض التفاصيل ذات المغزى:

يجنح الكتاب إلى تناول تفاصيل المشهد أو وصف أحد الشخصيات بدقة عندما يكون لتلك التفاصيل بعض الدلالات التي يلتقطها القارئ وتوفر الكثير من السرد والاستطراد؛ ويمكننا أن نجد ذلك في قصة "لغز الأطفال والبنديقية في مخيم الدهيشة" تبين الكاتبة روضة الهدهد أن هؤلاء الصهاينة مخترقون من الداخل، وقد أكد الواقع نفسه ذلك، وصار المجاهدون على اختلاف فصائلهم يقاتون العدو الإسرائيلي بسلاحه؛ تقول الكاتبة؛ واصفة جنديًا صهيونيًا خائنًا:

"كان الحارس شابًا نحيلًا، تبدو على وجهه صفرة غريبة تحاكي صفرة الأموات، ويمشي متباطئًا كأن به مرضًا، وكان يلبس الملابس الرسمية.. الكاكي المرقط ويضع زنارًا عريضًا على خصره، ويصوب بندقيته تجاه المارة ويده على الزناد وكأنه يقوم بدور تمثيلي في فيلم، ينظر إلى ساعته كل لحظة وكأنه ينتظر أحدًا...".

يبين لنا الوصف السابق أن ذلك الخائن يبدو أنه مدمن للكحول أو المخدرات التي جعلته يتهاون في كرامته وخدمته قومه؛ وقد دل شحوبه وعصبيته على ذلك، علاوة على أن حركاته المسرحية تتم عن عدم الإخلاص؛ كأنه يؤدي دورًا روتينيًا ثقيلًا يريد أن يتمه بفارغ الصبر.

المسألة الثانية: توظيف تقنية الوقفة في قصص الطفل الصهيوني:

استند أيضًا الكتاب الصهاينة في رسم صورة العربي إلى تقنية الوقفة؛ ويمكننا أن نجد للوقفة بعض الأغراض في قصص الطفل الصهيوني؛ ومنها:

الإمعان في احتقار العرب:

وجد الكتاب الصهاينة في تقنية الوقفة غايتهم في عرض التفاصيل وتقليب الأوصاف على كل الوجوه؛ فلم يجدوا سبيلًا لدم العرب واحتقارهم إلا سلوكه في هذه التقنية؛ ويمكننا أن نجد ذلك في قصة "القرية العربية"، يقول الكاتب:

"إن شروط النظافة والمحافظة على الصحة تكاد تنعدم بين العرب، والإجراءات الصحية التي لا يستطيع الإنسان العيش من دونها غير متوافرة في أي قرية عربية، حتى في القرى الغنية، ولعدم وجود المراحيض يقضي العرب حاجاتهم في أي مكان، فالأولاد يقضون حاجاتهم في الساحة أو الحظيرة أو البيت، أما الكبار فيأخذ الواحد منهم إبريقًا ويخرج إلى الحقل، وعادة الاستحمام تكاد تكون غير مألوفة عند العرب، وهناك بعض الفلاحين الذين لم يمس الماء أجسادهم منذ زمن طويل.. وهناك مثل عند العرب يقول: "الطفل الوسخ أصح وأشد"، والعرب يرتدون الثياب ولا يغيرونها إلى أن تبلى، حتى تمتلئ بالقمل والبراغيث، ويكلح لونها".

والأمر نفسه نجده في هذه القصة المقتبسة من كتاب "وجه قبيح في المرأة" للكاتب أدير كوهن:

"وفور وصولنا استقبلتنا مجموعة من الأطفال القذرين ويرتدون الأسمال البالية وحفاة الأقدام، وأحاطوا بالخيول التي نمتطيها ومن كل مكان برز كلب ينبج ويقفز على ثلاثة أرجل وبينما كنا في طريقنا... مررنا بقرية عربية ووجدنا أنفسنا أمام كهوف عربية يتصاعد منها دخان المواقد والكلاب الكريهة المنظر تتبج أماننا".

وقد تكرر الأمر في القصة نفسها؛ يقول الكاتب:

"لقد اقترب منا نادل ضخم الجثة كبير الكرش ليستقبل طلباتنا. وكان المكان صغيرا قذرا ولكن كان الجلوس في المقهى أفضل بكثير من التعرض لأشعة الشمس اللاهبة في الشارع، وكانت هناك مروحة قديمة مدلاة من السقف وصاحب المقهى يقف وراء المنضدة ينكش أسنانه الصفراء وينظر نحونا نظرات لا معنى لها وكان النادل يطرد الذباب بمنشفة قذرة".

الطعن في المناضلين العرب وتشويههم:

كانت تقنية الوقفة حقلًا خصبًا للافتراء والتشويه للمناضلين العرب ووصمهم بأقبح الصفات؛ ويمكن أن نجد ذلك في كتاب "أوز يا أوز"، يقول الكاتب لابين:

"ربما تكون قد سمعت شيئاً عن "سليم خديجة"؛ وهو اسم مناضل فلسطيني قاوم احتلال اليهود ليافا سنة 1948م، ويصف لابين؛ قائلاً: "على أي حال، إذا لم تكن قد سمعت عنه شيئاً، فلتستمع لي باهتمام

ويقظة، لقد كان شريراً مثل أفعى صينية، جريئاً مثل نمر هندي، وكان في طفولته أشبه باللصوص منه إلى الأطفال العاديين، ولد في يافا، وعندما بلغ الثانية من عمره عض أذن أمه فقطعها، وحين بلغ السابعة ضرب رأس معلمته بالكرسي، وقال لها بكل غباء ووقاحة: إن اثنين زائد اثنين يساوي خمسة!! وفي العاشرة من عمره دفع عمه تحت عجلات سيارة".

المبحث الثالث: التصوير

يُعد التصوير من أهم أدوات الأدب شعره ونثره؛ لأنه يبعده عن المباشرة والخطابية، علاوة على الإمتاع والتشويق، وما فيه من تقنن والخروج بالمتلقي من عالمه الضيق المملوء بالتحديات والكد والصعوبات والتحديات إلى عوالم أخرى سحرية عجيبة أو عوالم موازية قد يرى نفسه فيها أو يرى غيره؛ فيحصل له من الترويح والمتعة ما شاء له الفن، بيد أن التصوير أو الصورة الفنية تنقسم إلى نوعين سأتناولهما في السطور الآتية.

المطلب الأول: الصورة الجزئية:

الفرع الأول: تعريف الصورة الفنية:

"الصورة لغة:

تعني الصورة في اللغة الشكل⁽¹⁾، وهي أيضاً التصوير؛ أي: أي محاكاة خلق الله⁽²⁾، وتعني أيضاً التمثال، والصفة؛ فيقال: "صورة المسألة كذا؛ أي: صفتها كذا"⁽³⁾؛ ومن ثم يمكن القول بأن الصورة لغة تعني التشكيل.

(1) ينظر: ابن سيده: المحكم، مادة "ص، و، ر"، "369/8".

(2) ينظر: المُطَرِّزِي، ناصر بن عبد السيد أبي المكارم ابن علي، أبو الفتح، برهان الدين الخوارزمي "المتوفى: 610هـ": المغرب، (دط)، دار الكتاب العربي، "دت"، ص 274.

(3) ينظر: الفيومي: المصباح المنير، مادة "ص، و، ر"، "350/1".

"ب" الصورة اصطلاحًا:

عرفها عبد القاهر الجرجاني بأنها عبارة عن تمثيل من خلال الربط بين المعقول والمنظور⁽¹⁾، وعرفها عبد القادر القط بأنها تضافر الألفاظ والتراكيب والمجاز لرسم صور تعبر عن التجربة الشعرية⁽²⁾. وقد عرفها الناقد والشاعر الإنجليزي سيسل دي لويس بأنها عبارة عن رسم بالكلمات، والرسم تجسيد للون والحركة والصوت⁽³⁾.

وعرفها علي البطل بكونها تشكيل لغوي يؤلفه خيال الفنان من خلال معطيات كثيرة أهمها عالمه المحسوس وبيئته؛ فمعظم الصور تستند إلى الحواس، إلى جانب الصور النفسية والعقلية، بيد أنها ليست كثيرة مثل الصور الحسية⁽⁴⁾.

ومن ثم فيمكن تعريف الصورة بأنها تمثيل تتجسد فيه عناصر التجربة الأدبية من عاطفة وفكرة وعبارة، على أن الصورة تنقسم إلى قسمين:

أحدهما: الصورة الجزئية:

وهي الصورة المتعارف عليها أو التصوير القديم المتمثل في التشبيه والاستعارة والكناية. وفيما يأتي سأتناول توظيف الصورة الجزئية في الصورتين؛ صورة الصهيوني، وصورة العربي.

أولاً: توظيف الصور الجزئية في قصص الطفل الفلسطيني:

1. التشبيه:

-
- (1) ينظر: عبد القاهر الجرجاني، أبو بكر بن عبد الرحمن بن محمد "المتوفى: 471هـ": دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: محمود محمد شاكر أبو فهر، ط3، مطبعة المدني، القاهرة، 1992م، ص 508.
 - (2) ينظر: القط، عبد القادر: الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، ط2، دار النهضة العربية، القاهرة، 1981م، ص 391.
 - (3) ينظر: داي لويس: الصورة الشعرية، ترجمة: أحمد الجنابي، مالك ميري، سليمان حسن إبراهيم، دار الرشيد، بغداد، 1982م، ص 21.
 - (4) ينظر: البطل، علي. (1980): الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري، ط1، دار الأندلس، بيروت، ص 30.

التشبيه هو إلحاق أمر بأمر في معنى بأداة ملفوظة أو مقدرة⁽¹⁾.

كان للتشبيه حضور في قصص الطفل الفلسطيني؛ وذلك لأغراض؛ منها:

• التشويه:

يمكننا أن نجد ذلك في قصة "الزمن الحزين في دير ياسين"؛ حيث تتناول الكاتبة روضة الهدهد بعض أوصاف اللص الصهيوني الجسدية؛ وهو منحى مهم في الفن القصصي؛ لأنه يمثل تحليلًا بصريًا لسمات هذا العدو الشكليه؛ تقول روضة الهدهد:

"مناحيم بيغن الأصفر الوجه كالمسلول".

المشبه مناحم بيجن، والمشبه به المسلول، بهدف التشويه؛ فالكاتبة تريد أن تضفي على بيجن قبحًا وتنفيرًا؛ فلا شك أن المسلول شخص منفر يعافه الناس ويخشون منه العدوى.

• التقريب:

ويمكن أن نجد ذلك أيضًا في قصة "الزمن الحزين في دير ياسين"؛ تقول الكاتبة:

"مناحيم بيغن... الثعلب الماكر".

وهو تشبيه مؤكد محذوف الأداة؛ والتقدير: "كالثعلب"، ووجه الشبه المكر، وإنما أرادت الكاتبة به التقريب؛ كي يتضح للأطفال شخصية بيجن.

• التهويل:

قد يستند الكاتب إلى التشبيه بهدف التهويل؛ ويمكننا أن نجد ذلك في قصة "سر القنابل الموقوتة" للكاتبة روضة الهدهد؛ تقول:

(1) ينظر: بهاء الدين السبكي: عروس الأفراح، (20/2)؛ عصام الدين الحنفي، إبراهيم بن محمد بن عريشاه (دت): الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، تحقيق: عبد الحميد هندراوي، (دط)، دار الكتب العلمية، بيروت، (173/1).

"عندما يفتح الجندي المستعمر تتكة الزيت بكل وحشية وقسوة، لينسكب الزيت الغالي على الأرض... عندها لا يكون زيتاً... يكون ثورة تملأ النفس... يكون حقاً... عندما تعمل حربة الجندي الغريب في كيس القمح لينفجر الكيس، ويسقط على الأرض حبات... عندها لا يكون قمحاً... بل قنابل موقوتة تنفجر".

هذا تشبيه مجمل، والمشبّه الزيت والقمح، والمشبّه به الحق، والثورة، والقنابل... وقد أرادت الكاتبة أن تفخم التشبيه فجعلت المشبه به أموراً فخمة مهولة؛ لتعكس ما يعتل في نفوس الفلسطينيين جراء تخريب الصهاينة.

. الاستعارة:

الاستعارة هي الاختصار على ذكر أحد طرفي التشبيه مع ادعاء أن المشبه داخل في جنس المشبه به⁽¹⁾.

كان للاستعارة حضور في قصص الطفل الفلسطيني؛ وذلك لأغراض؛ منها:

• الأرض لا تتسع للعرب واليهود معاً:

قد يستند الكتاب إلى الاستعارة لتصوير حجم الخلاف والصراع بين الطرفين العربي والصهيوني ومدى حجمه وتفاقمه؛ ما جعل وجودهما في حيز واحد وعلى أرض واحدة مستحيلًا؛ ويمكن أن نجد ذلك في قصة "الطريق إلى القدس" التي تبين جانب المقاومة وتتناوله بوضوح وتميز؛ يقول الكاتب مفيد نحلة: "حتى الطرقات باتت تضيق بنا أيها الشيخ".

هنا صور الكاتب الطرقات بإنسان متبرم ضيق الأفق لا يستطيع أن يتحمل العرب ولا أن يصبر عليهم، ثم حذف المشبه به "الإنسان المتبرم" وجاء بشيء من لوازمه؛ وهو "تضيق" للتخييل على سبيل الاستعارة بالكناية التي منحها التشخيص جمالاً ورونقاً.

(1) ينظر: السكاكي، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي (1987): مفتاح العلوم، تحقيق: نعيم زرزور، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 369.

• انعكاس الحزن والأسى على الطبيعة:

قد يعتمد الكتاب في تصوير المشاهد الحزينة ونقل التجارب الأليمة إلى التوحد مع مظاهر الكون والطبيعة في عبارات اخاذة من شأنها أن تنقل التجربة بكل ما فيها من غصة ومرارة إلى المتلقي؛ ويمكن أن نجد ذلك في قصة "كان يومذاك طفلاً"؛ يقول الكاتب غسان كنفاني:

"وقد اغتسل الطريق، أمام عينيه، بغشاوة من الدوار والضباب والبكاء".

هنا شبه الكاتب الطريق بإنسان يغتسل بالدموع، ثم حذف المشبه به، وأتى بشيء من لوازمه "اغتسل" للتخييل على سبيل الاستعارة المكنية التي زادها التشخيص حسناً ورونقاً، وهي في الوقت نفسه كناية عن شدة الحزة والأسى حتى إن الطريق صار يسبح في الدموع.

• إبراز قسوة وسطوة المحتل الغاشم:

تلعب الاستعارة دوراً مهماً لدى الكاتب في إبراز مدى قسوة المحتل وسطوته على العزل الآمنين الذين لا يستطيعون حيلة؛ ويمكننا أن نجد ذلك في قصة "الزمن الحزين في دير ياسين" التي تتناول جانباً آخر من الخيانة، يتمثل في خيانة القيم الإنسانية والأعراف والاتفاقيات الدولية؛ وذلك من خلال مباغته الآمنين العزل والضعفاء من الشيوخ والنساء والأطفال في وقت غفلتهم ومستراحهم، وهم غير مستعدين لا لهجوم ولا لدفاع؛ تقول الكاتبة روضة الهدهد على لسان بيجن:

"سنقضي عليهم ونزرع في قلوب العرب الرعب".

شبه القلوب بأرض صالحة للزراعة بعدما أصابها القهر واليأس والظلم؛ فصارت هينة سهلة منقادة، ثم حذف المشبه به "الأرض"، وأتى بشيء من لوازمه "نزرع"، علاوة على ما فيها من الكناية عن القسوة والسيطرة؛ لما في الفعل زرع من الإيحاء بالقوة في الغرس، ولما في المغروس من الاستقرار والنمو والبقاء والإثمار.

الكناية:

الكناية لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة المعنيين اللازم والملزوم⁽¹⁾.

كان للكناية حضور في قصص الطفل الفلسطيني؛ وذلك لأغراض؛ منها:

• إظهار أخلاق الفلسطينيين:

تُعَدّ الكناية مسرحاً مناسباً للتعبير عن أي دلالة بطريق غير مباشر؛ فهي تعانق روح الفن، وتطير بأجنحة من الجمال بعيداً عن المباشرة والخطابية، وقد استند الكتاب إليها للتعبير عن شمائل الفلسطينيين؛ ويمكننا أن نجد ذلك في قصة "الطريق إلى القدس"؛ يقول الكاتب مفيد نحلة:

"بلادنا لا تضيق بأحد".

وهذا كناية عن صفة الكرم؛ فالذي لا يضيق بأحد يتسع للجميع.

الدلالة على أصالة وعراقة الفلسطينيين:

يستند بعض الكتاب إلى التعبير بالكناية عن أصالة الشعب الفلسطيني وعراقة وجوده على أرضه وخيراته التي صنعها على عينه؛ ويمكننا أن نجد ذلك في قصة "كفر قاسم والمحاكمة العادلة" التي ورد فيها:

"تنتشر أشجار الزيتون خضراء.. يانعة.. عميقة الجذور متفرعة الأغصان".

إن عمق جذور أشجار الزيتون يدل على طول عمرها، وطول عمرها يلزم منه أن أجيالاً قديمة سابقة قد زرعتها قبل أن يكون للصهاينة أي دولة أو أي مزاعم.

(1) ينظر: بهاء الدين السبكي: عروس الأفراح، (206/3) وما بعدها.

• الدلالة على انحراف الصهيوني:

ربما يتكئ الكاتب على الكناية للتعبير عن أمور من المستحسن السكوت عنها في أدب الطفل؛ لأن عالمه بريء لا يعرف الفواحش والمخازي والانحرافات؛ ويمكننا أن نجد ذلك في قصة "لغز الأطفال والبنديقية في مخيم الدهيشة" تقول الكاتبة روضة:

"كان الحارس شاباً نحيلًا، تبدو على وجهه صفرة غريبة تحاكي صفرة الأموات".

إن هذا الوصف لذلك الحارس الصهيوني كناية عن انحرافه الذي سبب له المرض؛ لأن صفرة الوجه والنحول يشيران إلى الإسراف في الشهوات وتعاطي الخمر والمخدرات، التي تؤدي إلى المرض والشحوب والنحول؛ وإن انتشار ذلك بين هؤلاء القوم يشي بنهايتهم وتفكك كياناتهم.

ثانيًا: توظيف الصور الجزئية في قصص الطفل الصهيوني:

التشبيه:

كان للتشبيه حضور في قصص الطفل الصهيوني؛ وذلك لأغراض؛ منها:

• التقريب:

اتخذ بعض الكتاب الصهاينة من التشبيه أداة تعبيرية وفنية للدلالة على قسوة العرب وشراستهم، وكان التشبيه أداة مناسبة لتقريب هذه المعاني إلى نفوس وعقول الأطفال؛ ويمكننا أن نجد ذلك في قصة "مقاصد من الحدود الشمالية" التي ورد فيها ما نصه:

"لقد باغت العرب اليهود كالحوانات المفترسة".

شبه الكاتب العرب بالحيوانات المفترسة، وأداة التشبيه الكاف، ووجه الشبه الافتراض؛ فهو تشبيه مفصل يستهدف تقريب تلك المعاني إلى الأطفال.

•وصم العربي بالجبن والذل:

يستند الكتاب أحياناً إلى التشبيه بوصفه أداة فنية للتعبير عن جبن العرب ووصفهم بالضعف؛ ويمكننا أن نجد ذلك في قصة "العربي المهزوم" التي ورد فيها:

"أحد الجنود المصريين بكى كطفل صغير ... خوفاً... واشتياقاً لأمه".

شبه الكاتب الجندي المصري بطفل يبكي، وأداة التشبيه الكاف، ووجه الشبه الخوف والشوق إلى الأم، ولا يخفى ما في هذا التشبيه من السخرية اللاذعة والعنف؛ فهو تشبيه مفصل أيضاً.

ونجد الدلالة نفسها في قصة أخرى؛ هي قصة "خريف أخضر" التي تضيف على جبن العربي الفلسطيني بعداً آخر يتمثل في كونه أمام اليهودي خائر القوى لا يعرف إلا التذلل له والانقياد؛ يقول الكاتب:

"وكان في كل مرة يعود كالكلب العائد إلى وكره"

هنا يشبه الكاتب الجندي العربي بالكلب، وأداة التشبيه الكاف، ووجه الشبه العودة إلى وكره مرة أخرى مهما يلاقي فيه من المذلة؛ والتشبيه هنا أيضاً مفصل.

الكناية:

كان للكناية حضور في قصص الطفل الصهيوني؛ وذلك لأغراض؛ منها:

•الاستضعاف وانعدام النصير:

ربما يلجأ الكتاب إلى الكناية بوصفها أداة فنية للتعبير عن استضعاف العرب للصهاينة وانعدام النصير الذي ينجدهم من بين براثن الوحوش العربية، وقد أبدع الكاتب زئيف وردي في قصة "من الذي يركض في الأزقة" في التعبير عن ذلك بقوله:

"أنا ورافي ألصقنا ظهورنا بأحد الجدران لندافع عن أنفسنا".

إن إلصاق الظهر بالجدار عند الدفاع عن النفس يدل على الضعف وقلة العدد، ويلزم من ذلك انعدام النصير المعين؛ فهي هو بطل القصة وصديقه رافي لا يجدون خلاصاً ولا مناصاً إلا باللجوء إلى الجدار

الذي يحمي ظهريهما من المباغته؛ إنه مشهد ملحمي يبين ضعف الصهاينة وقلة نصيرهم على أرض العرب!

•الدلالة على سوء نشأة المناضلين العرب:

يستخدم بعض الكتاب الكناية للتواري خلفها في التعبير عن لؤم أصل المناضلين وسوء منبتهم ونشأتهم القبيحة منذ نعومة أظفارهم؛ ويمكننا أن نجد ذلك في كتاب "أوز يا اوز"، يقول الكاتب لابين: "وكان في طفولته أشبه باللصوص منه إلى الأطفال العاديين".

إن النشأة على السرقة والاعتصاب تدل على اللصوصية المتأصلة، ويلزم عن ذلك لؤم الأصل وسوء النشأة.

•الدلالة على انعدام المروءة والاتصاف بالجبن:

يلجأ بعض الكتاب إلى استعمال الكناية بوصفها أداة فنية للتعبير عن انعدام المروءة في العرب، علاوة على جبنهم وخوفهم من مواجهة جيش نظامي، ويمكننا أن نجد ذلك ورد في قصة "مقاصد من الحدود الشمالية" التي ورد فيها ما نصه:

"أي نوع من الرجال هؤلاء العرب؟! لا يقتلون من اليهود إلا العُزْل من الأطفال والنساء والشيوخ!".

إن استهداف الأطفال والنساء والشيوخ بالقتل ينم عن الضعف واللؤم والأصل المنحط، ويلزم من هذا اللؤم والحقارة والجبن.

المبحث الرابع: بين الخيال والواقعية

المطلب الأول: صورة الصهيوني بين الواقعية والخيالية والرمزية:

الملاحظ من خلال استعراض قصص الطفل الفلسطيني التي تناولت صورة الصهيوني أنها قصص واقعية ابتعدت عن الخيال والرمزية؛ فمسألة مصادرة الأراضي والبيوت والإعدامات الميدانية وسلب الممتلكات وغير ذلك مما تمارسه سلطة الاحتلال صباح مساء صارت مشاهد اعتيادية تحفل بها نشرات الأخبار في تلفازات العالم كافة، وليست سرّاً أو أموراً تجري في الخفاء، بل إن سلطة الاحتلال لا يمكنها تكذيب ذلك أو نفيه، غاية ما تفعله أنها تحاول تسويغه تحت أي ذريعة واهية في ظل الاستقطاب العالمي والهيمنة الغربية التي ترعى المصالح الصهيونية.

لكن على الرغم من ذلك لا نعدم النمط الخيالي أو الرمزي في قصص الطفل الفلسطيني، وإن كان قليلاً نادراً؛ من ذلك قصة "إيمان والطائرة الورقية" للكاتبة ديمة سحويل؛ تقول الكاتبة؛ وهي قصة رمزية خيالية تحكي قصة طفلة اسمها إيمان لديها طائرة ورقية تأخذها إلى رحلات عجيبة بعيدة في بلاد الأفراح، ومما ورد في تلك القصة:

"صارت إيمان تبكي..."

سألته الطائرة الورقية: ولماذا تبكين الآن يا صغیرتي؟ ألم تعجبك بلاد الفرح والمرح؟

ردت إيمان: لقد تذكرت أهلي وأصدقائي الذين يعانون من القهر والتعب قارنت بين الفراشات التي تتطاير في سماء بلاد الفرح والمرح وبين الطائرات الحربية التي تحلق في سماء بلادنا، وبين رائحة البارود في بلادنا وأريج البرتقال في بلادهم وبين الأطفال الذين يلهون ليل نهار وبين أطفال بلادي... قارنت وقارنت وتذكرت وبكيت، اعذرني أيتها الطائرة الورقية فكم تمنيت أن يحظى أهلي وإخوتي وجيراني وأصدقائي بما حظيت به من رؤية بلاد الفرح والمرح...

أخبرتها الطائرة الورقية بأنها على الفور سترجعها لبلادها لتنتقل معها من تشاء من أهلها لتلك البلاد الجميلة.

فرحت إيمان كثيرا لأن إخوتها سيلعبون بحدائق واسعة وستغزل أمها من خيوط الشمس ثيابا لهم وسيجمع والدها الأصداف الملونة من شاطئ البحر ليبنى لهم منزلا جميلا وسيجتمع الجيران ويتبادلون أحلى الحكايات أمام شاطئ البحر الأزرق.

لحظات ولحظات جميلة عاشتها إيمان وهي على ظهر الطائرة الورقية تتخيل.

وصلت الطائرة الورقية إلى أجواء بلاد اليأس والحرب واقتربت من منزل إيمان.

خافت الطائرة من إنزال إيمان الصغيرة على الأرض لأنها لمحت بالقرب من بوابة منزلها معسكرا للجيش.

ابتسمت إيمان وقالت للطائرة لا تخافي لقد تعودنا على وجودهم...

هبطت الطائرة الورقية وحطت على الأرض بعد أن طمأنتها إيمان

نزلت إيمان على الأرض وطلبت من طيارة الورق أن تنتظرها حتى تحضر مع أهلها وجيرانها.

وغابت إيمان.....ولم ترجع

وظلت الطائرة الورقية تنتظر.....ولم تقلع."

إن هذه القصة تمثل حالة من الاغتراب التي يعانيها الطفل الفلسطيني وسط أجواء الحرب واللا دولة تحت آلة القمع الصهيونية الرهيبة؛ تلك الآلة التي حطمت يومه وغده، وجعلته يلجأ إلى عالم الأحلام والخيال والرموز في محاولة للتفيس والترويح عن أرواحهم المعذبة تحت سياط الواقع الذي سد أقطاره الجلادون... والمفجع في القصة أنها على الرغم مما فيها من خيالية ورمزية تنتهي بفاجعة موت البطلة الطفلة إيمان؛ وكأنّ الكاتبة تريد بذلك أن تشير أن الموت حقيقة راسخة في فلسطين لا يمكن الهرب منه ولو بالأحلام.

المطلب الثاني: صورة الفلسطيني بين الواقعية والخيالية والرمزية:

القصص الصهيوني الموجهة للطفل التي ترسم صورة للعربي كانت في مجملها واقعية تتحرى اللغة السهلة البسيطة التي لا تحتاج إلى إعمال الفكر في الخيال والرمزية للوصول إلى أهداف الكاتب ومراميه؛ وهي بذلك تتشابه أو تتلاقى مع قصص الطفل الفلسطيني في طبيعة الألفاظ واختيار اللغة السهلة الواقعية، وعلى الرغم من ذلك نجد أن هناك إكثاراً نسبياً في الترميز لدى الكاتب الصهاينة؛ ربما لطبيعة اليهود القائمة على المراوغة والخبث أو ربما لظروف سياسية كانت مراعاتها تقتضي عدم التصريح والصدام المباشر؛ ومن تلك الأعمال قصة "دندين يبحر في البحر"، للكاتب "أون سيرج"، يقول:

"كان القبطان يرتدي بدلة عسكرية أنيقة، مملوءة بالنياشين الذهبية الجميلة.. فألقى دندين به أولاً في الماء.. ثم ألقى وراءه في الماء واحداً إثر الآخر.. كل الذين جاؤوا مع القبطان.. فامتألت مياه البحر برعاع مصر وهم يرتجفون".

هذه القصة ترمز إلى حرب حزيران التي جرى فيها هزيمة العرب هزيمة نكراء أضاعت الكثير من الأراضي العربية ووضعت الفلسطينيين في موقف لا يحسدون عليه؛ إذ ضيق عليهم الصهاينة الخناق، وازدادت معاناتهم أضاعاً مضاعفة.

هنا يرمز الكاتب بذلك القبطان إلى عبد الناصر رئيس مصر العربية في تلك الحقبة؛ إذ كان مولعاً بالملابس العسكرية ذات النياشين، كما أن هذه الملابس تدل على الحرب، أما كونه قبطاناً، فهذا للدلالة على دوره في رئاسة مصر وحكم البلاد، أما الذين جاؤوا معه، فيرمز بهم إلى الجيش المصري المكسور في حرب الأيام الستة.

ثم نجد ترميزاً آخر تمثله قصة "الأمير والقمر" للكاتب "يوري ايفانز"؛ يقول:

"قالت الصغيرة لي: من الذي سرق القمر؟

قلت: العرب.

قالت: ماذا يفعلون به؟

قلت: يعلقونه للزينة على حوائط بيوتهم!

قالت: ونحن؟

قلت: نحوله إلى مصابيح صغيرة تضيء أرض إسرائيل كلها.

ومنذ ذلك الوقت، والصغيرة تحلم بالقمر، وتكره العرب، لأنهم سرقوا حلمها وحلم أبنائها.

هذا الصباح جاء أمير صغير إلى بيتنا وقال: هل تقبلونني ضيفا؟

رضينا به، لكن الصغيرة قالت: على أن تقول لنا من أنت؟

قال: أنا فارس من فرسان الأرض، محارب قديم في أرض إسرائيل. مت صغيرا، لكنني أخرج مرة في

كل عام، أطوف في هذه الأرض، وأسأل إن كان شعبي يسكنها أم لا.

قالت الصغيرة: نحن شعبك، وأنا حبيبك أيها الأمير.

قال الأمير: ما أروعك... أطلب منك الملجأ ليلة واحدة، فتفتحين لي قلبك، أنت يهودية حقا.

قلت: نعم، كلنا هنا شعب إسرائيل.

ضرب الأمير برمحه وقال: إذن تحقق الحلم الآن أستطيع أن أعود إلى قبري مرتاح البال.

تشبثت به الصغيرة، وقالت: لا... لم يتحقق الحلم بعد.

قال الأمير: كيف؟

قالت الصغيرة: لقد سرقوا القمر.

قال الأمير "وهو يضرب برمحه مرة ثانية": من؟

قالت الصغيرة: العرب.

بصق الأمير على الأرض قال: الجبناء، كلهم لصوص وقتلة، لكن لا بأس.

سألت الصغيرة: وماذا سنفعل؟

قال الأمير: انتظري الليلة، سأعود لك بالحلم الجميل.

انتظرت الصغيرة، القت رأسها على إطار النافذة.

وظلت تنظر إلى السماء.

ومرت الساعات، ونام الأطفال والنساء والرجال والشيخوخ، ولكن الصغيرة ظلت تنتظر، لم تيأس ولم تستسلم للنوم، لأنها تعرف أن أطفال شعب إسرائيل لا يكذبون.

بعد منتصف الليل بقليل، انشقت الغيوم فجأة، ورأت الصغيرة القمر لأول مرة، رأتها جميلاً ورائقاً، حدقت فيه طويلاً، ثم ركضت إلى وقالت: استيقظ يا أبي، استيقظ، وقادتنى إلى النافذة وقالت: أنظر يا أبي، هل هذا وجه الأمير الصغير؟

قلت: يا بنتي، الذي سرق القمر هو الذي قتل الأمير الصغير.

لم تبك الصغيرة، فقد تحقق حلمها وأشرق القمر على أرض إسرائيل.

إن القمر هنا رمز للحلم الصهيوني في إقامة دولته المزعومة من النيل إلى الفرات، وقد حجب عنهم ذلك الحلم العرب بوجودهم القهري الذي لا يمكن تجاهله، أما ذلك الأمير، فيرمز إلى المقاتلين عبر العصور في التراث اليهودي الذين سعوا لتحقيق تلك الأهداف.

الخاتمة

بعد هذا التطواف في هذه الدراسة التي تناولت صورة الفلسطيني في قصص الأطفال الصهاينة، وصورة الآخر الصهيوني في قصص الأطفال الفلسطينيين، وبعد عقد موازنة بينت بوضوح المفارقات بين الصورتين، قد خلص البحث إلى مجموعة من النتائج، واتخذ بعض التوصيات.

أولاً: النتائج:

هناك مجموعة كبيرة من النتائج خلص اليها؛ يمكن إجمالها على النحو الآتي:

• رسم الأدباء الفلسطينيين صورة لليهودي من خلال عدة صفات أساسية؛ هي:

- المحتل: الذي يحاول جاهداً استئصال العرب، وإحلال قطعان المستوطنين محلهم بعد أن جلبهم من شتى بقاع الأرض.

- اللص: الذي يطمع في كل ما يمتلكه العرب من مقتنيات وحقول ومزارع وبيوت، وكل ما تقع عليه عينه في فلسطين المنكوبة.

- المخرب: ذلك الذي يحاول بكل قوته إفساد الحياة في فلسطين من خلال الهدم والحرق والتجريف، وإتلاف المحاصيل والثمار.

- الظالم: وقد تجلّى ذلك من خلال المحاكمات الهزلية التي يعقدها من حين لآخر الصهاينة لجنودهم الذين يرتكبون جرائم حرب في حق الشعب الفلسطيني؛ وتتمخض هذه المحاكمات عن أحكام هزلية مسرحية!

- الخائن: وقد بينت هذه الصفة أن الجيش الإسرائيلي لا يقاتل عن عقيدة سليمة، وأنه جيش يمكن اختراقه بالمال والماديات.

- القاسي: وقد كشفت هذه الصفة عن حقيقة هذا العدو الصهيوني الذي يتمتع بقسوة الجبناء؛ فلا يعرف رحمة بضعيف، ولا احتراماً لمواثيق واتفاقيات دولية!

• رسم الأدباء الصهاينة صورة الفلسطيني من خلال عدة صفات أساسية؛ هي:

-الآخر الجبان، وقد بينتُ أن صورة الآخر الجبان تضمنت عدة أمور؛ أهمها: الاستناد إلى المفارقات، والعدو جبان وجيشنا شجاع، والعربي سادي بطبعه، وحقارة أسباب العداء توحي بالحبكة الدرامية، والالتكاء على أحداث تاريخية، والسخرية المريرة الممتزجة بالشماتة، والعربي ذليل بطبعه منقاد لليهود، وأكاذيب ملفقة، وقسوة مفرطة...

-الآخر الوحش، وقد بينت أن صورة العدو تضمنت عدة أمور؛ أهمها: المجتمع اليهودي مجتمع يتستر وراء شعارات الحرية والإخاء والمساواة وهو شعار ماسوني، والفلسطيني همجي غير متحضر، والفلسطيني وحش بطبعه، وتوسيع دائرة العقاب...

-الآخر القذر، وبينت أن صفة القذارة الحسية من أهم الثوابت في أدب الأطفال الصهيوني، وقد تضمنت هذه الصورة عدة أمور؛ أهمها: الكثير من مظاهر القذارة الحسية ذات الدلالات المتعددة، وسماحة اليهود في التعايش وقبول الآخر، وقذارة العرب وجهلهم، والاستناد إلى مبالغات لا يقبلها عقل أو منطق. •تناولت فيه موازنة بين الصورتين؛ صورة العربي، وصورة الصهيوني، يمكن تلخيص الأمر وإجماليه

على النحو الآتي:

-استعمل الكتاب العرب الجملة الخبرية في الإشارة إلى عدة دلالات؛ منها: "البراءة، وحشية العدو..."

-كان للإنشاء في قصص الطفل الفلسطيني دلالات متعددة؛ منها: "الاستتكار، الدعاء..."

-استعمل الكتاب الصهاينة الجملة الخبرية في الإشارة إلى عدة دلالات؛ منها: "لوصية العرب، الشغب..."

-كان للإنشاء في قصص الطفل الصهيوني دلالات متعددة؛ منها: "التعجب، الاستبعاد..."

-هناك مجموعة من الدلالات المستفادة من التكرار في قصص الطفل الفلسطيني؛ منها: "نقاء السريرة، الرغبة في القوة..."

-هناك مجموعة من الدلالات المستفادة من التكرار في قصص الطفل الصهيوني؛ منها: "ضياع الحق، القتل والهجوم..."

-لعب التقديم والتأخير دورًا مهمًا في قصص الطفل الفلسطيني التي تناولت صورة الصهيوني؛ ومن أغراضه: "الحرص، القصر، المسؤولية...".

-لعب التقديم والتأخير دورًا مهمًا في قصص الطفل الصهيوني التي تناولت صورة الفلسطيني؛ ومن أغراضه: "الغدر، الذل...".

-حملت الجملة الاسمية في قصص الطفل الفلسطيني دلالات متعددة؛ منها: "التعبير عن الحقائق، الدلالة على السجاية...".

-حملت الجملة الاسمية في قصص الطفل الصهيوني دلالات متعددة؛ منها: "القصر، الدلالة على الطبائع...".

-حملت الجملة الفعلية في قصص الطفل الفلسطيني دلالات متعددة؛ منها: "التجدد والحدوث، الدلالة على العادة...".

-حملت الجملة الفعلية في قصص الطفل الصهيوني دلالات متعددة؛ منها: "المباغثة، التجدد الاستمراري...".

-كان لتوظيف الاسترجاع في قصص الطفل الفلسطيني بعض الأغراض؛ منها: "الرغبة في الانتقام، تفسير واقع الفلسطينيين...".

-كان لتوظيف الاسترجاع في قصص الطفل الصهيوني بعض الأغراض؛ منها: "تسويق قيام دولة الاحتلال".

-كان لتوظيف الحوار في قصص الطفل الفلسطيني بعض الأغراض؛ منها: "بيان انعكاس الحرب على الأطفال، فضح المؤامرات...".

-كان لتوظيف الحوار في قصص الطفل الصهيوني بعض الأغراض؛ منها: "إظهار التمايز بين العرب واليهود".

-كان لتوظيف الوقفة في قصص الطفل الفلسطيني بعض الأغراض؛ منها: "نقل الحرمان وتجسيد المظالم، عرض التفاصيل ذات المغزى..."

-كان لتوظيف الوقفة في قصص الطفل الصهيوني بعض الأغراض؛ منها: "احتقار العرب، الطعن في المناضلين العرب وتشويههم..."

-تنوعت الصور الجزئية في قصص الطفل الفلسطيني بين التشبيه والاستعارة والكنائية، وكان لكل منها أغراض متعددة، في حين خلت تلك القصص من الصورة الكلية.

-تنوعت الصور الجزئية في قصص الطفل الفلسطيني بين التشبيه والاستعارة والكنائية، وكان لكل منها أغراض متعددة، في حين خلت تلك القصص من الصورة الكلية.

-الملاحظ من خلال استعراض قصص الطفل الفلسطيني التي تناولت صورة الصهيوني أنها قصص واقعية ابتعدت عن الخيال والرمزية؛ فمسألة مصادرة الأراضي والبيوت والإعدامات الميدانية وسلب الممتلكات وغير ذلك مما تمارسه سلطة الاحتلال صباح مساء صارت مشاهد اعتيادية تحفل بها نشرات الأخبار في تلفازات العالم كافة، وليست سرّاً أو أموراً تجري في الخفاء، بل إن سلطة الاحتلال لا يمكنها تكذيب ذلك أو نفيه، غاية ما تفعله أنها تحاول تسويغه تحت أي ذريعة واهية في ظل الاستقطاب العالمي والهيمنة الغربية التي ترعى المصالح الصهيونية، لكن على الرغم من ذلك لا نعدم النمط الخيالي أو الرمزي في قصص الطفل الفلسطيني، وإن كان قليلاً نادراً؛ من ذلك قصة "إيمان والطائرة الورقية".

-القصص الصهيوني الموجهة للطفل وترسم صورة للعربي كانت في مجملها واقعية تتحرى اللغة السهلة البسيطة التي لا تحتاج إلى إعمال الفكر في الخيال والرمزية للوصول إلى أهداف الكاتب ومراميه؛ وهي بذلك تتشابه أو تتلاقى مع قصص الطفل الفلسطيني في طبيعة الألفاظ واختيار اللغة السهلة الواقعية، وعلى الرغم من ذلك نجد أن هناك إكثاراً نسبياً في الترميز لدى الكتاب الصهاينة؛ ربما لطبيعة اليهود القائمة على المراوغة والجبن أو ربما لظروف سياسية كانت مراعاتها تقتضي عدم التصريح والصدام المباشر؛ ومن تلك الأعمال قصة "دندين يبحر في البحر"، للكاتب "أون سيرج".

ثانيًا: التوصيات:

اتخذ البحث عدة توصيات؛ أهمها:

- عقد مؤتمرات يكون محورها تناول الموازنة بين صور الأنا والآخر في الأعمال العربية والصهيونية.

- إعداد برامج للأطفال تتحدث باللغة الصهيونية تتناول المغالطات التي امتلأت بها قصص الطفل الصهيوني.

- إعداد أعمال فنية باللغة الصهيونية أو الإنجليزية تبين الحق الفلسطيني في أرضه واستقلاله.

- دراسة صورة الفلسطيني في مسرح وشعر الأطفال في الأدب الصهيوني .

المصادر والمراجع

أولاً: المراجع العربية:

• القرآن الكريم.

- ابن أبي الإصبع العدواني، عبد العظيم بن الواحد بن ظافر (دت): تحرير التعبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تحقيق: د. حفني محمد شرف، (دط)، لجنة إحياء التراث الإسلامي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، الجمهورية العربية المتحدة.
- إسماعيل، سيد علي (دت): أثر التراث العربي في المسرح المصري المعاصر، (دط)، مؤسسة هنداوي، القاهرة.
- إسماعيل، عز الدين (2003): آفاق الشعر الحديث والمعاصر في مصر، (دط)، دار غريب، القاهرة.
- الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، قرار الجمعية العامة 217 ألف، د-3، 10 كانون الأول 1948م.
- أورن يفتاحيل: اليهود الشرقيون والمكان "نشوء طبقة إثنية في بلديات التطوير"، قضايا إسرائيلية، العدد (4).
- البازعي، سعد (2007): دليل الناقد الأدبي، ط5، المركز الثقافي العربي، بيروت.
- البازعي، سعد (2008): الاختلاف الثقافي وثقافة الاختلاف، ط1، المركز الثقافي العربي، المغرب.
- بريغش، محمد حسن (1996): أدب الأطفال أهدافه وسماته، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- بطل، محمد بن أحمد بن محمد بن سليمان (1991): النظمُ المُستَعْدَبُ في تفسير غريب ألفاظ المهذب، دراسة وتحقيق وتعليق: د. مصطفى عبد الحفيظ سالم، (دط)، المكتبة التجارية، مكة المكرمة.
- البطل، علي. (1980): الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري، ط1، دار الأندلس، بيروت.
- بهاء الدين السبكي، أحمد بن علي بن عبد الكافي، أبو حامد (2003): عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، ط1، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت.
- بويغيو، بوجمعة وآخرون (2007): توظيف التراث في الشعر الجزائري الحديث، ط1، (دن).
- تشومسكي، نعوم (2001): النزعة الإنسانية، ترجمة: أيمن حداد، (دط)، دار الأدب، بيروت.

- الجابري، محمد عابد (دت): التراث والحداثة، (دط)، المركز الثقافي، الدار البيضاء.
- الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد (1992): دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: محمود محمد شاكر أبو فهر، ط3، مطبعة المدني، القاهرة.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان الموصلي (دت): الخصائص، ط4، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر.
- جنيت، جيرار (1997): خطاب الحكاية بحث في المنهج، ترجمة: محمد معتصم وآخرون، ط2، الهيئة العامة للمطابع الأميرية، القاهرة.
- جنيت، جيرار (2000): عودة إلى خطاب الحكاية، ترجمة: محمد معتصم، ط1، المركز الثقافي العربي.
- الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد (1987): الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط4، دار العلم للملايين، بيروت.
- حادث حقيقي تم في مدرسة للذكور في مخيم الدهيشة قام به الجنود ضد الأساتذة والمدير عام 1983م.
- حمدان، بثينة (2008): نسيمات باردة، (دط)، مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي.
- حمدان، جمال (1983): استراتيجية الاستعمار والتحرير، ط1، دار الشروق، بيروت.
- الحميدة، حمد صالح (2020): الماسونية ونشأتها وخطرها على العالم الإسلامي، مجلة كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية، العدد (39).
- الحميري، نشوان بن سعيد اليميني (1999): شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، تحقيق: د. حسين بن عبد الله العمري، مطهر بن علي الإرياني، د. يوسف محمد عبد الله، ط1، دار الفكر المعاصر، بيروت.
- حنفي، حسن (1980): تراثنا الفلسفي، مجلة فصول، المجلد (1)، العدد (1)، أكتوبر.
- حنون، عبد المجيد (2013): صورة الفرنسي والفرنسية في الرواية المغربية، ط2، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، قسنطينة.
- أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين (1420): البحر المحيط في التفسير، تحقيق: صدقي محمد جميل، (دط)، دار الفكر، بيروت.

- الخالدي، وليد. (1997): كي لا ننسى قرى فلسطين التي دمرتها إسرائيل سنة 1948م وأسماء شهدائها، ترجمة: حسيني زينة، ط1، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت.
- الخطيب القزويني، محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين (دت): الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، ط3، دار الجيل، بيروت.
- داي لويس (1982): الصورة الشعرية، ترجمة: أحمد الجنابي، مالك ميري، سليمان حسن إبراهيم، دار الرشيد، بغداد.
- دي، برتولومي لاس كازاس (دت): المسيحية والسيوف، ترجمة: سميرة عزمي الزين، المعهد الدولي للدراسات الإنسانية.
- الرازي، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي (1999): مختار الصحاح، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، ط5، المكتبة العصرية، بيروت.
- رمضان، علاء الدين (2009): العدو العربي في أدب الأطفال الصهيوني، الوعي الإسلامي، المجلد (46)، العدد (522)، فبراير.
- الزركشي، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر (1957): البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، مصر.
- زلط، أحمد (1996): أدب الطفولة؛ أصوله ومفاهيمه، ط4، الشركة العربية للنشر والتوزيع، القاهرة.
- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد جار الله (1998): أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الزبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض (دت): تاج العروس من جواهر القاموس، (دط)، دار الهداية.
- سحويل، ديمة: إيمان والطائرة الورقية، بتاريخ 2011/3/16م.
- السعدني، مصطفى (1987): التصوير الفني في شعر حسن إسماعيل، (دط)، منشأة المعارف، الإسكندرية.
- السكاكي، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي (1987): مفتاح العلوم، تحقيق: نعيم زرزور، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت.

- سلامي، أسعيداني (2017): الصورة الدعائية الماسونية في الرسومات المتحركة على الفكر التربوي "نموذج تطبيقي سيميولوجي"، مجلة فتوحات، العدد (4)، جانفي.
- سمعان، سمير (2004)، السواحري، خليل: التوجيهات العنصرية في مناهج التعليم الإسرائيلية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق.
- سينيوبولي، فرانكا (2007): الأدب الأوربي من منظور الآخر، ترجمة: مجدي يوسف، ط1، المشروع القومي للترجمة، القاهرة.
- شاهين، إبراهيم عياد (2016): توظيف الأدب الصهيوني التحريضي في أدب الأطفال مع دراسة نماذج كتاب وشعراء صهاينة من شعر وروايات، دار المقتبس، بيروت.
- ابن سيده المرسى، أبو الحسن علي بن إسماعيل (2000): المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هنداي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الشامي، رشاد عبد الله (1997): إشكالية اليهودية في إسرائيل، (دط)، عالم المعرفة.
- شراب، محمد محمد. (1987): معجم بلدان فلسطين، ط1، دار مأمون للتراث، بيروت.
- الشريف الجرجاني، علي بن محمد بن علي الزين (1983): التعريفات، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت.
- شريم، جوزيف مشال (1984): دليل الدراسات الأسلوبية، ط1، المؤسسة الجامعية، للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان.
- الشمالي، نضال (2006): الرواية والتاريخ، ط1، عالم الكتاب الحديث، الأردن.
- الصغاني، الحسن بن محمد بن الحسن (1979): التكملة والذيل والصلة لكتاب تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: عبد العليم الطحاوي وآخرين، (دط)، دار الكتب، القاهرة.
- صقر، محمد (1991): في النقد الأدبي الحديث، ط1، مطبعة الأمانة، القاهرة.
- صميذة، محمود (1992): دور أدب الأطفال الإسرائيلي في خلق صورة سلبية للشخصية العربية الفلسطينية، مجلة رسالة المشرق، مركز الدراسات الشرقية، المجلد (1)، العدد (1-3)، فبراير، مايو، أكتوبر.
- صميذة، محمود (1996): الشخصية العربية في القصة الصهيونية القصيرة المعاصرة، مجلة عالم الفكر، دولة الكويت، المجلد "24"، العدد "3"، يناير / مارس.

- الطَّرَابُلسِيّ، ابن عَبْدِ الْحَقِّ الْعُمَرِيّ (2018): دُرَرُ الْفَرَائِدِ الْمُسْتَحْسَنَةِ فِي شَرْحِ مَنْظُومَةِ ابْنِ الشَّيْخَةِ، تحقيق ودراسة: الدكتور سُليمان حُسَيْن الْعُمَيْرَات، ط1، دار ابن حزم، بيروت.
- عباد، عبد الرحمن (دت): قصة الحرب، ضمن مجموعة "ذاكرة البرتقال"، (دط)، (دن).
- عبد الرحمن، طه (1993): تجديد المنهج في تقويم التراث، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.
- عبد الرحمن، طه (2011): حوارات من أجل المستقبل، (دط)، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت.
- عبد السلام، سعيد (1997): دراسة معجمية لمصطلحات الأدب، عبري-عربي، مع سرد الألفاظ العربية، (دط)، (دن).
- عبد القاهر الجرجاني، أبو بكر بن عبد الرحمن بن محمد (1992): دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: محمود محمد شاكر أبو فهر، ط3، مطبعة المدني، القاهرة.
- عبد اللطيف، سناء (1997): هكذا يربي اليهود أطفالهم، دار القلم، بيروت.
- العبودي، محمد بن ناصر (2013): شمال أستراليا رحلة وحديث في أحوال المسلمين، ط1، دار الثلوثية للنشر والتوزيع.
- العزي، نفلة حسن أحمد (2010): تقنيات السرد وآليات تشكيله الفني، ط1، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان.
- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران (دت): الفروق اللغوية، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، (دط)، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة.
- عصام الدين الحنفي، إبراهيم بن محمد بن عربشاه (دت): الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، (دط)، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام (1422): المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت.
- العكش، منير (2009): أميركا والإبادات الثقافية لعنة كنعان الإنكليزية، ط1، رياض الريس للكتب والنشر.
- العلوي، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني (1423): الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ط1، المكتبة العصرية، بيروت.

- عمر، أحمد مختار عبد الحميد (2008): معجم اللغة العربية المعاصرة: ط1، عالم الكتب.
- عياد، شكري (1971): الأدب في عالم متغير، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- عياد، شكري محمد (1988): اللغة والإبداع، ط1، إنترناشيونال للطباعة، الجيزة.
- عياشي، منذر (2002): الأسلوبية وتحليل الخطاب، ط1، مركز الإنماء الحضاري، سورية.
- غراف، يورغن (1995): المذبحة تحت المجهر "الهولوكوست"، ترجمة: جواد بشارة، ط1، منشورات المدى للثقافة والنشر، دمشق.
- ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (1979): معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (دط)، دار الفكر.
- الفيومي، أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (دت): المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، (دط)، المكتبة العلمية، بيروت.
- القاضي، محمد وآخرون (2010): معجم السرديات، (دط)، دار الفارابي للنشر والتوزيع، تونس.
- قرانيا، محمد (2011): النزوع العنصري في الأدب الصهيوني، (دط)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق.
- قرقة، إدريس (2009): التراث في المسرح الجزائري، دراسة في الأشكال والمضامين، ط1، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر.
- القط، عبد القادر (1981): الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، ط2، دار النهضة العربية، القاهرة.
- كنفاني، غسان (2002): أطفال غسان كنفاني والقنديل الصغير، ط1، دار المدى للثقافة والنشر، القاهرة.
- كوهن، أدير (1988): وجه قبيح في المرأة، ترجمة: غازي السعدي، ط1، دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية.
- لحميداني، حميد (2000): بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.
- محمود، زكي نجيب (1980): موقفنا من التراث، مجلة فصول، المجلد (1)، العدد (1)، أكتوبر.
- مرشد، أحمد (2005): البنية والدلالة في روايات إبراهيم نصر، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

- أبو مساعد، أسماء عليان (2011): صورة العرب والمسلمين في المناهج الإسرائيلية، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الإسلامية، كلية التربية، قسم المناهج وطرق التدريس، غزة.
- المسيري، عبد الوهاب (1999): موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، دار الشروق، ط1، القاهرة.
- المُطَرِّزِي، ناصر بن عبد السيد أبي المكارم ابن علي، أبو الفتاح، برهان الدين الخوارزمي (دت): المغرب، (دط)، دار الكتاب العربي.
- الملايكة، نازك صادق (دت): قضايا الشعر المعاصر، ط5، دار العلم للملايين، بيروت.
- أبو منصور الأزهرى، محمد بن أحمد (2001): تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- النجار، وليد (1985): قضايا السرد عند نجيب محفوظ، ط1، دار الكتاب اللبناني.
- نحلة، مفيد (1988): الطريق إلى القدس، (دط)، دار الكرمل للنشر، عمان.
- نديم روحانا (2011): الفلسطينيون في إسرائيل قراءات في التاريخ والسياسة والمجتمع، مدى الكرمل، (دط)، حيفا.
- هايدغر، مارتن (2012): الكينونة والزمان، ترجمة: فتحي المسكيني، (دط)، دار الكتاب الجديد، بيروت.
- الهدهد، روضة (1992): الزمن الحزين في دير ياسين، رابطة الكتاب الأردنيين، عمان.
- الهدهد، روضة (2016): زيتونة ستي حفيظة "حكايات بطولية للأطفال 25" من قصص الصمود، دار كندة للنشر والتوزيع، عمان.
- الهدهد، روضة (1996): السجين الفنان، (دط)، المكتبة الوطنية.
- الهدهد، روضة (1987): سر القنابل الموقوتة، ط2، الشيخ أبو إبراهيم الكبير.
- الهدهد، روضة (1984): كفر قاسم والمحاكمة العادلة، (دط)، دار كندة للنشر والتوزيع، عمان.
- الهدهد، روضة (2016): الكنيسة والمقبرة، (دط)، دار كندة للنشر والتوزيع، عمان.
- الهدهد، روضة (1990): ليلي وفرن الصمود، من قصص الانتفاضة في نابلس، (دط)، دار كندة، عمان.

- الهدهد، روضة (1986): لغز الأطفال والبنديقية في مخيم الدهيشة، (دط)، دار كندة للنشر والتوزيع، عمان.
- الهدهد، روضة (1999): مغامرات كنعان وحنظله في نفق المسجد الأقصى، دار كندة، عمان.
- الهدهد، روضة (1986): يوم الأرض والقمح المشتعل، (دط)، دار كندة للنشر والتوزيع، عمان.
- الهسي، غيد عبد العزيز (2009): شيء من نور، مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، فلسطين.
- هلال، محمد غنيمي (2008): الأدب المقارن، ط9، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.
- وردي، زئيف (دت): من الذي يركض في الأزقة، ترجمة: عادل شواورة، (دط)، (دن).

ثانيًا: المواقع الإلكترونية:

- نجم، السيد (2016): بذور العدائية في الأدب الصهيوني، مجلة الكلمة، العدد (114)، أكتوبر، متوافر على الرابط الآتي:

<http://www.alkalimah.net/Articles/Read/8525>

- library of congress:، 1929، Palestine--History--Arab riots

<https://web.archive.org/web/20200315181855/http://id.loc.gov/authorities/subjects/sh85097175.html>

مراجع: في الأدب الصهيوني .

- 1- زهافي ، تمار فارته (2008) ، الانقلاب للوراء ، عم عوفيد للنشر م. م ، تل-أبيب .
- 2- فيدر ، غليلة رون (1978) ، يئاف يبحث عن السلام ، هوتسوت ملوء م. م، تل أبيب .
- 3- فيرنر ، امنون (1985) ، نير ضد سليم ، مكتبة بوعليم ، تل أبيب .
- 4- رينا بيلد. (1985): حركة بيتار في أرض إسرائيل منذ تأسيسها وحتى سنوات الخمسينات؛ حركة الشبيبة 1920-1960، إصدار: إياد يتسحاق بن تسفي، القدس.

1. סיפור: סלטה לאחר , סופרת: תמר ורטה-זהבי , שנת הוצאה: 2008 .

2. סיפור: יואב מחפש את השלום , סופרת: גלילה רון-פדר , שנת הוצאה:
1978

3. סיפור: ניר נגד סלים , סופר: אמנון ורנר .

الفهرس

المحتويات

أهداء	
إقرار	
الملخص	ج
Abstract	د
المقدمة	1
أهمية الموضوع:	5
أسباب اختيار الموضوع:	5
حدود البحث:	

6	مشكلة البحث:
6	أسئلة البحث:
7	أهداف البحث:
7	المنهج:
7	الدراسات السابقة:
10	التعقب على الدراسات السابقة:
12	الفصل الأول
12	صورة الصهيوني في قصص الطفل الفلسطيني
12	مقدمة:
14	المبحث الأول: الآخر المحتل
28	المبحث الثاني: الآخر اللص
36	المبحث الثالث: الآخر المخرب
49	المبحث الرابع: الآخر الظالم
58	المبحث الخامس: الآخر الخائن
65	المبحث السادس: الآخر القاسي
74	خلاصة الفصل الأول
75	الفصل الثاني
75	صورة الفلسطيني في قصص الطفل الصهيوني
75	مقدمة:
79	المبحث الأول: الآخر العدو
86	المبحث الثاني: الآخر الجبان
93	المبحث الثالث: الآخر الوحش
102	المبحث الرابع: الآخر القذر
111	الفصل الثالث
111	مقارنة الصورتين
111	مقدمة:
113	المبحث الأول الأساليب
113	المطلب الأول: تعريف الأسلوب:
114	المطلب الثاني: الخبر والإنشاء:
114	1- مفهوم الخبر والإنشاء:

114	2-الخبر والإنشاء في الصورتين:
129	المطلب الثالث: التقديم والتأخير:
130	الفرع الأول: التقديم والتأخير في قصص الطفل الصهيوني:
131	المطلب الرابع: الجمل الاسمية والفعلية:
138	المبحث الثاني: تقنيات السرد
138	أولاً: تقنية الاسترجاع:
141	ثانياً: تقنية الحوار:
145	ثالثاً: تقنية الاستشراق:
146	رابعاً: تقنية الوقفة:
149	المبحث الثالث: التصوير
149	المطلب الأول: الصورة الجزئية:
149	الفرع الأول: تعريف الصورة الفنية:
158	المبحث الرابع: بين الخيال والواقعية
158	المطلب الأول: صورة الصهيوني بين الواقعية والخيالية والرمزية:
160	المطلب الثاني: صورة الفلسطيني بين الواقعية والخيالية والرمزية:
163	الخاتمة
168	المصادر والمراجع
175	مراجع: في اللغة الصهيونية
176	الفهرس